هجوم القبارصة على الاسكندرية

٧٦٧هـ (= ١٣٦٥م)

من نصوص جديدة للنويرى

للدكتور حسن حبشي

أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب . جامعة عين شمس

تعرضت الاسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ (= ١٣٦٥م) لغزو صليبى كان بمثابة الهزة العنيفة للحكومة المملوكية مما حملها على الاهتمام بها بجملها — عن حق — خط الدفاع الأول عن البلاد وإعطائها مزيداً من الصلاحيات الإدارية تمثلت فى أن أصبحت لأول مرة نيابةً بعد أن كانت ولاية ، وأصبح نائبها يلقب « بملك الأمراء » . ومع ضخامة هذا الحادث الذى سماه معاصروه بالكائنة العظمى[1] من حيث الاستعدادات الحربية التى اتخذت من أجله على الصعيد الأوربى ومن حيث الخسائر الضخمة التى نزلت بالاسكندرية وأهلها إلا أنه لم يجد من يعنى بالكتابة عنه — فى إفاضة وإسهاب — من المؤرخين المسلمين سوى واحد فقط هو محمد بن قاسم بن محمد النويرى المالقى الاسكندرى من رجال القرن الثامن الهجرى (= الرابع عشر الميلادى) ، فقد وضع كتابه المسمى « بالإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية ، فى سنة سبع وستين وسبعمائة وعودتها إلى حالتها المرضية » ؛ ومن ثم فهو المصدر العربى الوحيد الذى تفرد بذكر هجوم القبارصة على هذا الثغر ، هذا بالإضافة إلى أن مؤلفه كان شاهد عيان لهذا الحادث الكبير الذى استعد له الغرب استعداداً كبيراً ظل معظمه طى الكتمان — حتى عن بعض الذين شاركوا فيه — وكان له صدى هائل ونتائج خطيرة ما بين محلية وخارجية .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ٤/٤٢٣٩ .

وقد تعددت الإشارات — نسبياً — فى كثير من المصادر الغربية والوثائق إلى الاستعدادات والاتصالات السياسية التى أجراها ملك قبرص بطرس اللوزينيانى صاحب مشروع الغزو ومنفذه ، كما أن هناك ملحمة شعرية فى الأدب الأوربى عنوانها .La Prise de Alexandrie

وقد تناول « الإلمام » الوقعة بالتفصيل ، لكنها مع هذا التفصيل تكاد تضيع بين الاستطرادات الجمة التى تطغى فى كثير من الأحيان على موضوع الكتاب ، ويشير أحد معاصريه[1] إلى ذلك فيقول « إنما أطاله باستطراده من شىء إلى شىء ، فإنه بدأ بفتح الاسكندرية فأطال فى ذلك وساق أخبارها ، فكان خبر الوقعة فى جانب ما ذكر كالشامة » ، ومع ما تضمنته هذه الاستطرادات — فى كثير من الأحيان — من معلومات تاريخية ونكات أدبية — إلا أنها لا ترتبط بالهجوم ، ومن ثم فهى اعتراضات مطولة تجور على المتن وتطغى على أحداث المعركة حتى ليكاد المرء ينسى الوقعة وهو يطالع الإلمام ، ولقد شعر النويرى بذلك فكان يختم كل استطراد بقوله « نعود » أو « نعود لما كنا فيه » وأشباههما .

ولقد جرى الهجوم على الاسكندرية يوم ٢٣ محرم ٧٦٧هـ (= ١٠[2] أكتوبر ١٣٦٥م) فى السنة الثالثة من حكم السلطان شعبان بن حسين ، وإذا كان هجوم القبارصة مفاجأة لمصر المملوكية فإنه لم يكن كذلك بالنسبة لبعض القوى الأوربية وللبابوية ذاتها ، بل الثابت من استقراء الأحداث التاريخية أنه قد مهدت له دعايات معينة كتلك التى تصاحب كل تجريدة صليبية ، وسبقته اتصالات دبلوماسية على مستويات عالية وتحركات عدوانية على بعض مدن آسيا الصغرى ، حتى إذا نجحت كل واحدة فى ميدانها كان الهجوم على الاسكندرية ذروة الجهد ، رغم أن هذا الهجوم لم يستمر أكثر من ثمانية أيام ، ولكن كانت له آثاره المدمرة فى التخريب وقتل العدد الكبير من أهلها[3] ووقوع البعض فى الأسر .

لم يكن سقوط عكا فى أيدى المصريين والقضاء على القوة الصليبية فى الشام

(١) ابن حجر : شرحه .

(٢) رجعنا فى هذه التواريخ العربيـة للجداول التى وضعها اللواء محمد مختار فى كتابه : التوفيقات الإلهامية ، «طبعة بولاق ١٣١١ هـ» .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة « طبعة القاهرة » ١١/٢٩ .

خاتمة للصراع الذى بدأه البابا إربان الثانى عام ١٠٩٥ فى خطبته(١) فى كليرمونت بفرنسا ، بل راح يظهر فى مسوح شتى لم تكن الحرب إلا إحدى مظاهرها ، ولقد امتاز هذا القرن فى الغرب بظهور اتجاه جديد إهتم — أكثر ما اهتم — بإنشاء المؤسسات الدينية الحربية التى جعلت — ظاهرياً — غرضها استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين(٢) ، ولقد وجدت القوى اللاتينية ملاذها فى قبرص التى قام بها البيت اللوزنيانى ، وأصبح كثير من رجالات القصر وهذا البيت يلقبون بمارشالات بيت المقدس وصنجالاتها(٣)، وليس لهذه الألقاب من دلالة إلا الارتباط الشديد بين حكام جزيرة قبرص وبين فكرة استرداد الأحرام المسيحية المقدسة ، ومن ثم لم يكن بطرس اللوزنيانى بدعاً فى هذا المجال ، ولكنه كان أول وآخر رائد من حكامها وضع الفكرة الصليبية موضع التنفيذ ؛ والواقع أن توليه العرش سنة ١٣٥٩ م كان إشارة الانطلاق فى احتضان هذه الجزيرة الفعلى للعدوان الغربى على الشرق الإسلامى ، كما يعتبر عهده فاتحة التوسع الحربى ، وقد غذى فيه هذه الروح نشأة أحاطتها الأساطير الدينية وقوتها الخيالات والرؤى والأحلام(٤) ، يضاف إلى هذا أن اتصالاته بفيليب دى ميزيير(٥) كان لها أثر قوى فى بث الكراهية فى نفسه ضد الجماعات الإسلامية

(١) R. Pernoud : The Crusades (Lond., 1962), pp. 23-26.

(٢) كان من بين هذه التنظيمات الدينية الحربية جماعة "Escon d'or" التى أنشأها لويس البربونى ، ومنظمة Annonciades على يد صاحب سافوى ، ومنظمة « النجمة » فى فرنسا أنظر فى ذلك Leopold Pannier : La noble maison de Saint Ouen, p. 90; Marquis de Loray : Jean de Vienne, Amiral de France, p. 36.

(٣) نستدل على هذا من وثيقة أوردها Mas Latrie : Hist. de Chypre II, p. 178. جاءت فيها هذه العبارة "sensecalus regni Jeresolimitani".

(٤) ولقد تجسمت فيما بعد فى إنشائه جماعة إخوان السيف التى سماها البعض « بفرسان ملوك قبرص » ، وانخرط فيها كثير من الجنسيات الأوربية ، وكان هدفها فى بداية الأمر استخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، لكنها انتهت بقصر اهتمامها على الدفاع عن قبرص ذاتها فى وقت لم تجد قبرص فيه من يذود عنها أنظر Machaut : La Prise d'Alexandrie, (Genève, 1877), ll. 369 et seq; Jorga : Philippe de Mezières (Paris, 1896), p. 83.

(٥) ولد فيليب دى ميزيير فى إقليم بيكاردى بفرنسا عام ١٣٢٦ وتعلم فى أميين ، ثم اتصل ببلاط أندريه ملك نابلى ، وظل به حتى سنة ١٣٤٦ رحل بعدها إلى كثير من البلاد ومن =

نتيجة اتصاله المباشر ببطرس توماس بطرك القسطنطينية . لذلك كان اهتمام بطرس الأول متركزاً على ضرب المعاقل الإسلامية أنى وجدت ، وساعدته الظروف فى أرمينيا على وجه الخصوص فى أن يجد لقدمه موضعاً بها ، حيث بعث إليه ملكها ليون الخامس يستنجد به فى يناير ١٣٦٠ (١) ضد الخطرين العثمانى والمملوكى ، حتى لقد « جعل مدينة جورهيجوس (٢) وأهلها فى حمايته » فوافق ذلك هوى فى نفس الملك القبرصى إذ « كان متلهفاً على تملك أرض فى تركيا (٣) » ، ومن ثم أصبحت لبيت لوزنيان ركيزة حربية تتاخم القوى الإسلامية التى انزعج بعض أمرائها فكونوا من بينهم تحالفاً للمقاومة وإن لم يتمخض هذا التحالف عن نتائج عملية حاسمة ، ولكنه دفع بالملك القبرصى لتكتيل القوى الغربية — حتى المتصارعة منها فيما بينها — فبادرت إلى إمداده بالسفن الحربية والرجال والعتاد ، وجعل لنفسه القيادة العامة وهاجم «أنطالية» (٤) ونصب عليها فارساً مولداً إسمه « جيمس دى نورس » ثم أعلن متابعته للزحف على « العلايا » مما انزعج له حاكمها فما لبث أن أرسل رسلا من قبله إلى الملك بطرس « يلتمس منه مودته ، وتعهد له بدفع قدر معين من المال كل سنة ، وأن يرفع راياته

= بينها بعض بلاد الشرق ، وحج إلى بيت المقدس حيث انبثقت لديه فكرة تكوين جيش خلاص نصرانى لاسترداد الأحرام المقدسة ، ثم عاد فمر بقبرص وتعرف إلى الملك بطرس الذى ما كاد يعتلى العرش عام ١٣٥٩ حتى اتخذه مستشاراً له وصحبه فى زياراته للملوك وأمراء أوربا ، قصد المعاونة فى تنفيذ مشروعه الصليبى ، أنظر Jorga : op. cit., Ch. VII ، هذا وقد نشر المرحوم الدكتور عبد الحميد حمدى مشروع ميزيير الصليبى فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية.

(١) فيما يتعلق بالتاريخ راجع Dawkins (in) Makhairas, Recital concerning the Sweet Land of Cyprus, (Oxford, 1932), Vol. II, 104, note I.

(٢) Machaut : op. cit., 20 أما فيما يتعلق باسمها فى مختلف المصادر وموقعها الجغرافى فراجع Mas-Latrie : Hist. de Chypre II, 75 note I حيث ذكرت فى النص اللاتينى الذى أورده باسم Culcum .

(٣) Makhairas : op. cit., I, 101.

(٤) كانت أنطالية والعلايا من أهم الموانى فى هذه الناحية الشرقية من حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد زارها الرحالة المسلم ابن بطوطة قبل ثلاثين سنة من هذا الغزو القبرصى وأسهب فى وصفهما ، كما أشار ياقوت : معجم البلدان ٣٨٨/١ إلى أنطاليا فذكر فى شأنها أنها « حصن واسع الرستاق كثير الأهل » وعنه أخذ هذا الوصف ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الاطلاع ١٢٥/١ .

وأعلامه فى مدينته »[1] فسر الملك من هذا الاستسلام الذى لم ترق فيه نقطة دم ، وكان ذلك فى الثامن من سبتمبر ١٣٦١ ، وكان هذا الاستسلام بداية انفراط[2] عقد التحالف الإسلامى ضد الملك اللوزنيانى .

بهذه الوسيلة وبهذه النتائج التى تمخضت عنها هذه الحركة من جانب بطرس أدرك الأخير مواضع الضعف فى الجبهة الشرقية الإسلامية ، كما أن هذه الانتصارات التى اكتسبها — وإن لم تكن له يد فى بعضها — دفعته لتوجيه اهتمامه نحو ضرب المواقع الإسلامية الكبرى بغية استخلاص بيت المقدس واحتلال بعض أراضيها ، والسيطرة على معابر التجارة الشرقية ومسالكها .

إلا أن الأمور لم تمض كما يشتهى ، فما لبث أن تحركت بعض هذه القوى الإسلامية لرفع النير القبرصى ، وذهبت إلى أبعد من ذلك حيث أخذت تعد العدة لمهاجمة قبرص ذاتها فى الوقت الذى كان ملكها فيه فى الغرب يستعديه لمهاجمة المسلمين ، إلا أن القوة الإسلامية البحرية المغيرة اضطرت للارتداد وفر قائدها إلى طرابلس الشام حيث حماه أميرها منكلى بغا الشمسى الذى يسميه ماخيراس باسم « ملك بخنا »[3] .

ترى هل كانت فى ذهن بطرس فكرة واضحة منذ البداية عن الهدف النهائى من نزعته الصليبية ؟ أعنى هل كان يفكر فى مهاجمة مصر وثغرها الإسكندرية قبل نزول قواته على بعض بلاد آسيا الصغرى مابين أرمينية وإسلامية ؟

---

(١) Makhairas : op. cit., I, 124.

(٢) تفسير هذا الاستسلام عند:
Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 328
هو خوف هذه الإمارات من ضياع استقلالها على يد قرمان ، أنظر
E.I. art Kirman; Gibbons : pp. 165-7, 187-90, 289-90.

(٣) Cf. Makhairas : op. cit. I, 159; II, 159, note 2
وقد مات منكلى بغا الشمسى هذا سنة ٧٧٤ ، أنظر ابن حجر : أنباء الغمر ، وفيات ٧٧٤هـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١/١٢٤–١٢٥ حيث ذكر ولايته لطرابلس الشام ، كذلك ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٦/٢٣٦–٢٣٧ ، أما الدرر الكامنة ٤/٣٩٨ فلم يورد خبر ولايته لها فى ترجمته هناك .

الواقع أنه ليس بين أيدينا ما يشير صراحة أوتلميحاً إلى مثل هذه الفكرة قبل استنجاد ليو الخامس به ، ولعله رأى فى ضعف الإمارات الإسلامية وتنازعها فيما بينها وعدم وجود تحالف يجمعها ضد المعتدى ماحرك فيه هذه النزعة الدينية للتفكير فى مواجهة مصر مواجهة حربية .

يؤيد هذا الرأى الذى نقترحه أن الملك بطرس لم يكد يفرغ من آسيا الصغرى حتى بادر للشخوص إلى أوربة يعرض « حربا صليبية » لم يحدد لها هدفاً صريحاً ، ولسنا نجد فى الوثائق اللاتينية التى جمعها «ماس لاترى»[1] الخاصة بالملك بطرس فى سنة ١٣٦٤ مايشير إلى « الإسكندرية » ، بل إن التصريح بوجهة هذه الحملة قد بقى سراً مكتوماً حتى عمن اشتركوا فيها ـ ومن بينهم البنادقة والجماعات الإيطالية على وجه الخصوص ، ولم يعرفوا حقيقة تلك الوجهة إلا يوم قاربوها ، بيد أنه ليس معنى ذلك أن تحديدوجهة الحملة لم يتم إلا بعد خروجها من قبرص وكشف الخبر عن طيتها لرجاله ، ولكن الأرجح أنه اندفع إلى الغرب بعد خضوع العلايا وأنطاليا محاولا اغتنام هذه الفرصة لتحريكه عدوانياً وتأليبه على الشرق الإسلامى .

* * *

هنا بدأت الخطوة الثانية فى سلسلة التحركات التمهيدية التى أدت فى النهاية إلى مهاجمة الإسكندرية وهى الاتصالات الشخصية الدبلوماسية التى قام بها ـ منذ أكتوبر ١٣٦٢ ـ الملك بطرس بالقوى المسيحية الغربية وهى :

١ — البابوية .

٢ — البندقية وجنوة .

٣ — الممالك الأوربية (وعلى رأسها انجلترا وفرنسا) .

٤ — جماعة الاسبتارية .

ولما كان بطرس هو وحده الذى قام بهذه الاتصالات فلم يدخل فى الحسبان توزيع تلك الاتصالات من حيث الأهمية الحربية بل إن الوضع الجغرافى هو الذى

---

(١) Cf. Mas-Latrie : op. cit., loc. cit.

كان على عليه الانصال بواحدة منها قبل الأخرى ، وقد استغرقت تلك الاتصالات منه ثلاث سنوات امتدت من ١٤ أكتوبر ١٢٦٢[١] .

وكان أول من اتصل به جماعة الفرسان الاسبتارية فى رودس وكانوا بقيادة رئيسهم الأخ الأكبر « روجردى بان » وكان ذلك على يد جماعة فى أنطالية كتب إليهم الملك رسالة يطلب إليهم فيها الشخوص على جناح السرعة إلى ردوس ، فكان ما أراد ، وما كاد هؤلاء القواد يصلون اليه حتى بادر بالسفر الى البلاط البابوى فى « أفينيون » حيث كان البابا إربان الخامس الذى أصلح مابين الملك وبين هيج اللوزينانى تحقيقاً لشق من سياسته القائمة على تقوية البابوية فى إيطاليا ، وإقرار السلام بين الجماعات الغربية وإحياء الحركة الصليبية[٢] مما كان له صدى فى قول أحدهم حين اعتلائه العرش البابوى « لقد أصبح اليوم لنا بابا » Modo habemus Papam[٣]، ولقى الملك بطرس استجابة طيبة من البابا الذى أراد أن يكون له ما كان لسميه إربان الثانى منذ أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

كذلك وصل بطرس فى ديسمبر ١٣٦٢ إلى البندقية إدراكا منه لما تستطيع أداءه هذه الجمهورية لصالح الفكرة الصليبية ومساعدتها مادياً ، ورحب به دوجها « لورانت شلزى » الذى استمع إلى تصويره لحالة المسيحيين فى الشرق ، كما لم تفته الإشارة إلى خطر ازدياد القوة الإسلامية وتهديدها للمصالح الغربية فى ميدانى التجارة والدين معاً على السواء ، وقد وعده الدوج بقيام دوقيته بمساعدته بالسفن وبعض الرجال ، وكان هذا غاية ما يرجوه بطرس من نجاح لمسعاه لدى جمهورية البندقية التى تضع مصالحها المادية فوق الصالح المسيحى والتى يرى أهلها فى أنفسهم « بنادقة أولا ثم مسيحيين بعدئذ » ، والتى دعتها رعاية هذا الصالح الشخصى إلى الإصرار على أن تكون الاتفاقية بين الطرفين سراً حتى لا تبلغ مسامع قوى تحرص البندقية

---

(١) تحديد هذا التاريخ بناء على ماورد فى Mas-Latrie : op. cit., II, p. 239, note 1, d'après Strambaldi حيث بين صراحة خطأ خروج الملك قبل هذا الوقت .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ .

(٣) Duchesne : Hist. de Cardinaux français, I, p. 406.

على مراعاتها حفظاً منها على امتيازاتها التجارية والاستيطانية والقضائية فيها ، لكن هل رسمت وجهة الحملة المزمع قيامها تحت قيادة الملك القبرصى ؟ وهل نص الحديث بينهما على « الإسكندرية » ؟ الأرجح أنه اكتفى بأن تكون التجريدة « صليبية »، ولعل الجانب المصرى لم يبلغه مثل هذا الإتفاق ، بدليل ما يسوقه النويرى[1] من أنه حين هاجم القبارصة عمد جنفرا إلى التوسل بالبنادقة واصطناعهم فى حراسة البضائع التى خيف عليها فأرسلها للداخل صحبتهم حراساً عليها ، مما يدل على أنه لم يكن يخامره شك من ناحية البندقية وقناصلها .

* * *

تابع بطرس سيره بعدئذ نحو لمبارديا وإيطاليا الجنوبية حيث صادف ترحيباً به وبفكرته من جميع من اتصل بهم : أمراء وأدواقاً وحكاماً ، ووصلوه بكثير من الهدايا والخيول ، ولم يعدم جماعة من الفرسان المتدينين الذين انضموا إليه وصحبوه فى تجواله حتى بلغ جنوه حيث رحب به دوجها « سيمون بوكانيجرا » الذى ما لبث أن قتله أشراف الإمارة بالسم ، فكان هذا الحادث باعثاً لليأس فى قلب بطرس الأول ، لكنه عاد يطرق أبواب جنوة حين أراد أهلها تجديد الامتيازات التى منحهم إياها من قبل هنرى الأول منذ أكثر من قرن من الزمان ثم العودة إلى مثل هذه المحاولة فى العشرينات من القرن الرابع عشر[2] .

* * *

اتصل بطرس بفرنسا وملكها جان الثانى المعروف بنزعته الدينية القوية حتى كان أحد اثنين تناولا الصليب لهذه الحرب من يد البابا إربان الخامس ، وليس من شك فى أن بطرس كان يحدوه الأمل فى أن تنضم لمشروعه مثل هذه الشخصية القوية النفوذ فى بلدها ، الوثيقة الصداقة برجال الدين، المؤاخية فى السلاح لكثيرين من أبرز الفرسان المصاميد ، يضاف إلى هذا أنه كان يتحرق شوقاً لمحاربة المسلمين فى الأندلس، إرثاً ورثه عن أبيه وعهداً قطعه على نفسه ، يضاف الى هذا ما ترامى إلى سمع الملك القبرصى من إعجاب ملك فرنسا به لما حازه من نصر فى العلايا .

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٥٢٤ .

(٢) Mas-Latrie : Arch. de l'Orient Latin, II, p. 173-4.

التقى بطرس بجان الثانى فى بلاط أڤنيون حيث رحب الملك الفرنسى به ودعاه للجلوس الى جواره على المائدة فأبى بطرس احتراماً لمكانة ملك فرنسا وقال له: «أيها السيدالعظيم ، لايحق لى أن أجلس إلى جوارك فأنت أعظم أمراء المسيحية »[1]، ولعل هذا ما يفسر إشارة النويرىعن بطرس فى قوله عنه «إنه كان أذل ملوك النصرانية» وهو قول ردده عنه مؤرخ حديث فى القرن العشرين صور مبلغ احتقار الغرب له وازدراءه بشأنه[2] .

على أن الغريب هنا أن البابا أراد أن يجعل من حملة لوزنيان حملة بابوية تتصرف فيها كيف شاءت ، ومن ثم وكل قيادتها إلى ملك فرنسا دون بطرس ، مما يؤيد رأى القائلين بتفاهة شأن الملك القبرصى ، كما جعل « تاليران بريجورد » نائبه الرسولى فيها ، وطبيعى أن يرحب الملك الفرنسى بهذه الفرصة ، فخصص جميع الأموال التى كانت قد جمعت من قبل لتخليص الأماكن المقدسة وقفاً على هذه الحملة ، بالإضافة إلى الهبات والمبالغ التى وعد بها من جيبه الخاص ، وكذلك نصف دخول كنائس فرنسا ، على أن يوكل التصرف فىهذه الأموال إلى أربعة من كبار الأساقفة يختار الملك الفرنسى منهم اثنين ويختار البابا الإثنين الآخرين .

وقام البابا من جهته بإنفاذ الرسائل إلى ملوك وأمراء النصرانية فى الغرب يحثهم على المساهمة فىهذه التجريدة الصليبية التى يظهر جلياً أنها كانت متجهة ضد « الترك » ، ولم تجر فيها الإشارة إلى مصر ، وحدد أول مارس١٣٦٥ ليكون موعداً لنهوضها . ويلاحظ أن اسم ملك قبرص لم يرد قط فيمن دخلوا فى نطاق أسماء زعماء هذه الحملة ، فهل كان ذلك عدم اكتراث بشأنه ؟ وهل كان ذلك يرضيه وهو الذى تكبد ما تكبد فى سبيل الحصول على نجدات ومساعدات من الغرب ؟

على أنه يظهر أن هناك ثم تدخلا من جانب فيليب دى مزيير لدى البابا لتأييد موقف بطرس الأول الذى ما لبث أن رحل يطلب مساعدة الأمراء الأوربيين المختلفين .

---

(١) Chroniques de Pays-Bas et de France, (ed. de Smet), II, p. 201.

(٢) Lorga : Philippe de Mezières, p. 283, l. 10.

ويخيل إلينا أنه رحل وفى نفسه شيء من الألم لإيكال هذه الحملة لسواه دونه ، وإلا فقد كان يكفيه كتابة البابا رسائله إلى مختلف ملوك وأمراء أوربة .

ذهب بطرس بعد مغادرته بلاط أفنيون إلى المانيا على حد قول فروازار[١] حيث مضى الى براغ لمقابلة الأمبراطور ثم إلى بولندا وعاد منها إلى فرنسا ، ويقال إن البابا أرسل خطاباً إلى دوج جنوة يخبره فيه أنه أرسل الملك بطرس بأمره إلى بعض ممالك الغرب المسيحية لاسيما فى إقليم ألمانيا[٢] ، وكان ذلك فى صيف ١٣٦٤م (= ٧٦٦ هـ) ، ويظهر أن الغموض يكتنف رحلات بطرس فى هذه الفترة ، وهو غموض لايفسره إلا أنه لم يجد تقديراً صحيحاً — فى اعتقاده — لمكانته عند البابوية مثل تقديرها لفكرة الحملة الصليبية فى حد ذاتها ، ويتضح أن بطرس أصبح يعمل لحسابه الخاص ملتمساً المرتزقة والمطوعة والمغامرين ، وذهب أيضاً إلى انجلترا يوم ٦ نوفمبر حيث قابل جماعة من الفرسان الانجليز والفرنسيين ورحبوا به وأنزلوه منزلا خاصاً به ، واستقبله ملك انجلترا إدوارد الثالث استقبالا كريماً واستضافه فى قصر وستمنستر[٣] . على أن بطرس لم يحصل إلا على وعود كلامية من انجلترا ، بل إن ملكها صارحه بأن قبرص من أملاك سلفه ريتشارد قلب الأسد[٤] ، وبذلك كان كل منهما فى هذا اللقاء يتكلم عن أمر يخصه ويسد السمع عن مطالب الآخر ، وإذا كانت إقامة بطرس فى انجلترا قد استغرقت شهراً فانه لم يتوفر له خلاله الحصول على تأكيد رسمى من جانبها فى معاونته فى مشروعه ، وإنما كان منتهى نجاحه يتمثل فى انضمام بعض الأفاقين والمخاطرين إلى جانبه ممن يدفعهم حب المغامرة إلى الانخراط تحت رايته ، ومن ثم عاد إلى فرنسا وفى النفس غصة كغصته يوم تجاهل إربان الخامس إلقاء قيادة المحاربين إليه ، وفى باريس التقى بطائفة من الأمراء أمثال دوق أنجو ، ثم رحل بعدئذ الى « بواتييه » حيث بعث الأمير الاسود من استقبله نيابة عنه لانشغاله إذ ذاك بحفلات مولد ابنه[٥] ، ورحب القوم به وأحاطوه بالرعاية

---

(١) Froissart : Chron. pp. XLII, 85.

(٢) يجعل ماشوهذه الرحلة إلى ألمانيا متأخرة عن الوقت الذى ذكره لها فروازار .

(٣) راجع الوثيقة رقم ٤ فى Mas-Latrie : His. de Chypre, II, 247.

(٤) Chroniques des Quatres Valois, p. 128.

(٥) Chroniques de Pays-Bas et de France, III, p. 201.

لخطة يريد أن ينهض بها « ترضى الرب عصاها تفتح أمامه الطرق الى الأحرام المقدسة »[١] ، واصطحبه نائب الأمير الأسود الى بعض البلدان ليستوضح مشروعه الصليبي[٢] ، ولسنا نعرف ماذا كانت فكرة الأمير ومدى موافقته على الخطة ، ولقد أصيب بطرس بضربة أليمة حين وافاه نبأ موت الكردينال « بريجورد » الذى كان من أشد المتحمسين لحرب صليبية دون نظر للقائمين بها ، وكانت وفاته يوم ١٧ يناير ١٣٦٤ ، وما لبث ملك فرنسا نفسه أن وقع فريسة المرض الذى ألح عليه حتى قضى نحبه هو الآخر يوم ٨ أبريل من السنة ذاتها وهو فى انجلترا زائراً لملكها الذى أقام احتفالات تأبين ضخمة لجان الثانى تليق بمكانته ، ثم بعث بجثته إلى فرنسا حيث شيعت جنازته ودفن فى كنيسة سنت دنيس ، ونودى بابنه شارل الخامس ملكا مكانه ، وكان من بين المشيعين للملك الراحل والمهنئين لخلفه الملك بطرس الأول[٣] الذى مكث بباريس حتى ١١ يونيو محاولا حمل الملك الجديد على الوفاء بالعهود التى قطعها أبوه من قبل بامداد الحملة الصليبية بالأموال والعتاد ، ولكنه لم يجد منه تشجيعاً أو بارقة أمل ، ولم يكن ذلك عن عزوف عن حمل الصليب أو عن قلة اكتراث منه بالصالح الصليبى وأوضاع النصارى فى الشرق بالصورة التى صورها ميزيير ، لكنه كان فى الواقع مشغولا بأحوال مملكته الداخلية وما عانته من ويلات الحروب الأهلية ، لكنه مع ذلك لم يضن بوصله ببعض المال ، ووعد بمخاطبة إمبراطور ألمانيا فى هذا الصدد باعتباره « أغنى وأقوى منه » ، ولم يجد بطرس إذ ذاك بداً من مغادرة باريس مهيض الجناح مزعزع الآمال ، وكان نجاحه فى كل مسعى من أجله هو « الكلمات المعسولة من غير ثمرة nisi in verbo jactante et effecta carente » على حد قول فيليب مزيير .

لم يحاول بطرس مقابلة البابا أربان الخامس مرة آخرى ، وإنما توجه إلى الأمبراطور الألمانى فى كولونيا وعرج فى طريقه زائراً كونت فلاندرز ودوق برابانت ،

(١) Froissart, pp. 9 seq.

(٢) Ibid. loi cit.,

(٣) Chron. de Pays-Bas et de France, II, p. 201

ولعل أكبر توفيق اقيه فى هذه الرحلة الجديدة كان فى « إيرفورت » حيث انضم الكثيرون إليه ثم اتصل بفردريك مركيز مسنى الذى رحب بدعواه لكنه أرجأ البت فى مساهمته فيها حتى يستشير الإمبراطور ، وكان المركيز صريحاً ، إذ جعل مساهمته سلباً أو إيجاباً رهنا برغبة الإمبراطور .

على أن نسمة من الآمال هبت وسط هذه اللقاءات التى لاتبشر بالخير المطلق حيث التقى بواحد من اصحاب الإمبراطور وأدناهم الى نفسه ونعنى به رودلف الثانى دوق سكسونيا الذى أكرم وفادته وأقام له الاحتفالات التى استمرت ثمانية أيام سوياً مكتفياً بهذا وبالأموال والهدايا التى وصله بها ، وحينذاك أيقن بطرس أن المواجهة الصريحة بينه وبين الإمبراطور[1] أجدى من الاتصال بسواه من الأمراء ، ومن ثم مضى غداة هذه الاحتفالات إلى« براج » ورحب به الامبراطور ترحيبا عظيما وقدمه إلى زوجته ، وجعل له الصدارة فى اجتماع عقده لمناقشة مشروعه الصليبى ، وربما كان ذلك لما انطبع عليه الامبراطور من تدين عميق وإن كان لايرقى به إلى التضحية والانغمار فى حرب لم تأخذ الامبراطورية والمساهمون معها فيها استعدادهم الكامل ، وكان الامبراطور فى ذلك واقعياً لإدراكه من مجريات الأحداث مافات ذهن بطرس من طرد الصليبيين من الشرق بعد احتلالهم إياه قرنين وأكثر من الزمان ، وتجلت واقعية الامبراطور فى بيان ماتهدد الصليبين من خطر لاسيما والملك القبرصى فى قوة ضئيلة لاتستطيع أن تقف أمام القوات الإسلامية حتى ولو ضمن النصر فى جولته الأولى ضدها لذلك اقترح الامبراطور عقد مؤتمر لمناقشة هذا الموضوع فى « كراكاو » يحضره أيضاً ملكا بولنده والمجر وذلك فى سبتمبر ، وصرح شارل بأهمية النهوض بحرب صليبية تجتمع فيها القوى الأوربية فى هـذا الوقت بالذات ، كما كتب إلى البابا بذلك أيضاً ، واتفق الرأى فى هذا المؤتمر على تأييد بطرس فى تجريدته الصليبية ووسيلة ذلك الكتابة إلى شتى الأمراء الألمان لدعوتهم للمساهمة فيها .

---

(١) يستفاد مما ذكره Alfred Leroux : Recherches critiques sur les relations politiques de la France avec l'Allemagne (1292-1378), p. 273 seq.

أن الحافز لبطرس على الذهاب للامبراطور ، إنما كان رغبته فى اختيار قائد صليبي جديد فى المكان الذى خلا بوفاة جان الثانى ملك فرنسا، وهو رأى فى حاجة إلى نص يدعمه، أوشهادة تزكيه ، بل إن منطق الأحداث وطبيعة بطرس ترفضان هذا الاتجاه .

كان مؤتمر « كراكاو » ذروة النصر الذى يطمع بطرس فى الحصول عليه ، لـكن ماهو مدى تحقيق هذه القرارات والتوصيات واتخاذها الصورة العملية ؟

الواقع أن هناك ما يقارب شبه عدم الاكتراث ببطرس الأول كداعية لحرب صليبية يريد أن يزج فيها بدول أوربة المختلفة تحقيقاً لغروره الذى زاده حدة وعنفاً انتصاره فى الملايا وأنطالية من قبل ، وإذا كان ليو الخامس — ملك أرمينيا — قد التمس منه النجدة فان الوضع هنا يختلف كل الإختلاف عن سابقه . ومن ثم لم يبق أمامه إلا الرحيل إلى قبرص وفى جعبته وعود وعهود وفى نفسه آمال وآلام ، وكان حرياً به بعدئذ أن يستعرض رحلاته وما تمخضت عنه ويزن بميزان العقل مدى ماقد يصيبه من نجاح أو فشل إذا نهض بحملة ضد مصر ، لـكن يبدو أن اندفاعه كان أقرب إلى التهور منه إلى الخطة القائمة على دراسة جدية عميقة لقوة مصر الحربية ، وشاء أن يجعل ختام رحلته زيارة الجمهورية التى كانت منها بداية جولاته فى أوربة فمضى فى نوفمبر ١٣٦٤ إلى البندقية التى أكرمه دوجها «شلزى» ووصله بكثير من الهدايا وخطا خطوة أكبر ممن خطوات من قابلهم بطرس الأول من قبل ، فأعد سفينة حربية جهزها بكل معدات القتال ،وكان شكر بطرس للدوج يلائم ما قام به الدرج نحوه ونحو مشروعه ، وأخيراً بعد إقامة طالت ستة أشهر فى البندقية غادرها الملك القبرصى يوم ٢٧ يونيو ١٣٦٥ ميمماً شطر بلده، ووصله بعد قليل خطاب من البابا يبارك فيه خطواته القادمة هو ومن معه من المحاربين المسيحيين وقد أبقى بطرس وجهة حملته سراً حتى على من معه من المقاتلين ؛ والمعروف أن البندقية لم تكن جادة فى تأييد بطرس حرصاً على مصالحها وامتيازاتها التجارية فى الشرق الإسلامى ، ومن ثم صدرت الأوامر إلى نوابها فى كريت بالإتصال بالمسلمين فى مصر تنبههم بأنها ليست ضالعة فى هجوم قد يشنه بطرس عليهم بعد عودته من آسيا الصغرى ، والواقع أن البندقية كانت تقف مع الجانبين ، فى الوقت الذى ترسل فيه هذه الإخبارية إلى مصر كانت سفنها تنقل المحاربين من شتى الأجناس[1] الذين انخرطوا تحت راية ملك قبرص ، وأرسلت الرسائل إلى أمير أنطاكية بإعداد مجموعة من السفن تنضم إلى الأسطول الملـكى المحارب، حتى لقد بلغت عدة السفن الحربية المختلفة الأنواع ٧٢ واحدة على حد بعض الأقوال ،

---

(١) Cf. Chron. des Quatres Valois, p. 164.

ومائة على بعض أقوال أخرى[١] ، وكان بصحبته فى هذه اللحظة المندوب البابوى وفيليب دى ميزيير، فقام الأول باعطاء الصليب للجميع دون تفرقة بين مذهب وآخر، واعترف الجميع وتناولوا القربان ، وكان فيهم « من لم يتناوله منذ عشرين سنة » .

حين فرغ الكلام من تلك الطقوس الدينية اجتمع كبارهم فى مجلس خاص يتشاورون فى تحديد وجهة الحملة[٢] ، وهنا برز برسفال الكولونى واقترح الاتجاه إلى الإسكندرية ، فقد عرفها من قبل وقت أن كان بها أسيراً وعرف مسالكها ودروبها ، وراح ييسر لهم أمر الفتح ويهون عليهم ما يلقونه من المقاومة ، ووجدت هذه الدعوة استجابة من بطرس الذى وقف فى سفينته وحوله من اصطفاهم من علية القوم ووجوههم[٣] ومن بينهم فيليب دى ميزيير ، وبعد أن باركهم المندوب البابوى وبارك الرايات الخفاقة صعد السفينة الملكية وردد الأفق هتافات القوم ودوى الطبول والأبواق والكوسات ، وصاح الجميع يهتفون ببطرس ملك بيت القدس وقبرص وقاهر المسلمين الكفرة »[٤] .

وهنا أخذوا يتشاورون أيتجهون إلى آسيا الصغرى أم إلى الشام أم إلى مصر ؟ وكان ذلك التشاور يوم السبت ٤ أكتوبر ١٣٦٥ ، واتجهوا فى اليوم التالى إلى إحدى الجزائر بخليج خلقدونية لأخذ كفايتهم من الماء ، ثم انطلق الأسطول نحو

---

(١) اشترك فى هذه الحملة شعوب أوربية عدة فكان منهم الفرنسيون « يمثلهم مارتل دى باسكفيل الذى روى فيما بعد لماشو المؤرخ تفاصيل الحملة » ، والانجليز « ومنهم ريتشارد لورد جراى الذى كان من أوائل من دخلوا الاسكندرية بعد الغزو أنظر Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History, p. 194 ، وفرسان التيوتون والألمان والطليان وبعض البيزنطيين وجماعة الفرسان الأسبتارية ومنهم مائة فارس بأسلحتهم ، أنظر أيضاً Makhairas : op. cit., II, No. 167, n. 7 .

(٢) Jorga : Philippe de Mezières, p. 284.

(٣) Cf. Makhairas : op. cit.,

(٤) Jorga : op. cit., p. 285 note 3; Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 347.

وكان هتافهم إذ ذاك :

Vivat vivat, Petrus Jerusalem et Cepri rex, contra Saracenos infideles.

الاسكندرية ، وحينذاك ظهرت روح قوية من المعارضة فى هذا السير تخوف القوم مغبة المقاومة الكبيرة التى يمكن أن تقوم بها هذه المدينة .

* * *

ترى ما هى الدوافع التى جعلت بطرس يندفع أخيراً فى غير تردد لتوجيه الحملة إلى الاسكندرية دون باقى المناطق والأقطار ؟

ربما قيل إنه رتب من قبل — فيما بينه وبين نفسه على الأقل — هذا الاتجاه ، ولعله قد أوحى به صراحة — أو تلميحاً — الى برسفال الكولونى ، فكان من ذلك مباغتته الاسكندرية ، على أن النويرى لخص أسباب الإقدام عليها دون غيرها فيما يلى :

١ — غضب الغرب من قرار أصدره الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٥٦هـ بمنع استعمال أهل الذمة فى الديوان ، وإلزامهم بملابس خاصة[1] .

٢ — رفض السلطان الناصر حسن تحقيق طلب بطرس — حين ولى ملك قبرص — من التوجه الى بلدة صور ليجلس على عمود « كعادة كل من تملك جزيرة قبرص » .

٣ — شجعه على ذلك أن مركباً قبرصياً كان قد تحترم فى الميناء الشرقية بالاسكندرية فى سنة ٧٥٥ «وبه كراسلة» أى « صليبيون » فلم ينهض لدفعه أحد .

٤ — وثوب أهل رشيد على فرنجى تخلف من جماعة هاجمت البلد وقتلهم إياه .

٥ — هجوم بعض الفرنج فى ٢٧ شعبان ٧٦٤ على « بوقير دون أن يجرد أحد من أهلها فى وجوههم سيفاً فطمع بطرس فى الاسكندرية » .

٦ — انتقامه لما جرى لبعض البنادقة من قتل على يد « عوام المسلمين بالاسكندرية » .

على أن بعض هذه الأسباب يبدو فيه الافتعال والتماس العلة لعدم مقاومة المدينة كمسألة التنبؤ بسقوطها يوم « جمعة » على يد « ملك مسيحى من الغرب » لكننا

---

(١) راجع المقريزى طبعة زيادة ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٩٢٤ .

نستطيع أن نقول إن الملك القبرصي كان يعلم بضعف ناحية الباب القديم من الاسكندرية[١].

على أية حال بلغت الحملة مشارف الاسكندرية يوم الخميس ٩ أكتوبر ١٣٦٥ وازدهت الفرحة الغزاة وطالعتهم قباب كنيستى القديس مرقص والقديسة سنت كاترين والعمودان اللذان يقول المسيحيون أن القديسة كاترين استشهدت عندهما ، والحجر الذى قطعت عليه رقبة يوحنا المعمدان[٢] ، وأبصروا عن بعد المسلمين فى عمائمهم البيضاء والنصارى فى قلانسهم الزرقاء واليهود فى طواقيهم الصفراء كما يستدل على ذلك من وصف أحد الرحالة المعاصرين ، وكان بالمدينة كثير من الفنادق الخاصة بالجاليات الأوربية المختلفة كالبنادقة والفرنسيين والقشتاليين والجنوية وأهل مرسيليا والقبارصة[٣]، بل وكان للمدينة ستة أبواب من الحديد ، هذا إلى وجود صهاريج[٤] للمياه بها . كما كان جزء من مياه الشرب يأتيها عبر قنوات قامت على حافتها بيوت الأهالى ، وتستطيع المدينة الحياة على ما فى هذه الصهاريج حتى فى أيام الحصار الطويلة اللهم إلا إذا سيطر العدو على هذه القنوات لا سيما عند باب رشيد .

على أن الاسكندرية لم يكن معنياً بها كخط دفاع عن البلاد ، فكانت حاميتها قليلة[٥] العدد ، ولم يكن لدى الأهالى من السلاح ما يستطيعون به دفع المغير ،ويبدو أن سكانها لم يكونوا يتوقعون هجوماً ليس له مايبرره من مجريات الأحداث السياسية ، بل لقد ذهب بهم الظن إلى أن هذه السفن إعاجاءت للمتاجرة والاستبضاع، وراحوا يختلطون بهم « وظن أهل الاسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم

---

(١) أنظر جمال الدين الشيال: الاسكندرية ، طوبوغرافيتها .

(٢) T. de Swynburne : Arch. de l'Orient Latin, II, 380.

(٣) أنظر وصف اسكندرية — وإن كان قبل ذلك بقرنين — من الزمان والأمم الغربية التي يعيش أبناؤها فيها فى رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥ ، صفحة ١٧٨ — ١٧٩ .

(٤) النويرى : الأعلام .

(٥) Scheffer : Etude sur la diése de Chemins de Babiloine, (Ar. Or. Lat,) II, 98.

على جارى عادتهم فى كل سنة ، وكان تجار المسلمين جلبوا لهم من الهند أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم »(١) فـكانت فرصة للغزاة للاستجمام تأهباً لقتال العدو ومهاجمة الثغر ، حتى إذا كان العاشر من أكتوبر (= ٢٢ محرم) أفصح القادمون عن حقيقتهم واقتربت مراكبهم « إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة وذلك من جهة الباب الأخضر المسدود ، .... وكان الباعة قد خرجوا من البلد بطباليهم وقدورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام يبيعونه على من بالجزيرة »(٢). ولم يكونوا فى سلاح يستطيعون به ودفع هذه الجماعات المغيرة فالفرنج لابسون الحديد من المفرق إلى القدم ، والمسلمون كلحم على وضم » « فـكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد والنضيد »(٣) .

واستمر القتال يوم الجمعة واستبسل الأهالى والمغاربة فى الدفاع عن « مدينة الإسلام» ما وسعهم الجهد ، وكان والى المدينة صلاح الدين بن عرام غائباً عنها فى الحج وسلطان البلاد شعبان بن حسين فى سرياقوس وأتابكه يلبغا العمرى فى الصيد ، أما القائم بحراسة الثغر فاسمه « جنفرا » .

بدت الأمور هينة أمام المغيرين الذين لم يجدوا ثم عسكراً يخرج لملاقاتهم ، وإنما كان جماع المقاتلين أفراد العامة والبدو وبعض المغاربة وأهل الربط والخانقاوات ، ورأى الملك أن ينزل المحاربون إلى المدينة فى الصباح وكان دق الـكوسات على مراكبه إيذاناً ببدء الهجوم ، وكان القتال عند الباب القديم ، وكان من رأى المغاربة « أن يدخل الناس المدينة يتحصنون بأسوارها الحصينة ويقاتلون من خلف الأسوار ليظن العدو أن خلفها كل رجل كالأسد المغوار ، يذيقونه برميهم عليه الشدة ، إلى أن تصل من مصر النجدة »(٤) ، لـكن أهل الربط خافوا على ربطهم فلم يلتفتوا لهذا الرأى ، ومن ثم يلومهم النويرى فى قوله « لو كان المسلمون ... تحصنوا بالسور وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور ، لسلموا من القتل والنهب والأسر ... فالذين

---

(١) النويرى : شرحه .

(٢) النويرى : شرحه .

(٣) النويرى : شرحه .

(٤) النويرى : شرحه .

خافوا على ربطهم تخربت ، ودورهم التى داخل البلد[1] نهبت » ، وحينذاك تسلل أحد المهاجمين واسمه « فرلينو » مع ثلة من المحاربين وحاصروا المدافعين عن الثغر ، وأخذت سهام الغزاة المسلمين من كل جانب فجمحت الجياد ، وجرح جنفرا نفسه .

على أنه يبدو أنه لم يكن من اليسير على المهاجمين احتلال الإسكندرية ولم تجدهم نفعاً مفاجأتهم إياها على حين غفلة منها ، وأدركوا أن الوقت فى صالح المسلمين إذ لابد أن تأتيهم النجدات من القاهرة ومن غيرها من مدن الدلتا ، وحينذاك قد تدور الدائرة على المغير ، وتضييع مصالح المسيحيين الأوربيين داخل البلاد ، ومن ثم أخذوا فى التشاور فيما بينهم عما يصنعون ، فرأى البعض منهم ألا جدوى من الاستمرار فى مهاجمة الثغر ، وأن الخير فى العودة من حيث جاءوا ، وكان « أميرال » رودس حامل لواء هذه الفكرة المؤيد لها ، غير أن ذلك أغضب بطبيعة الحال الملك الذى أصبحت كرامته بين ملوك النصرانية وشموبها مرهونة بانتصاره وتحقيق مشروعه الذى قضى ثلاث سنوات فى تجميع القوى من أجله ، يضاف إلى هذا أن إخفاقه فى الاستيلاء على الإسكندرية يؤكد صحة فكرة البابا عنه حين جعل قيادة القوات المحاربة لجان الثانى ملك فرنسا ويؤيد ما انطوت عليه نظرة ملك انجلترا من عدم تحدثه جدياً معه فى شأن ما جاءه من أجله استخفافاً منه به ، لذلك تقدم بطرس رافعاً علمه الخاص ونادى بالهجوم على المدينة ، وأعلن منحه ألف أفلورنق لأول مقتحم لأسوارها وخمسمائة لمن يليه وثلاثمائة لمن يأتى بعدهما ، ولقد وجد بطرس أكبر مؤيد له فى الهجوم فى شخص « برسفال الكولونى » الذى اقترح إذ ذاك أن يشن الغزاة حملتهم من ناحية باب البحر ، وأخذ هو بنفسه القيادة فى هذه الجبهة .

على أن المقاومة البرية من أهالى الأبراج ردته فى أول هجمة على أعقابه ، فلما علم بطرس بذلك الارتداد المهين أنكره عليه ، وأخذ هو على عاتقه مهاجمة المدينة واصطحب معه جماعة من البارونات والاسبتارية ، فكان التوفيق حليفه هذه المرة وهاجم الباب وأضرم فيه النار وبذلك تحقق له النصر ، ووجد أحدهم ناحية باب الديوان من غير حراسة فاقتحمها واقتحمها معه جماعة آخرون ، وحينذاك فر المسلمون

(١) النويرى : شرحه .

إلى الداخل ، وتقدم الغزاة فدخلوا المدينة من ناحية باب البحر وكان دخولهم إياها ظهيرة يوم الجمعة ١٠ أكتوبر ، وحينذاك اندفع الإسكندريون إلى باب سدرة والزهرة ورشيد ، وجرت مذبحة فظيعة فر إثرها من بقى على وجوههم حيارى أمام الملك «الذى لم يجد بالإسكندرية أحدا من جيش الحلقة ، فدق فيها بجيشه دقة ، وأكل اللحم وشرب المرقة » .. وتمكن جيشه منها بعد صلاة الجمعة ، فنهب وسبي وحرق وخرب بعد أن قتل من المسلمين كثيراً ... وكان الرجال على الساحل ليس عليهم ملبوس حرب طائل ، فرماهم الفرنج بالسهام فطاروا كطيران الحمام(١) ، وأراد الملك التقدم شطر القناة (المحمودية الآن) لكنه كاد أن يقتل وكانت نجاته بالفرار إحدى المعجزات .

* * *

كان الخبر قد وصل إلى القاهرة فبادر السلطان بإرسال الأنابك يلبغا على رأس جيش بالغت المصادر [٢] الفرنجية فى تمداده فجملته مائة ألف مقاتل ، وكان فى مقدمتهم قطلوبغا المنصورى[٣] .

هنا أخذ البعض يحبذ فكرة الارتداد ، وازداد عدد أنصاره لحظة بعد أخرى وحسبنا أن نشير إلى أن من بين هؤلاء كبار رجالاته أمثال أميرال ردوس وفيكونت تورين والمغامرون الإنجليز والفرنسيون ، بل إن أخوى الملك انضما إلى هذا الفريق المنسلخ عن التقدم فى مصر ، وهكذا وجد بطرس نفسه فى شرذمة ضئيلين لا يجاوزون مائة فارس ، وحيط به وتعقدت الأمور بصورة حملته على الارتداد إلى سفنه الباقية فى الميناء القديم ، بعد أن أعمل الجميع النهب والسلب والقتل فيما أمامهم ومن صادفوه من أهل الثغر ونازليه ولم تكف أيديهم حتى عن كثير من الجاليات الأوربية التى اتخذت الإسكندرية داراً لها ، ولم يجد الغزاة من يقف فى سبيلهم حين ارتدادهم إلى شوانيهم وأغربتهم وحينذاك كانت القوات المصرية قد

---

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٢٣٥ .

(٢) Chron. des quatre valois, p. 166.

(٣) راجع المقريزى : السلوك .

وصلت فاحذت فى محاربة القلة الباقية من الفرنجة الذين وقفوا قرب القناة لحماية المرتدين[١] ، ورأى الملك بطرس بعينى رأسه الصلبان تخلع من الأماكن التى وضعها فيها .

وكأن القدر كان يدخر للغزاة ضربة أخرى أنزلها بهم حيث هبت عاصفة فرقت سفنهم ، فعزاها مزيير — وهو من هو فى تدينه — والمندوب البابوى إلى « نقمة الرب وغضبه » وكتب الأخير رسالة إلى البابا تقطر أسى[٢] وحسرة من هذا «الارتداد المخزى » وصدق النويرى إذ يقول فى أكثر من موضع « جاءها لصاً وخرج منها لصاً » ، وعاد الأسطول إلى ليماسول حتى مضى كل واحد لوطنه . أما الملك فقد أصدر أمراً بمنع المتاجرة مع مصر .

على أن الجانب المصرى أخذ يلعق جراحه بعدئذ مباشرة . فبادر يلبغا باعادة ترميم الإسكندرية وتحصيناتها . وصادر أملاك الكثيرين من فرنجة مصر والشام تعويضاً عن الخسائر التى لحقت بأهل الثغر[٣] .

* * *

لكن هل انتهت الواقعة إلى هذا الحد من الأحداث ؟ وهل كان ارتداد الجيش المهاجم خاتمة لذلك الغزو ؟

الواقع ينفى السكوت ، فقد عمد الملك إلى إرسال مندوب عنه هو « جان الصورى » — أميرال قبرص إلى كل من البابا وملك فرنسا ودوج جنوة يطلب منهم مساعدته ، وكان بدء هذه السفارة فى مارس ١٣٦٦ م (= رجب ٧٦٧) ، ووجد عطفا من جميع أنحاء أوربة على ما قام به من عملى صليبى وإن أرجعوا فشله عن تحقيق هدفه النهائى إلى خيانة من كانوا معه من المحاربين ، وترددت صيحة تطالب بالنجدة ، ومضى السفراء إلى بلاط أراجون لدعوته للاشتراك فى حملة قادمة ، وإن

---

(١) Jorga: des quatre valois, p. 166.

(٢) Lorga: Ph, de Mezières, p. 303.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية « ط القاهرة ١٣٥٨ » ج ١٤ ص ٣٢٣ .

كانت رسله فى هذا الوقت بالذات بمصر تسأل العفو عن أسرتهم مصر من أهل بلده وتطلب عقد معاهدة بين البلدين .

لقد كانت هناك أطراف كثيرة يمنيها أن ينعقد الصلح بين قبرص ومصر ، ولكل منها دوافع تختلف عن بواعث الأخرى ، على أنه وجد إلى جانبها جماعات كان من صالحها أن تظل الحرب مشبوبة بين الطرفين ، والتوتر مستمراً ، ومن هذه الطائفة الأخيره جماعة الفرسان الاسبتارية الذين كانوا يرون فى الحرب مظهراً من مظاهر فروسيتهم وتوجيهاً للفكر الأوربى نحوهم باعتبارهم حينذاك حماة لدين الذايبن عن بيضته والناهضين بعبء مقاتلة المسلمين فى وقت قصرت فيه دول أوربية كبرى - بمفهوم ذلك العصر — عن متابعة الحرب جدياً ، ويقف إلى جانب الاسبتارية فى هذا الاتجاه الجيش القبرصى الذى « كان يهتم بالسلب والنهب » ، وهو أمر لم يخف على جماعات كثيرة من مستشارى الملك فصارحوه بهذ الواقع مصارحة لا تقبل الجدل[1] .

أما الأطراف الراغبة فى الصلح فكانت قبرص ومصر ذاتهما وجماعات التجار الأوربيين .

أما قبرص فقد رأى ملكها رأى العين عدم تحمس الدول الأوربية بصورة عملية للحرب وقتال المسلمين فى وقت انشغل فيه معظمها بالمنازعات الداخلية والقتال على الحدود الخاصة به ، وقد ترجم النويرى عن ذلك ، ولكن بصورة أخرى حين قال[2] : «إن ملوك النصرانية لامته على هروبه من الإسكندرية ، وقالوا له إن الذى فعلته فعل اللصوص لا فعل الملوك . . . . دخلتها لصاً وخرجت منها لصاً وذلك لعدم قدرتك على مقاتلة سلطان مصر ، فثبتت لصوصيتك عند سائر ملوك مصر وسائر أجناس الرومانية » .

كذلك فإن قبرص تأثرت من غير شك بالهزيمة التى لاقتها فى الإسكندرية حين انسحبت قواتها بعد أن اقتصر دورها على النهب والقتل والحرق والتدمير ، وأدى

---

(١) Makhairas : op. cit. loc. cit.

(٢) النويرى : الأعلام ، صفحة ٥١٦ .

هذا كله إلى إخلال الميزان التجارى لها[١] ، وقد شاركها فى هذا الوضع الأخير بعض الجمهوريات الإيطالية التجارية لا سيما البندقية ثم جنوة ثم جماعة التجار الكتلان ، ومن ثم اتحدت البواعث لدى هؤلاء على التماس الصلح وعقده حتى تظل التجارة آخذة مجراها الطبيعى ، وشرعت البندقية فى إرسال سفراء عنها إلى السلطان تسأله العفو عن رعاياها البنادقة المقيمين بمصر وترجوه رد أملاكهم إليهم وتجديد ما بين البلدين من اتفاقيات ، غير ملقية السمع إلى رجاء البابا إياها فى الامتناع عن مراسلة مصر بل ضربت بالتماسه عرض الحائط ، وتعددت سفاراتها إلى مصر ، وترددت بينها وبين قبرص ، فكانت أول سفارة رسمية منها فى ٢٩ يناير سنة ١٣٦٦[٢] ، وعلى رأسها فرنشسكو بمبو F. Bembo ، ولقد أوضح ماخيراس ، معاصر هذه الأحداث أن رسل البندقية وقفوا أمام السلطان يتنصلون من معرفتهم بمقدم الأسطول القبرصى إلى الإسكندرية ويبرءون من مساعدتهم إياها فى تدبير خطة الهجوم الفاشل[٣] .

لم يفت البندقية فى الوقت ذاته أن تبعث إلى البابا رسلا آخرين تفسر موقفها وأن « تجارتها هى حياتها » ، وأن التوقف عن المتاجرة مع مصر هو « النهاية الحتمية للوجود البندقى ، وألحت بالائمة فى الوقت نفسه على ملك قبرص الذى لم يرع فى هجومه على الإسكندرية جاليتها التجارية هناك فامتدت يده بسلبها حتى لقد نال هذه الجالية من الضر أكثر مما نال المسلمين » . لكن ذلك العذر لم يجد عناية لدى البابا إربان الخامس الذى لم تكن البندقية تتوقع منه غير الرفض ، أو على الأقل سكوته عن مسلكها من غير لا أو نعم ، ولذلك كان اعتمادها على ما تتمخض عنه سفارتها إلى مصر التى أوقفت ردها على التعرف شخصياً على رأى الملك القبرصى[٤] .

---

(١) أشار إلى هذا النويرى فى الأعلام ، صفحة ٥٢٧ ، حين عرض لموقف القيارصة وتأففهم من ملكهم وتفكيرهم فى الانقضاض عليه وتولية أخيه مكانه حيث قالوا له « قصدنا الإراحة منه (أى من الملك) ونملك رقابنا لتخمد الفتن ونصطلح مع صاحب مصر لتصير بضائعنا تباع بالأسكندرية لنربح فيها الفوائد القوية، كما كنا أولا ، ونجبر فيها بضائعنا الكاسدة التى صارت بفعل أخيك فاسدة » .

(٢) Mas-Latrie : Hist. de Chypre, III, p. 753.

(٣) Makhairas : op. cit., II, No. 176.

(٤) كان الملك قد فقد فى هذه الأثناء أحد اثنين كانا من أكبر المشجعين له على التجريدة الحربية ونعنى به « بيير توماس » وكانت خسارته إياه « أعظم من خسارته الأسكندرية » .

فى هذه الأثناء جاءت رسل البندقية الوافدة من القاهرة (أبريل ١٣٦٦)، غير أن قبرص كانت قد أعدت حملة بقيادة أميرال قبرص الجديد بطرس دى موسترى لمهاجمة بيروت[١]، فأنكر البنادقة ذلك العمل من جانب الملك، ورأوا مقدار الخطر العظيم الذى يهددهم إن هو أنفذها، وأفصحوا له عن مخاوفهم والتمسوا منه مصالحة مصر حتى يتسنى لهم أخذ بضائعهم، وحينذاك، «يفعل ما يحلو له»، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فعرضوا عليه أن يدفعوا له كل ما أنفقه على إعداد هذا الأسطول الجديد، فاستجاب لهم ووعد بتأجيل الحملة حتى يرى ما تتمخض عنه مطالبه منهم التى تتلخص فى أن يرسل السلطان المملوكى إليه سفراءه للتفاوض فى عقد السلم[٢]، وإذا كانت الحجة التى تذرع بها بطرس فى هذا التأجيل هى «حبه للبنادقة» و «كراهيته فى أن يلحقهم ضرر يكون هو سببه» فإنه يبدو لنا أن هناك دافعاً آخر حمله على التظاهر بالاستجابة لهم هو أن مصر شرعت فى ذلك الوقت فى بناء سفن حربية جديدة فى بيروت، وأخذت بعض سفنها تهاجم سواحل قبرص مما حمل الاسبتارية على الشروع فى دعوة الغرب للاتحاد لمواجهة الخطر الإسلامى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط.

على ضوء هذا يمكن أن نفسر قبوله لعرض البنادقة وإصداره أوامره إلى قائد قواته البحرية «جان دى موسترى» فى الكف عن النهوض لمهاجمة بيروت.

غادر رسل البندقية فاماجوستا ومضوا إلى القاهرة مقدمين عروض الجانب القبرصى فاستجابت لهم القاهرة وأرسلت من يمثلها، وركبوا سفينة بندقية بلغت بهم جزيرة قبرص يوم الأحد ٣١ مايو ١٣٦٦، ودخلوا نيقوسيا يوم ٢ يونيو فأنزلوهم فى منزل أحد كبار لوردات الجزيرة حيث اجتمع الملك ووجوه رجال مملكته الذين يبدو أنهم كانوا كارهين للحرب، فقد بينوا له وجوب استجابة سلطان مصر لأن «النهب لا ينتفع به غير الجيش، أما نفقات الحملة فعليك أنت وحدك». والظاهر أن هؤلاء الرسل لم يكونوا مفوضين فى التحدث فى شروط الصلح، وإنما كان إرسالهم إثباتاً لحسن

---

(١) Makhairas : op. cit., N. 177.

(٢) لكنه طلب إليه توجيه قواته لمهاجمة بعض البلاد التابعة للأتراك، ومن ثم ذهب إلى العلايا التى يسميها Machaut : La Prise d'Alexandrie p. 120, بكانديلور، وربما كان ذلك تحريفاً لاسم البقعة التى شيدها عليها علاء الدين السلجوقى حيث كانت تعرف باسم Coracesium، راجع لى سترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٨٣.

نوايا السلطان ورغبته فى عقد السلم والاستجابة لوساطة البندقية وعدم ردها مخذولة فيما جاءته من أجله ، وتخلو المراجع من الإشـارة إلى الحديث عن شىء من مطالب السلطان ، واكتفى الرسل بإعطاء ملك قبرص الهدايا المرسلة من شعبان بن حسين .

الظاهر أن هذه الوفادة — رغم سلبيتها المطلقة — أرضت كبرياء الملك أمام أهل مملـكته من الرعايا والنبلاء إلى جانب ما كان لها من صدى عند دول أوربا ، وقد بعث الملك ثلاثة من قبله — رداً على هذه السفارة — هم يوحنا الفونس الـكتلانى وجورج ستيكا وبولص البولونى ومعهم الهدايا للسلطان ولـكبار رجال مملـكته ، وانفـكأ الوفدان إلى مصر : المصريون فى سفن البندقية والقبارصة فى غراب قبرصى .

استقبلتهم مصر استقبالا طيباً ، ولم يرتفع صوت فى مجلس السلطان أو خارجه باستنـكار الصلح مما يشير صراحة إلى رغبة مصر فى السلم والمهادنة ، بل لقد أرسلت وفداً من رجالها صحبة رسل الملك القبرصى وزودتهم برسائل تتضمن مطالبها التى كانت تتلخص آنذاك فى رد من أسرهم الملك من المسلمين أثناء إغارته على الإسكندرية حتى يقوم ذلك دليلا على حسن نيتـه وصدق طويته ، ويكون مقدمة لصلح يستقر عليه الطرفان ويلتزمان به فى المستقبل ، فلم يعارض بطرس فى هذا الطلب الذى رآه طبيعياً ، وأمر بجمع الأسرى ووكل بهم إثنين هما : «وليم دى راس » ، وكاتب ديوانه سير « بولص دى بولون » غير أن الأول منهما ما لبث أن داهمه مرض عاقه عن متابعة الرحلة فنهض بها الثانى وإن ظل على ظهر مركبه خارج الإسكندرية ، ولـكنه أرسل الأسرى إلى القاهرة .

على أننا لا نعرف الداعى الذى حدى بسير بولص على عدم النزول إلى الساحل حين وصوله إياه ، وإن كان ماخيراس[١] يعلل ذلك « بحصافته وفطنته » فعلى الرغم — كما يقول هذا الـكاتب — من أن الذين ذهبوا لاستقباله خاطبوه بلسان معسول ليدخل الميناء إلا أنه توجس منهم خيفة حين رآهم يتهامسون فيما بينهم فذهب به الظن إلى أنهم يتآمرون عليه ، ومن ثم شرع القلاع وأبحر إلى قبرص[٢] ويحاول نفس

---

(١) Makhairas : op. cit. No. 185.

(٢) ينص Iorga, op. cit., p. 353 صراحة على أن بولص هذا ألقى القبض عليه فى مصر ، ويؤرخ لذلك أكتوبر ١٣٦٦ .

المؤلف تبرير هذا الموقف بأنه لما ترامى إلى سمع السلطان تراجع[1] الغرب عن تجميع قواته لمحاربة مصر ، احتج السلطان بأن قبرص أوفدت رسلا أقل مكانة ممن ينبغى إرسالهم لمثله ولمثل هذا الموقف .

تأزمت الأمور من جديد بين الطرفين فى تحقيق ما سعت البندقية من أجله وتعثرت خطوات الصلح بين الطرفين ، وأنحى الملك على البنادقة باللائمة إذ عدهم قدسخروا به فيما اضطلعوا به ، ورماهم بأنهم هم الذين كانوا السبب فى انصراف الغرب عن متابعة تجميع قواه لمساعدته فى محاربة مصر ، وحينذاك عاد الملك من جديد لتحريك القوى الأوربية لإنجاده فى مشروعه فى الهجوم على السلطان المملوكى فى أرضه وتوابعها ، فأرسل إلى أميديو السادس (١٣٤٣ — ١٣٨٣) كونت سافوى — وكان إذ ذاك فى القسطنطينية — فوجده بعد لأى ، ولكنه اعتذر عن المساهمة فى الحرب إلى جانبه بانشغاله فى مساعدة قريبه الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجس[2] فكان ذلك ضربة للملك وإن خففها عنه تطوع فيلو ريموند دى لسبار بسفنه وجون الأبلينى صنجيل بيت المقدس وهو ابن خالته ، وساعدت الظروف الملك حين هاجم أهل بيروت سفناً للبنادقة مما حمل الأخيرين على تأييد بطرس .

* * *

خلا المسرح التجارى فى موانى مصر إثر هذا الحادث من البنادقة مما أفسح المجال لتجار الكتلان الذين استغلوا الفرصة لصالحهم فطالبوا ملكهم بالتفاوض مع مصر حتى يمكن لبضائعهم أن تجد بها السوق النافقة بيعاً وشراء ، فلم يتوان ملكهم عن إرسال بعضهم رفقة رسول من أسرته ، لكنهم وجدوا اعتراضاً من جانب السلطان حملهم على المضى إلى قبرص ، وذلك فى نوفمبر ١٣٦٦ ، وحينذاك بادر رئيس فرسان الاسبتارية ريموند بيرنجر (١٣٦٥ - ١٣٧٣) فى رودس بإرسال سفن لحساب منظمته لمساعدة ملك قبرص ، وبذلك اجتمع لديه عدد ضخم من السفن الصغيرة والكبيرة المحاربة ، وجعل الملك لنفسه القيادة ، وعين بقية الرجال المحاربين قواداً للسفن الأخرى .

---

(١) وذلك بناء على ما كان ملك قبرص قد أذاعه وبينه لهم من قرب عقده السلم مع مصر .

(٢) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 617.

فلما كان يوم عيد[1] الميلاد عند الشرقيين من سنة ١٣٦٧ (٥ جمادى الأولى ٧٦٨) خرج الأسطول أبهى ما تراءى ولكنه ما كاد يتوسط البحر حتى هبت عاصفة هو جاء فرقته بعضه عن بعض «ولم تستطع سفينة أن ترى أين ذهبت الأخرى» على حد قول ماخيراس[2] وظلت العاصفة تصرف المراكب وجهات مختلفة، فردت الملك إلى ساحل جزيرته ووجهت سفينة لسبار وأخريات معها إلى ساحل بلاد الشام حيث هاجمت طرابلس وأسروا إحدى الشخصيات الكبيرة واسمه المقدم داود[3]، وإلى هذا يشير ابن كثير[4] فى قوله « وقد بلغنى أن الفرنج جاءوا طرابلس غزاة وأخذوا مركباً للمسلمين من الميناء وحرقوه والناس ينظرون ولا يستطيعون دفعهم ولا منعهم وأن الفرنج كروا راجعين وقد أسروا ثلاثة من المسلمين » على أن النويرى[5] يفسر هذا الهجوم تفسيراً آخر، يعزوه إلى لوم ملوك الغرب إياه على عدم قدرته على إتمام حربه فى الاسكندرية، وأنه لما سمع قالتهم وتأنيبهم إياه « كشف رأسه، وخلع من رجله مداسه . . . وجمع المشئوم، من أقاليم الروم، كل كافر مذموم، وقصد طرابلس الشام فى سنة ثمان وستين وسبعمائة، فأرسل الله عليه ريحاً عاصفاً كسر من مراكبه بضعة عشر مركباً، فغرق من فيها وتفرقت بقية المراكب، فمنها سالم وعاطب . . . ثم أتى إلى طرابلس الشام » . .

ويقال إن مصر خشيت مغبة هذا التجمع الحربى، وأدركت مدى الخسارة التى لحقت بالثغر الشامى من جراء امتناعها عن الصلح، فأطلقت سراح جماعة من

---

(١) اعتبر Jorga, op. cit., p. 354 خروجه يوم ١٧ ينـاير ، وقد بين التاريخ الصحيح الأستاذ داوكنز فى تعليقاته على ماخيراس (II, No. 191, n. I) وبين أن اختلاف التواريخ راجع إلى سهو من الناسخ فى الخطبة الأصلية لماخيراس .

(٢) Makhairas : op. cit. No. 191.

(٣) Cf. Makhairas : op. cit. loc. cit.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤/٣٢٣-٣٢٤ .

(٥) النويرى : الأعلام ، ص ٥١٧ .

كبار أسرى القبارصة والفرنجة وأرسلت[1] معهم رسلا من قبلها إلى بطرس لطلب الموادعة التى زكاها لديه كبار رجالاته وخوفه « من ثروة سلطان مصر التى لا تنفد مهما صرف منها على شئون الحرب » فقبل فكرة المسالمة ، وكان ذلك بحضور رسل السلطان يوم ١٠ فبراير ١٣٦٧ (= ٩ جمادى الثانية ٧٦٨هـ) .

واشترط الملك شروطاً قبلها سفراء مصر ، وقد اهتم اهتماماً خاصاً ببيت المقدس ولعل الإصرار عليها كان لتثبيت مكانته فى نظر حكام الغرب ، واشترط بطبيعة الحال إرجاع الأسرى إلى قبرص ، على أن من هذه الشروط ــ كما يذكرها مؤرخ هذه الحادثة[2] ــ ما لا يكاد يصدقه العقل إذ اشترط « أن يكون له نصف دخل مكس مايدخل الجمرك فى مصر والشام » كما طلب أيضاً إعفاء الحجاج المزودين بخطابات توصية منه من ضريبة الزيارة فى بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة الأخرى ، وعلى السلطان أن يبعث إلى فاما جوستا بالعمود الذى يقال إن السيد المسيح ربط عليه .

وأوقف السفراء المصريون نفاذ هذه الشروط على موافقة السلطان النهائية عليها . وليس من شك أن هذه شروط يمليها الغالب وليس بطرس فى هذا الموقف ، وكان من اليسير عليه أن يدرك أن مثلها ما كان لها أن تجد استجابة من مصر .

* * *

جهز الملك سفارة رباعية جديدة من جيمس دى نورس ، وبطرس كامبن ، وجيمس الصغير وسير هيج وزاد على ذلك بأن أعلن فى جميع أرجاء قبرص بجمع كل من يكون فيها من المسلمين « وإرسالهم إلى فاماجوستا أو أفقهسية بل ذهب أبعد من ذلك فأعلن أنه يحق لكل من تنصر[3] ــ وكان مسلماً ــ ولأهل الشام

---

(١) كان الوفد المملوكى بصحبة اثنين من الجنوية هما جيوفانى أمبرباتى ، وتبرو را كانلى ، راجع Iorga, op. cit. p. 350 d'après Machaut.

(٢) Makhairas : op. cit.,

(٣) يفسر النويرى : الأعلام ، صفحة ٤٠٨ ، تنصر هؤلاء المسلمين بأنهم كانوا ممن أسرهم الملك فى غارته على الإسكندرية « ففتنهم الفرنج فى دينهم بالضرب الأليم والعذاب المهين فنهم من تنصر ، ومنهم من مات تحت العقوبة وما كفر ، وإلى هذا يشير شاعر الحادثة ابن أبى حجلة فى قوله :

وكم قتلوا فيها كبيراً ونصروا ... صغيراً من الأسرى ولاسيما البكر
فيالك من هول عظيم وفتنة ... أضر على الإنسان من فتنة القبر

الموجودين بقبرص أن يذهبوا صحبة السفن القلعة إلى مصر ونادى فى بلاده « أن من كنم مسلماً صغيراً أوكبيراً قتل »[1] وعهد بهؤلاء جميعاً إلى سير جيمس دى نورس .

وحدث إذ ذاك أن هاجم المسلمون قلعة « جوريجوس » فى أرمينيا ، فرأى القائد التريث وتوجيه بعض قواته لمحاربة بنى قرمان هناك ، وترامى إلى سمعه أيضاً ما حدث فى القاهرة من ثورة مماليك الأتابك يلبغا بن عبد الله العمرى الناصرى[2] عليه ، « فقد نفرت قلوبهم منه لكثرة ظلمه وعسفه وتنوعه فى العذاب لهم على أدنى جرم »[3] ونجحوا أخيراً فى قتله ، ويفسر ماخيراس[4] سر هذه الفتنة بأن يلبغا كان راغباً فى مصالحة الفرنجة والقبارصة ، وهو خطأ فى التفسير كما يخطىء فيما يذكره من إقامة أسندمر الناصرى[5] مكانه وإن كان يسميه « بحسن دمور » ، وتضطرب المصادر الغربية فى تتبع الأحداث ، فبيناهى تذكر توجيهه جيمس دى نورس لمحاربة بنى قرمان ، إذا بها تذكر تشوق الملك لسماع الأخبار من مصر ومدى قبول السلطان شعبان بن حسين لشروط الصلح التى ارتضاها سفراؤه أثناء وجودهم بالجزيرة ، ولكن يبدو لنا أن السفارة قدعادت إلى مصر التى علمت بحملته ضد بنى قرمان وتشككت فى صدق نوايا بطرس فى الموادعة ، فلم تجبه على رسالته فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ويزكى هذا الرأى عندنا موقف الجنوية حينذاك فقد خافوا العواقب المترتبة على تأخر الصلح بين الجانبين وأدركوا مقدار الضرر الذى سوف يحيق بمصالحهم التجارية فى مصر ، فأرسلوا إليها وفادة جنوية بقيادة أحد كبار تجارهم واسمه « بطرس دى كانيل » يلتمسون عقد الصلح بينهم وبين السلطان الذى رفض رجاءهم ورد عليهم بأنه « لا يعقد الصلح إلا مع ملك قبرص وأنه فى انتظار رسول من جانبه »[6] ، فلم يجد السفير الجنوى بداً من المضى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤/٣٢٣ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ٤/١٢١٨ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١/٣٦ ؛ ابن كثير : شرحه ١٤/٣٢٤ .

(٤) Makhairas : op. cit., I, No. 196.

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ١/٩٨٢ .

(٦) Makhairas : op. cit. I, No. 196.

إلى بطرس متوسلا إليه إنفاذ رسل السلطان صحبة سفير من عنده ، فاستجاب لهم الملك وبعث جيمس دى نورس مندوباً عنه وفى صحبته غرابان أحدهما لجنوة والآخر لأراجون . فلما جاء السفير القبرصى إلى مصر أمر السلطان بأخذه لمشاهدة معالم مصر والقاهرة . حتى إذا فرغ من ذلك كله تقدم « دى نورس » إلى السلطان يطلب موافقته على الاتفاقية التى أقرها سفراؤه من قبل . فأنكرها السلطان مما أحنق السفير القبرصى الذى خاطبه فى جرأة بلغت حد القحة فأثارت غضب شعبان حتى لقد هم بالفتك به لولا أن سكن خاطره أحد رجالاته [(١)] . وراح يلح عليه فى عقد الصلح مع قبرص حتى لانت عريكته واستجاب لإلحاحه ، وبعد فترة طالت حتى بلغت عشرين يوماً وافق الملك على شروط لا نعرف مفرداتها ؛ وإن قيل أن الكثيرين من كبار مماليكه كانوا غير راضين عنها . وليس فى المراجع العربية والغربية مايشير إلى فحوى هذه الشروط : غير أنه من الثابت أنه أرسل مع جيمس دى نورس سفيرين من قبله يقال إن أحدهما أسندمر الناصرى والآخر المترجم الجنوى الأصل . وبعث معهما بكثير من الهدايا والتحف . فبلغ الوفد قبرص يوم ١٤ يونيو ١٣٦٧ (= حوالى ١٣ شعبان ٧٦٨هـ) لكن الملك كان متغيباً وقتئذاك فى رودس . فلبثوا عشرة أيام رحلوا بعدها إليها . فاستبق الملك رسولى مصر بالسفينة وقابل جيمس دى نورس وغضب إذ رأى المسألة لا تعدو حد إرسال الرسل وأن الصلح لم يتم . وكان ظنه أنه قد أبرم واستتب السلم بين الجانبين . ورأى فى إرسال السلطان السفراء من جديد سخرية به .

أراد بطرس — كما يظهر — أن يبث فى روع مصر عدم اهتمامه بشأنها . فمضى يغير على بعض البلدان والثغور فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ومنها طرابلس [(٢)] ويصف ابن تغرى بردى [(٣)] قصد الفرنجة إياها تحت رايته فى مائة وثلاثين مركباً من الشوانى والقراقير والغربان والطرائد « وصحبتهم صاحب قبرص . وكان نائبها أكثر عسكرها غائبين عنها . فاغتنمت الفرنجة الفرصة وخرجوا من مراكبهم

---

(١) هو ناصر الدين بن قرايا مترجم السلطان ، وكان مسيحى الأصل جنويه ثم أسلم وكان اسمه قبل دخوله خدمة السلطان Luciano dell'Orto .

(٢) النويرى : الأعلام ، ص ٥١٢ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١/٣٦ .

إلى الساحل . فخرج لهم من طرابلس بقية عسكرها بجماعة من المسلمين . فتراموا بالنبال ثم اقتتلوا أشد قتال ، وتقهقر المسلمون ، ودخل المدينة طائفة من الفرنج فنهبوا بعض الأسواق . ثم إن المسلمين تلاحقوا وحصلت وقائع عدة استشهد فيها من المسلمين نحو أربعين نفراً ، وقتل من الأفرنج نحو الألف » ، ويتفق ابن تغرى بردى والنويرى[1] فى أن « الفرنج رجعوا خائبين » ، وأن الملك عاد إلى جريدته « خائباً مقهوراً » ، وكانت تلك الوقعة يوم ١٩ سبتمبر ١٣٦٧ (= ٢٣ صفر ٧٦٩هـ) وتتفق المصادر العربية والغربية[2] فى وصف استبسال أهل طرابلس وكذلك فيما ارتكبه المغير من أعمال السرقة والنهب . وقد استغرقت هذه الحركة من بطرس فترة امتدت حتى الأسبوع الأول من أكتوبر حيث عاد إلى قبرص ، وربما كان السبب الذى حمله على العودة هو اقتراب عيد الميلاد ورغبة الفرنسيين الموجودين فى جيشه فى أن يكونوا بروما للاحتفال بهذه الذكرى الدينية . فلم يجد بداً من الرجوع حيث أمر بزج رسل السلطان فى الحبس . وأصدر بياناً دعى فيه كل راغب « فى نهب بلاد السلطان المصرى أن يمضى إلى فاما جوستا ، وأن يتزود لذلك بما شاء من السلاح والعدة » وكان هذا تخبطاً من الملك القبرصى .

* * *

على أن الجنوية والبنادقة رأوا مبلغ الضرر الذى حاق بهم وبتجاراتهم فى الشرق من جراء مسلك بطرس ، فبعثوا إلى البابا يشرحون له ماهم فيه من إرهاق والتمسوا منه أن يطلب من الملك القبرصى عقد الصلح صوناً لمصالحهم « وحفاظاً على أرواح المسيحيين فى أرض السلطان » فلم يجد البابا بداً من استدعاء بطرس (وكان إذ ذاك فى فلورنسة) وحثه على موادعة مصر . فأبدى استعداده لإجابة مطلبه . وكان للملك شروط حملها الرسل الإيطاليين إذ جعل لنفسه حق اختيار من يمثله من القبارصة فى مصر ، وله وحده حق خلعهم مما عهد إليهم . وأن يكون لهم الحكم فى جميع

---

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٥١٧ .

(٢) النويرى: الأعلام ص ٥١٧ النجوم الزاهرة ١١/٣٦ ، وانظر أيضاً :
Chroniques de quatres Valois, p. 186.

الجرائم والمنازعات التى تـكون بين القبارصة الذين لايجوز حبسهم إلا بعد مطالعة هؤلاء المندوبين بالأمر وموافقتهم عليه ، وأن يكون لهؤلاء المندوبين – فى بعض الأحيان – التقدم بطلب خفض الضرائب المستحقة على القبارصة إلى ما قد يصل إلى النصف . أما أتراك آسيا الصغرى فلا يسمح لهم بدخول أرض مصر إلا تجاراً وحينذاك يجب أخذ العهد عليهم بألا يهاجموا بلاد الملك فى أثناء رجوعهم من مصر ، وأن تطلق الحرية لجميع حجاج الأراضى المقدسة . وأخيراً فإن جميع المنازعات التى تنشب بين القبارصة وبين رعايا السلطان يجب أن تخضع لحكم رؤساء القبارصة وإلى قيمى الجنوية والبندقية فى الشرق(١) .

فبادر الجنوية والبنادقة فى الحال بحمل هذه الشروط وأرسلوها صحبة وفدين من قبلهما كان على رأس الأول «كاسان سيجالا» وعلى رأس الثانى «نيكولا جستنيانى» وأنفذ الملك إلى أخيه – وكان إذ ذاك نائبه فى قبرص أثناء غيبته عنها – يطلب إليه إطلاق سراح أسرى السلطان ، وأن يعهد بهم إلى مندوبى جنوة والبندقية لأخذهم الى القاهرة .

يلاحظ هذه المرة أن السلطان لم يرسل سفيراً أوسفراء من قبله ولـكنه وكل إمضاء الاتفاقية الى «السفيرين الجنوى والبندقى براً بوعدهما الذى قطعاه فى حضرة البابا المعظم»(٢) فى أن يعملا جهدهما على حمل مصر على الاستجابة لحقن الدماء وإنهاء العداوة والحرب الباردة ، وما كان لأخيه الأمير إلا أن يؤمر فيجيب ، على أنه يظهر أن الجنوية والبنادقة اتفقوا فيما بينهم على استبقاء الرسل المصريين حيث هم – وإن كانوا مطلقى السراح حتى يروا ما يتم بشأن الوفادة التى نهضوا من أجلها ، وأخذوا على عاتقهم تحقيق الغاية التى ينشدها الملك ويطمعون فيها لضمان انتظام تجارتهم ، ومن ثم رحلوا وحدهم يوم ٢٥ يونيو ١٣٦٨ (٧ ذو القعدة ٧٦٩ هـ .) – أى بعد عام من رجوع سفارة جيمس دى نورس – فلما بلغوا القاهرة أفضوا إلى السلطان بما جاءوا من أجله « ووصلوا معـــه إلى اتفاق وأرسلوا إلى قبرص لإرجاع رسله »(٣) ، وقام

---

(١) Cf. Iorga : op. cit., p. 375.

(٢) Makhairas : op. cit., I, No. 223.

(٣) Makhairas : op. cit., I, No. 224.

السلطان من جانبه بإطلاق سراح كثير من المسيحيين ورد أملاكهم عليهم ، ولكنه أخر القسم « حتى يتم الصلح »[١] ، وحينذاك قامت سفينتان : جنوية وبندقية بالإبحار الى جمهوريتهما للتوسط فى إحضار السفراء المصريين الموقين بقبرص ، فنهض الحاكمان بنفسيهما لأداء هذه المهمة مما يدل على خطورة المهمة هذه المرة وعلى أن الجانب الفرنجى كان شديد الثقة فى أن تكلل مساعى الجمهوريتين الحميدة بالتوفيق واستكتبهما أخو الملك فى قبرص أمام الموثق الرسمى استلامهما « السفراء سالمين » فرحلا بهم يوم ٢٤ أغسطس (٩ محرم ٧٧٠ هـ .) من فاماجوستا إلى ثغر الإسكندرية حتى إذا بلغاها أرسلا يعرفان كاسان سيجالا ، ونيكولا جستنيانى بخبر قدومهم ، فطلب السلطان إنزال سفرائه إلى الميناء ، إلا أن كاسان سيجالا قال له : « مولاى ، أن أوامر ملك قبرص تقضى ألا ننزل رسلنا حتى تعقد الصلح ويتم إطلاق من فى سجونك من النصارى حتى لا تغير رأيك كما حدث من قبل »[٢] فغضب السلطان غضباً شديداً وكبر عليه أن يكون عمله وقوله موضع شك ، كما عظم عليه أن يحدثه «هذا العلج الخنزير» بمثل هذا الأسلوب دون مراعاة لمقامه ، وقام منكلى بغا الشمسى فصفع كاسان على وجهه وسبه وجذبه من لحيته واتهمه بغش السلطان والسخرية به ، فأنكر كاسان هذا القول ، ويصف لنا ماخيراس[٣] — ولكن فى اضطراب فى ذكر الأحداث ـ ما جرى إذ ذاك من وجود فريقين أحدهما يشجع السلطان على اتخاذ موقف صلب إزاء هذه السفارة وثانيهما يحاول تهدئته ومعالجة الموقف فى شىء من الهدوء . وتردد السلطان بين الاستجابة والرفض وأخيراً عفا عن السفير الجنوى ورده إلى قبرص حيث عاد باثنين من الرقيق المسلم هما « آخر من بقى من المسلمين بها » وأرسل بطرس معهم خطاباً إلى السلطان وردت ترجمته فى ماخيراس[٤] جاء فيه « إلى صديقنا العزيز سلطان مصر : يبعث إليكم صديقك ملك قبرص تحياته . وأحب أن تعلم أنى تألمت منك أشد الألم . . . فقد طلبت الصلح واستجبت له بناء على التماس الجنوية والبنادقة والكتلان ، إذ ألحوا على من أجله ، فلما جاءتك

(١) Op. cit., loc. cit.

(٢) Op. cit., loc. cit.

(٣) Ibid., I, Nos. 225-226.

(٤) Ibid., I, No. 230.

رسلى ضرب البعض منهم فى حضرتك ، وحاولت قتل الآخرين ، فاحتملت هذا كله ؛ وإنك لتطلب السلم لحظة ثم يبدو لك أن تنصرف عنه وتماطل فيه ... وأقسم لك كمسيحى أن حكام الغرب قد أصدروا أوامرهم لعسكرهم بالتأهب لحملة ضخمة لمهاجمتك . غير أن البنادقة خدعونى فأفهمت الحكام أن السلم قد استتب بينى وبينك فقعدوا بعد النهوض وآمنت بما قلته كملك فأطلقت سراح الأسرى المسلمين وبعثتهم إليكم بينما لا تزال أنت مستبقياً النصارى فى حبسك » ثم أخذ يتهدده وأخبره أنه لن يخط إليه بعد ذلك حرفاً . وواضح من هذا الكتاب — إن صدق وروده على هذه الصورة — أن الملك يهدد من طرف خفى بتعويق تجارة مصر نظراً لاشتراك البنادقة والجنوية والكتلان معه فى إحساسه وإن كان يلقى باللائمة على البنادقة فى أنهم — بما نقلوه إليه من رغبة السلطان الصلح — قد خدعوه إذ ثنى الغرب عن إنفاده حملةضدمصر ، ولكنه يهدده فىالوقت ذاته بأن الغرب لا زال مستعداً لمحاربته إن لم يف بما وعد ، وأنه لمن المؤسف أن المراجع العربية تخلو خلواً تاماً منالإشارة إلى مثل هذا الخطاب ، بل وإلى الأحداث التى جرت فى تلك الفترة بالذات .

على أن الأحداث فى قبرص عوقت الملك فقد تحركت نفوس أمرائه ضده ، وراحوا يتهمونه بكل موبقة ، بل إن زوجته ذاتها كرهت منه أسلوبه فى خطاياه ، فاتفقت الآراء علىاتخاذ خطوة فعالة ، كان أيسرها شكواه إلى البابا ، وبلغ التذمر منه غايته حتى تآمروا على قتله فاغتالوه ، وكان ممن اغتاله أخواه ، وأجلسوا علىالعرش ابنه الصبي بطرس الثانى وجعلوا أخاه وصياً عليه ، وكان منأشد من حزن على قتله فيليب دى ميزيير الذى جعل « خبزه دمعه Panem Lacrimarum » ، والظاهر أن الوصىأراد أنيجعل من وصايته عهداً بالسيرعلى خطة المقتول من حيث معاداة مصر ، فبعث بواحد من رجال الأسطول اسمه « جان دى مورف » فى أربع سفن حربية إلى الثغر السكندرى لكن المسئولين بها لم يسمحوا له بالدخول ، فلميكن منه إلا أن وثب على مركب لجماعة من المغاربة ثم راح يهاجم صيداء وبيروت وجبلة واللاذقية ، ثم عاد إلى فاماجوستا يوم ٢٢ يوليو ١٣٦٩ (١٦ ذو الحجة ٧٧٠ هـ) ، وكان لهذا الهجوم المباغت أثره فى تقوية الروح المعنوية فى الغرب فأخذ يحشد قواته من المغامرين وأصحاب المطامع الشخصية لضرب القوة الإسلامية فى مصر ، وضاقت

البندقية ذرعاً بمسلك السلطان فى عدم رضائه بالصلح ، فنهضت هى هذه المرة ودعت جنوة لإرسال مندوبين عنهما إلى البابا الذى جاءته وفادة من الجمهوريتين التجاريتين وهونى مدينة «فيتيرب» واتفق الجميع حينذاك على عدم المتاجرة مع مصر المملوكية ، وتأكد هذا فى اتفاقية عقدت يوم ٢٨ يوليو تعهد فيها كل من البنادقة والجنوية بإرسال بعض السفن والأغربة إلى رودس للاتفاق مع جماعة الاسبتارية — المرحبين بكل دعوة لقتال مصر — ومع القائم بالوصايا على الملك القبرصى ، واتفقوا على إرسال قوة إلى مصر تطلب من سلطانها إعادة جميع من فى أسره من الفرنجة فإن أبى ذلك عليهم هددوه بقطع الطريق على جميع السفن القاصدة الإسكندرية ، مسيحية أم إسلامية ، وكان معنى هذا الحصار الاقتصادى وما يتبعه من ضعف قوة مصر وركوعها أمام الغرب .

وإذا كان ماخيراس هو المصدر لهذه الأخبار فقد أورد ماجرى من هذه الجماعة من مجيئها وإرسالها رسالة إلى السلطان ، قذفته إليه بسهم تهدده فيه بالحرب إن لم يستجب لداعى العقل والصالح العام ، وختمته بقولها « إنك مملوك من أصل وضيع » (١) ، ويذهب ماخيراس إلى أن السلطان خاف هو وأمراؤه فأطلق سراح اثنين من تجار النصارى وأرسلهما إلى الوصى بقبرص بكتاب يعتب فيه على مسلك الذين جاءوا من قبله ، فعده القوم تحولا طيباً وخطوة إيجابية فى سبيل الصلح ، ورحب الوصى بهذه الفرصة إذ رأى فيها تثبيتاً لمكانته فى عيون الأهالى وتجار الغرب ، ومنع السفن من المضى إلى الساحل الشمالى بقصد نهبه ، وأخذ السلطان يترقب عودة التاجرين اللذين فك قيدهما ، فأرسل اثنين آخرين أحدهما جنوى والآخر بندقى (٢) ، فاطمأنت قلوب تجار قبرص ، ورحبت جنوة والبندقية بهذه الخطوة الجديدة من جانب السلطان وأرسلتا إلى البابا والدوج للسكون ، وسارت الأمور كما يشتهى جميع الأطراف ، وخرجت ثمانى سفن ، واحدة عليها التجار و لأربعة الذين بعثهم السلطان من قبل ، واثنان جنويان وعليهما وولتر داريا ، ومثلهما بندقيان وعليهما بطرس جستنيانى واثنان اسبتاريان وعليها الأخ دى فيرن وغرابان قبرصيان عليهما سيتفن فاردن وجون بدوان

---

(١) Dawkins, op. cit., No. 294, note I, d'après Bustron.

(٢) Cf. Iorga : Philippe de Mezières, p. 401.

الـكبير ، كما أرسلوا مع هذه السفن التجار المسيحيين الأربعة الذين كان السلطان قد بعث بهم من قبل على دفعتين ، وأرسل الوصى كتاباً رقيق اللهجة إلى السلطان يؤكد له فيه أن كل ما يبرمه رسوله جون بدوان مقبول لديه وغير مراجع فيه ، وبلغت هذه السفن الإسكندرية يوم ٦ أغسطس ١٣٧٠ (= ١٢ المحرم ٧٧٢هـ) على قول ويوم ٨ أغسطس على قول آخر (١)، وبعد لأى استجاب السلطان للصلح وأقسم على القرآن باحترامه كما أقسم الآخرون على الإنجيل ، وأرسل بعض كبار أمرائه إلى قبرص حيث رحب بهم الوصى ودعى الملك الشاب للقائهم ، وأقسم الجميع كل على كتابه المقدس ، وبذلك ختمت صفحة من النزاع الذى بدأه بطرس اللونيانى ليعود فى القرن التالى ويستكمل باحتلال مصر لقبرص .

حسن حبشى

---

(١) Makhairas, op. cit., No. 303 ; Dawkins, op. cit., II, 303, note 2. d'après Strambaldi.

الرملة ورباطاتها السبعة

فى القرن الرابع الهجرى قبيل الحروب الصليبية

نظام دفاع دائرى

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

أستاذ التاريخ الإسلامى (سابقاً)

كلية الآداب — جامعة عين شمس

من الطبيعى أن نهتم بالرملة وهى مفتاح القدس من ناحية ومفتاح المدن الساحلية المحيطة بها على شكل دائرى . ذلك أن الرملة جزء هام من فلسطين التى شغلت تفكيرنا وجهودنا منذ أكثر من عشرين سنة .

والرملة هى العاصمة الحربية الحقيقية لجند فلسطين كما كان يسمى فى عهد عمر أو لإقليم فلسطين ، كما نسميه نحن العرب اليوم . أما القدس فهى العاصمة الروحية ، ومسرى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومقر المسجد الأقصى ، والقبلة الإسلامية الأولى ، والحرم المقدس لدى عامة المسلمين .

أنشئت الرملة فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) لتقوم بدور رئيسى فى حماية الثغور والدفاع عن البلاد الساحلية . ويجب أن نذكر دائماً أن هذه المدينة كانت مصراً من أهم الأمصار الإسلامية ، وكان إنشاؤها على يد دولة واثقة من نفسها ، قادرة على تحقيق الأمن الداخلى وتحقيق الدفاع الفعال عن الساحل ، ولهذا اختار القواد الذين مصروها موقعها بعيداً عن المرتفعات القريبة منها عند « عمواس » وحرص القواد على أن يجعلوا من مكانها مكاناً يمكن أن تحتشد فيه القوة الاقتصادية دون عائق من التضاريس ، وأن تحتشد فيه الجيوش لتدافع دفاعاً فعالا عن الساحل القريب .

وقد كانت الرملة ورباطات الساحل الواقعة فى غربيها وحدة متكاملة من وحدات الدفاع واقعة فى منطقة السهول الساحلية . فكانت الرملة قاعدة خلفية مركزية

بالنسبة لمدن الساحل السبع الواقعة أمامها ، وكان إنشاؤها عبارة عن تعميق لخطوط الدفاع الساحلى ، مع تركيز هذه الخطوط عند نقطة مركزية خلفية ، أكفأ من القدس على الدفاع والهجوم .

أما إسم الرملة فالراجح أنه مشتق من ظاهرة مناخية ، هى ظاهرة تحول التربة إلى رمل ناعم فى الصيف ، بسبب جفاف الجو بحيث لا يوجد فى هذا الفصل ماء يجرى ولا خضرة مؤنسة إلا فى قمم النخيل وشجر التين ، ولا يوجد فيها فى الصيف إلا ماء الآبار البعيدة الغور وهو ماء يميل إلى الملوحة غير أنه شروب ، ولهذا يدخر الناس ماء الشتاء فى صهاريج لهم لشرابهم فى الصيف . ومثل هذه التربة تعتبر أصلح الأراضى لإنبات التين ، ولهذا اشتهرت الرملة بهذه الثمار حتى قرر القدماء أنه لم يكن يوجد أفضل منه تين فى ديار الإسلام وكان يسمى لسبب ما بتين دمشق . كما يسمى تين العامرية بتين سيدى جابر ، أما فى الشتاء فإن المنظر يتغير عندما ينزل المطر فيحول الرمل الناعم إلى بحيرة من الوحل ذات لون رملى ، وتنبت عندئذ الزروع وخاصة القمح ، وقد اشتهر قمح هذه المنطقة واشتهر كذلك خبزها بالبياض وجودة الصنعة ، وكان محصول القمح يكفى كل المنطقة ، وكان يصدر إلى مصر .

وإلى جانب هذه الثروة الزراعية توفر للرملة ثراء تجارى صناعى ، فقد كان فيها طبقة من تجار الأقمشة ينزلون فى حى خاص بهم حول الجامع الكبير ، وكان من عاداتهم فى القرن الرابع الهجرى أن يركبوا حميراً من مصر ، وأن يتأنقوا فى اختيارها وفى اتخاذ السروج لها ضناً بالخيل التى كانت لا تستعمل إلا للأغراض الحربية .

فى هذه المنطقة الرملية الخصبة قامت مدينة كبيرة ذات جامع أفخم من جامع دمشق الأموى مع أن مسجد دمشق كان فخما وكان ثانى مساجد الإسلام اتساعاً وجمالا ، وبنيت لجامع الرملة مأذنة جميلة وكان محرابه أكبر محراب معروف ، ومنبره أجمل منبر فى ديار الإسلام كلها على الإطلاق فى رأى المقدسى الجغرافى العربى . أما عمائر المدينة فكانت مبنية بالحجر والآجر على السواء ، وامتد العمران امتداداً كبيراً ، فكان للرملة إثنى عشر باباً بعدد الطرق التى تخرج من المدينة نحو الداخل ونحو الثغور البحرية على الساحل ، ومنها درب يافا المار بمدينة « يازور » ودرب عسقلان ، وهذه الدروب الإثنى عشر هى التى تصور نظام الدفاع المركزى

الدائرى . وإنما سميت الطرق دروباً لإبراز معنى الجهاد ، فكان شأن هذه الدروب المؤدية إلى ثغور البحر شأن الدروب التى كان يجوزها الغزاة المجاهدون المرابطون للوصول إلى أرض العدو عبر جبال الطوروس . ومن الطبيعى أن يكون العمران على قدر الطرق ، ولهذا يقول المقدسى : إن مبانى المدينة كانت فخمة ، وشوارعها واسعة ، ومساكنها فسيحة ، وحماماتها طيبة ، وفنادقها جميلة ، وتجارتها واسعة رائجة . ونقول نحن : إن المدينة كانت تمثل قوة الدولة فى عهد بنى أمية والعهود التالية بها وجمالا وسحراً ورغد عيش لأنها كانت العاصمة لإقليم فلسطين . وكان للمدينة طابع خاص سجله المقدسى فأشاد بكرم الناس وسماحتهم وطيب عيشهم . ولم يجد فيهم عيباً إلا عيباً واحداً هو قلة حظهم من العلم فى القرن الرابع الهجرى . وكان عدد السكان كبيراً من غير شك بسبب ما ذكرنا من ثراء المدينة ورواج تجارتها وصناعتها ، وبسبب آخر هو اندفاع الهجرة الحربية نحو المراكز الإستراتيجية على شكل متطوعين وعلى شكل رباطات رسمية . وقد أدى عامل الجهاد إلى أن أكسب جامع الرملة قداسة كقداسة المساجد الأولى فى الأمصار الإسلامية الأولى كجوامع الكوفة ، والبصرة والفسطاط ودمشق ، بل يقرر المقدسى أن الرملة كانت فى أيامه أكثر عمراناً من بغداد نفسها .

كانت الرملة ورباطاتها الساحلية السبعة جزءاً من نظام الدفاع الساحلى الذى أقامه عمر بن الخطاب للدفاع عن الشام (بمدلول الإسم القديم) من غزة إلى أنطاكية ، وقد استمر هذا النظام قائماً واستمرت العناية به قائمة إلى القرن الرابع الهجرى ، وتلك حقيقة يجب الانتباه إلى أهميتها ، لأنها تدل على أن هذه السواحل ظلت قائمة قياماً فعالا بواجب الدفاع إلى أن اغتصبها الفرنج الصليبيون فى نهاية القرن الخامس الهجرى .

ويقرر المقدسى أن الرملة كانت عاصمة فلسطين ، وأنها كانت نقطة خلفية لسبعة رباطات ساحلية ، وأن العرف جرى بفداء أسرى المسلمين فيها ، وأن نظام الدفاع كان يقوم على أساس استعمال شارات النار فوق الأبراج لحشد قوات المنطقة عند قيام أى خطر .

* * *

ولكى نشرح نظام الدفاع يجب أن نتخيل المنطقة تخيلا كاريكاتورياً ، ولنتصور

على هذا الأساس أن الرملة كانت مركز قطاع من دائرة ، وطول القطاع الدائرى نحو ٥٠ كيلومتراً ، وطول القطر بين المركز وخط القطاع نحواً من ٢٠ إلى ٣٠ كيلومتراً ، والمطلوب هو أن تدافع قاعدة الرملة المركزية عن القوس الساحلى (أنظر الخريطة التوضيحية المرفقة وهى تمثل نظام الدفاع الدائرى) ، فأقيمت على الساحـــل على أبعاد متساوية تقريباً من الرملة ستة رباطات بين كل رباط والآخر نحو ١٠ كيلومترات ، وقد روعى فى اختيار هذه المسافات أن يكون من الممكن الاتصال بالعين المجردة بين كل رباط ورباط عن طريق النيران . أما الرباطات السبعة فهى : (١) غزة وميماس (٢) عسقلان (٣) أزدود وماحوز أزدود (٤) يبنى وماحوز يبنى (٥) يافا (٦) أرسوف (٧) قيصرية .

لـكننا يجب أن ننبه إلى أن القوس المرسوم حول الرملة يتفرطح ويتباعد فى طرفيه الشمالى والجنوبى عند قيصرية وغزة .

ولنبتدىء من الجنوب نحو الشمال فى ذكر هذه الرباطات من غزة إلى قيصرية .

١ — غزة وميماس :

أما غزة فإنها تقع على مسافة قريبة من الساحل لا على الساحل نفسه ، ويتركز الدفاع عنها فى ميماس الواقعة على ساحلها ، وهى ميناء غزة وقلعتها ، ويظهر أن الوضع قد اختلف اليوم ، وأن غزة اندثرت وحلت محل قلعة ميماس وحملت إسمها معها لأن الذين زاروا غزة تحدثوا أمامى عن كورنيشها وما عليه من فنادق ساحلية وتحدثوا عن شارع طويل متفرع من الـكورنيش إلى أقصى المدينة . وكانت غزة رباطاً بحسب المقدسى ، ومعنى هذا أنها كانت محصنة شأنها شأن ميماس . وكانت الرباط الرئيسى بالنسبة لرباط ميماس .

ولغزة قداسة اكتسبتها من حياة الرباط ومن قداسة الجهاد . ومن ذكريات دينية قديمة : ففيها فيما قيل ولد النبي سليمان وولد الإمام الشافعى ، وفيها دفن هاشم ابن عبد مناف جد رسولنا الـكريم ، وفى أسواقها فى الجاهلية تاجر عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين .

ولا غرابة إذن فى قول المقدسى أن غزة فى أيامه فى القرن الرابع الهجري كانت مدينة كبيرة عامرة هامة الشأن .

أما ميماس فيقول عنها المقدسى أنها كانت مدينة صغيرة محصنة ، ونفهم من هذه العبارة أن ميماس مدينة مسورة ذات أسوار وأبراج وحصن . وكانت تتبع غزة بحسب قول المقدسى والواقع أن وظيفتهما الحربية كانت متكاملة وأن ميماس كانت جبهة غزة . ثم أن طريقاً من طرقات الرملة كان ينتهى عند غزة وميماس .

٢ — عسقلان :

تقع هذه المدينة على نحو ١٢ كم شمالى عزة . وكان لها عمرانها الكبير وزراعاتها المشهورة وذكرياتها الدينية وتحصيناتها .

أما من حيث العمران فإنها كانت جميلة فائقة الحسن ، ذات أسواق فخمة ، وتجارة رائجة أهمها تجارة الحرير . وكان تجار الأقمشة بها كثيرين تتركز منازلهم فى الحى الذى يقع فيه الجامع . وكان هذا المسجد الجامع كبيراً كسيت أرضه بالرخام.

أما الزراعة ، فإن أشهرها الفواكه والجميز . ولا يزال هذا الساحل الشامى مشهوراً بها إلى اليوم ، فهى زراعة مستوطنة أصيلة . ثم إن المدينة اشتهرت أيضاً بشجر الجميز وهو شجر كثير الظل رخيص الثمار ، معروف بفوائده الطبية ، وكان الجميز قديماً شجرة مباركة ترمز إلى الخصب ، والبركة مقترنة بها فى بعض العصور . وكان المعروف فى القرن الرابع الهجرى أن سيدنا إبراهيم احتفر بئراً عند إحدى شجرات الجميز . ولا نزال نرى فى ريفنا البئر عند شجرة جميز . ولكن ذيوع الطلمبات قضى على مثل هذه المناظر وأنسى الناس قداستها ، ثم أن عصير الشجرة الذى يتساقط منها كلما دقت سائل نافع فى العلاج .

ومن الذكريات الدينية التى شاعت فى العصر الفاطمى وجود ضريح للحسين سيد الشهداء . ويكفى آخر الأمر أن تكون أية مدينة رباطاً لكى تكتسب شيئاً من قداسة الأحرام .

وقد كان الرباط يقتضى إقامة التحصينات . وكانت تحصينات عسقلان عظيمة الأهمية من حيث قوة التحصين ومتانة البنيان ومن حيث عدد الحصون . ويقرر

المقدسى أنها كانت تشمل حصوناً كثيرة جيدة التحصين عجيبة البناء . ويكفى ذلك لإبراز الأهمية الإستراتيجية الكبرى المقترنة بهذه المدينة . ولا عيب فى هذه المدينة إلا رداءة الماء ورداءة الميناء .

٣ — أزدود وماحوز أزدود :

على نحو عشرة كيلو مترات شمالي عسقلان تقع أزدود وميناؤها ماحوز أردود ولفظ ماحوز آرامى معناه الميناء ، والشأن فيهما شأن غزة ومياس . وبهذا القياس كانت أزدود قريبة من الساحل على حين كان ماحوزها عند البحر تماماً .

وقد بلغنا عن طريق الصحف اليومية أن إسرائيل الدخيلة على منطقتنا تعيد إنشاء ميناء أزدود (أى ماحوزها) الذى اندثر هو وتحصيناته .

٤ — يبنى وماجوز يبنى :

ونلاحظ نفس الازدواج الذى رأيناه فى غزة وفى أزدود فى حالة يبنى وماحوز يبنى . ويدل نص البلاذرى الخاص بالتحصينات الساحلية كما يدل نص المقدسى العام الشامل لكل الرباطات التابعة لمدينة الرملة على أن التحصين يكون مزدوجاً شاملا للمدينة الداخلية وللمدينة الساحليه وأن يكون الرباط عند الساحل وأن تكون المدينة الداخلية ورءاً مساعداً يحمى الرباط ويدعم صلته بداخل البلاد .

٥ — يافا :

كانت يافا كما يقرر المقدسى ميناء مدينة الرملة . فإذا كانت الرملة العاصمة الحربية والإدارية لجند فلسطين من الشام بالمعنى القديم فإن مدينة يافا تعتبر الميناء الأكبر لإقليم فلسطين . وفعلا يقرر المقدسى حسن الميناء وصلاحيته .

والمدينة كما يصورها المقدسى تبدو فى صورة أنيقة هى الصورة الجميلة لكل المدن العربية القديمة . تبدأ المدينة بسور محيط بها ، وكان سور يافا يحيط بها من جميع الجهات ، وله أبواب منها باب يفتح على البحر مصنوع من الحديد ، لأنه الباب الأهم ، على حين كانت الأبواب الأخرى مقواة بالحديد فقط ، ولم يورد المقدسى شيئاً غير ذلك عن السور ولكن التقاليد المتعارفة فى أصول التحصينات القديمة الإسلامية تقضى

أولا بأن يكون للسور أبراج على أبعاد مقدرة بحيث تحمى الأبراج جدار السور كله بضرب السهام ، وثانياً بأن يكون الاتصال بين الأبراج ممكناً عند قمة السور بطريق عال فى أعلى السور على نحو الطريق العالى الموصل بين بأبى الفتوح والنصر الباقى بالقاهرة إلى اليوم . وثالثاً بأن يوجد خارج السور خندق يصعب على العدو اجتيازه لـكى يتقدم نحو السور .

وفى داخل المدينة فى مكان ما منها — يختلف باختلاف تضاريس المدينـة يوجد الحصن ، ويذكر المقدسى أنه كان للمدينةحصن يشرف عليها بعلوه ، على نحو إشراف قلعة القاهرة عليها أو على نحو إشراف قلعة حلب عليها .

وكذلك اختير لمسجد المدينة مكان مرتفع قرب البحر فـكان المسجد ظاهراً مشرفاً على البحر .

فإذا نظر الناظر إلى المدينة من خارجها رأى السور ذا الأبراج الشامخة ورأى حصن المدينة ومسجدها .

أما الريف المحيط بالمدينة فهو سهل يحمل إسم سهل يافا ، وكان ذا خصب وصفه المقدسى بأنه كان مضرب الأمثال .

وعندها أقامت الدولة الدخيلة مدينة تل أبيب .

٦ — أرسوف :

تقع أرسوف فى شمالى يافا على نحو ١٢ كيلو متر . وكانت رباطاً ذا تحصينات قوية ولم يذكر المقدسى غير ذلك ، غير أننا يجب أن نفترض وجود ما يوجد عادة فى الرباطات من التحصينات والأبراج .

٧ — قيصرية :

تعتبر قيصرية من مدن الساحل الفلسطينى التابع لجند فلسطين ، وهى رباط ومدينة لها سور قوى محصن ، وبجانبها أرباض ذات حيوية محاطة بأسوار خاصة للدفاع عن كل ربض ، ومع ذلك فإن المقدسى لم يذكرها ضمن الرباطات المتصلة بالرملة عاصمة فلسطين حربياً وإدارياً . ونحس أن الأمر يحتاج إلى تعليل .

والتعليل هو أن قيصرية بعيدة بعض الشيء عن القوس الدائري المحيط بالرملة لأن القوس عندها ينفرج ويتجه نحو الشمال ، وكذلك الأمر بالنسبة لغزة — مماس في جنوب القوس الساحلي . أما جميع الرباطات الأخرى الخمسة التابعة للدولة فإنها تقع على مسافات متساوية منها .

ثم إن المقدسي لايقصد إلى ذكر جميع رباطات الساحل ، وإنما يقصد فقط شيئاً دقيقاً ، وهو مركز الرملة والرباطات الخمسة التي تقع على مسافات متساوية منها على أساس أن الرملة ورباطاتها القريبة وحدة استراتيجية دفاعية قائمة بذاتها . وإذن فنحن أمام مجموعة معينة من الرباطات ، هي : عسقلان ، وأزدود ، ويبنى ، ويافا ، وأرسوف . وكلها تحيط بالرملة باعتبارها المركز الذي يقع على مسافة واحدة تقريباً من هذه الرباطات الخمسة .

كيفية الاتصال بين الرباطات والقاعدة الخلفية :

يقضي فن الحرب بضرورة الاتصال السريع بين نقط الدفاع ، وقد استطاع العرب منذ حروب الفتح أن يستغلوا عامل السرعة ، وأن يحرصوا على تبليغ كل إنذار بالخطر وبطلبات النجدة ، ولم يجدوا أسرع من سرعة الضوء وذلك باتخاذ أبراج عالية توقد فوقها النيران في حالة الإنذار وطلب النجدة . وهذا هو مايقرره البلاذري نقلا عمن شاهدوا الفتوح الأولى وعمن عاصروا التنظيم الأول للدفاع عن السواحل ، ثم ظلت هذه الطريقة مستعملة إلى القرن الرابع الهجري على الأقل بحسب رواية المقدسي .

حصنان بين الرملة وكل رباط ساحلي :

أما المسافة الواقعة بين الرملة ورباطاتها الساحلية الخمس فكانت مقسمة إلى أثلاث عند كل منها برج ، وقد أشرنا إليها في خريطتنا دون ذكر أسمائها لكيلا تطغى على الفكرة الأساسية .

أبراج المراقبـــة :

لابد لكل رباط من برج ، ويكون البرج عادة متصلا بحصن من الحصون ، ولانعتقد أن المآذن اتخذت لتحل محل الأبراج ، أو أنها استعملت للدفاع ، فاذا كانت الرباطات تمتد كما رأينا على مسافة ٥٠ كيلو متراً تقريباً ، فان متوسط المسافة

بين كل برج وآخر هى عشرة كيلو مترات . وقد يحتاج الأمر بحسب التضاريس المـانعة من الرؤية إلى إنشاء أبراج أخرى بين الرباطات ، ليسهل الاتصال بينها عند الضرورة .

التشكيل الاستراتيجى الدائرى :

يدل النظر إلى الخريطة على كيفية توزيع الأبراج على الساحل الفلسطينى فى هذه المنطقة ، كما يدل على أنصاف الأقطار الواصلة بين كل رباط وبين مركز الرملة ، ونقترح أن نسمى مثل هذا النظام بالنظام الاستراتيجى الدائرى .

ويدخل ضمن هذا النظام الطريق الساحلى الواصل بين الرباطات الساحلية المختلفة ، لـكى يستطيع بعضها أن يتعاون مع البعض الآخر .

هل كان مثل هذا النوع من الدفاع عاما فى الشام ؟

رأينا أننا أمام وحدة دفاعية قد يكون من الممكن أن تتـكرر على طول السواحل الشامية من غزة إلى انطاكية بحسب حدود الشام القديمة .

نحن نميل إلى تعميم القضية لأنه لايوجد قط مايبرر اعتبار نظام الرملة الدائرى برباطتها التابعة لها نظاماً استثنائياً ولـكن التعميم دون وجود نص واضح صريح إنما يرتفع إلى مستوى الترجيح فقط دون اليقين . وهنا مكان لمزيد من الدراسة .

وإذا رجعنا إلى أول نظام وضع للدفاع الساحلى وجدنا أن النظام الذى كان متبعاً أيام الراشدين جعل الساحل ولاية واحـــدة مستطيلة ممدودة من غزة إلى أنطاكية ، ويقوم بحمايتها والى من الولاة يعرف باسم « صاحب البحر » وهو الذى يقع على عاتقه كل الدفاع الساحلى ، ثم عدلوا عن هذا النظام الأول ، وأنشأوا نظاماً ثانياً هو تقسيم السواحل بحسب أجناد الشام ، وصارت السواحل مقسمة يتبع كل قسم منها الجند الذى يقع بازائه .

أما الأجناد بحسب التقسيم الحربى فى هذا العهد الأول فهى :

١ — فلسطين .   ٢ — الأردن .   ٣ — دمشق .
٤ — حمص .   ٥ — قنسرين .   ٦ — الجزيرة .

وصار الساحل عبارة عن وحدات استراتيجية متكررة ، والراجح عندنا أن نظام الدفاع الدائرى نظام تكرر بالنسبة لكل الأجناد الساحلية .

أين يقع جند الأردن :

ولنلاحظ أن جند الأردن لا يذكرنا بالمملكة الأردنية الحالية فى شىء ، بل كان عبارة عن المنطقة الواقعة شمالى فلسطين من الصحراء إلى البحر . ولا يوجد أدنى رابط بين التشكيلات السياسية الحاصرة المفروضة على المنطقة وبين التشكيلات الحربية السياسية القديمة .

المرابطون فى الثغور البحرية :

نقرر قبل كل شىء ، أن التجنيد الإجبارى أمر لم يطبق فى النظم الإسلامية القديمة ، بل كانت القبائل تدخل نفسها فى سلك الجندية وتكتسب بهذا الدخول منزلة إجتماعية مرموقة رخية الرزق ، ويكون رزقها بقدر عدد المقاتلين من أفرادها ، بحسب ما هو مقرر فى ديوان الجند المسمى أيضاً بديوان العطاء . ثم تتوارث القبائل إبناً عن أب سلك الفروسية . وأشهر مثل على توارث الفروسية هو مثل أسرة ابن خلدون الحضرمية ، فإنها توارثت الخدمة العسكرية من أيام معاوية بن أبى سفيان (فى القرن الأول الهجرى) إلى أيام جد ابن خلدون (أول القرن الثامن الهجرى) وهذه الطبقة العسكرية هى الجند الرسمى للدولة . أما من عداهم فإنه يستطيع أن يتطوع فى الجيش أداء لحق الجهاد ، وكان عدد هؤلاء المتطوعين يعد بالآلاف فى كل عام فى كل جبهة .

وكان عبء الرباط يقع أولا على الجند الرسمى . أما دور المتطوعين ، فإنه دور ثانوى وإن كانوا يساهمون فى الدفاع والهجوم مساهمة فعالة .

كان العرف الجارى منذ القرن الأول الهجرى ، يقضى بأن تخصص الدولة لكل رباط عدداً معيناً من المرابطين بقدر احتياجه . ومدى الاحتياج هو قدرة العدد المخصص للرباط على حماية الموقع بأنفسهم إلى أن يأتى المدد . ومثل هذه الرابطة هى الرابطة الدائمة المقيمة بالرباط صيفاً وشتاء .

أما فى الصيف فإن الدولة تحرص على أن تضيف إلى الرابطة الدائمة المذكورة آنفاً جنداً رسمياً من « جند الديوان » بأصنافهم المختلفة من : طوالع ، وبعوث ،

وندبة ، تدعيما لقوة الرباطات فى هذا الفصل الوحيد الصالح للملاحة والأعمال البحرية .

أما فى فصل الشتاء ، فانه فصل لاتقوم فيه الحروب إلا نادراً ، فلا تحتاج الرباطات فيه إلى تدعيم .

وثمة مدد آخر يدعم الدفاع الساحلى ، وهو مدد مؤلف من المتطوعين الذين يؤدون حق الجهاد تعبداً ، ومثال ذلك المقدسى نفسه ، فانه لم يكن جندياً بل كان تاجراً عالماً رحالة ، ولكنه شارك فى الجهاد أحياناً قاصدا التعبد ، فشارك فى الرباط وغزا مع الغزاة . ولم نزل إلى وقت قريب ندعو فى خطب الجمعة القديمة للغزاة الذين يحمون الحدود ويدافعون عن الدول الإسلامية . على أساس أن الغزو هو عملية دفاعية سواء كانت رباطاً أم هجوما ، لاعلى أساس النهب والتخريب .

الخـــلاصة :

١ — تبين هذه الدراسة تشكيل وحدة من وحدات الدفاع قائمة بوظيفة معينة بحسب وصف الجغرافى العربى المقدسى ، وقد اخترنا هذا الجغرافى بالذات لأنه كتب كتابه قبيل الحروب الصليبية ، وصور التنظيمات الحربية قبل دخول الصليبيين إلى الشام (بالمدلول القديم) .

٢ — يرجع أصل هذا النظام إلى القرن الأول ، وقد وصفته أنا ، فى كتاب وبحث ، فى هذا القرن معتمداً على البلاذرى خاصة ، ثم لم أحدد مدى استمراره إلى أن وقعت على المقدسى فعرفت أن النظام الدفاعى الساحلى المبتدع فى القرن الأول ظل باقياً ثلاثة قرون ونصف قرن إلى العهد الفاطمى وإلى غزو الفرنج الصليبيين للشام .

٣ — يدل بقاء هـذا النظام على أن فـكرة الجهاد ظلت قائمة ، وظلت تتدعم على مر العصور ، وكذلك تحـكمت فـكرة الجهاد فى اختيار الرملة عاصمة ، وفى إنشاء الطرق المؤدية إليها أوالخارجة منها . ثم تحـكمت أيضاً فى تركيز العمران فى كل قواعد الرباط لتـكون هذه القواعد أقوى على القيام بدورها الدفاعى .

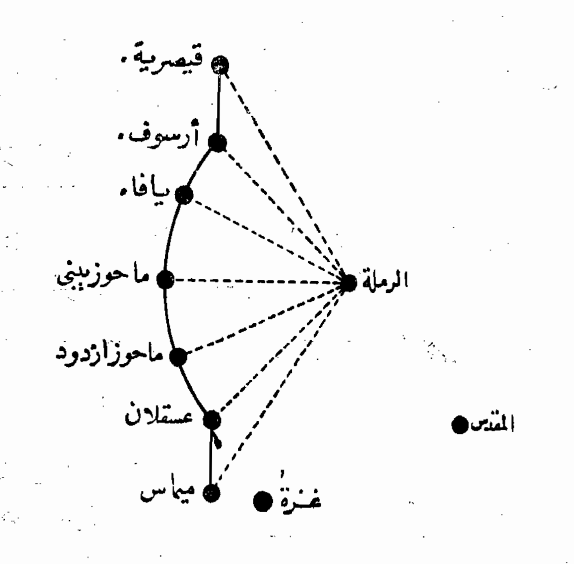
٤ — وفى ضوء هذه الدراسة ، نفهم أهمية انسحاب القائد الإنجليزى «جلوب» قائد الجيوش الأردنية من اللد والرملة فى حرب ١٩٤٨ ، مع أن هذه الدراسة تبين أن الرملة هى مفصلة لمروحة مكونة من سواحل فلسطين .

ولم يكن « جاوب » يجهل قيمة الرملة .

ومن واجبنا اليوم أن نقدر قيمة هذه المدينة ، وأن نرفع قيمتها الاستراتيجية على قيمة القدس من الناحية الحربية .

محمد عبد الهادي شعيره

خريطة كاريكاتورية لنظام الاستراتيجية الدائرية حول الرملة :



القلاع فى الحروب الصليبية

دكتور عبد الرحمن زكى

مقدمة

تناثرت الحصون والقلاع فى الشام بشكل يدعو إلى الدهشة ، منذ أيام الحروب الصليبية وما قبلها ، بين جزيرة « الجرية »[1] فى شمال خليج العقبة (بين مرفأى طابة والعقبة) وسلسلة جبال أمانوس فى شمال سورية . ومع أن بعض تلك الحصون قد شيد على بقايا قلاع الرومان والبيزنطيين والعرب قبل الغزو الصليبي بمئات السنين ، فإن ما بنى منها فى أثناء الحروب الطويلة فى جبهتى المسلمين والفرنج زاد على ما عرفته تلك البقاع من قبل ، سواء فى ضخامة العدد أو من ناحية الطراز المعمارى .

شيد المسلمون والصليبيون عشرات القلاع ، فهم لم يتركوا مضيقاً أو سفح جبل يشرف على واد أو نهير دون أن يبنوا قلعة ، تشرف على هذا أو ذاك . ولم يتركوا مدينة دون أن يشيدوا فى خارجها أو على الجبل الذى يشرف عليها حصناً منيعاً . لقد هيدوا كثيراً كما فعل الرومان من قبل فأحاطوا المدن بالأسوار والأبراج المنيعة ، وكثرت المعارك التى نشبت حولها أو فى داخلها ، وكم من المرات تبودلت بين الخصمين . وما تلك الحصون إلا شهود حق على النضال المرير الذى ساد أرض العروبة أجيالا طويلة .

بالقرب من منابع الأنهار : الأردن والليتانى والأورنت ، قاومت القلاع مهاجميها أو من حاولوا الاقتراب منها . كم من الأبراج الكبيرة أو الصغيرة التى شيدت فى السهول لأغراض المراقبة والحراسة ! كم من الكهوف التى نقرت فى صخور الجبال قاومت بعنف كل من حدثته نفسه بالإستيلاء عليها ! كما حدث فى حبيس جلدق[2] وتيرون النها[3] . لقد أفاد المهاجم والمدافع من طبيعة البلاد وتضاريسها ،

---

(١) هى الجزيرة المعروفة فى كتابات مؤرخى الحروب الصليبية باسم Ile de Graye (أو جزيرة فرعون) وتقع فى شمال خليج العقبه وتحتوى اليوم على أطلال حصن قديم .

(٢) تكتب أحياناً حبيس جلدق وهى القلعة الصليبية التى تعرف باسم بلفوار Belvoir أو شقيف أرنول وتقع بالقرب من بانياس .

(٣) يقع حصن تيرون إلى شمالى قلعه الشقيف على بعد بضعة أميال ، وتعرف اليوم بقلعة نمحا .

ولم يترك الصليبيون موطئاً قدم على الساحل الفينيقي القديم دون أن يختاروا بقعة تصلح لإقامة حصن أو برج للمراقبة والمقاومة . . حتى الجزر الصغيرة شيدوا عليها الحصون كما فعلوا فى إنفه (Infeh) جنوبى طرابلس على الشاطىء . وقد عاونتهم طبيعة الأرض على تنفيذ ما أرادوه .

كانت حماسة الصليبيين الدينية وآمالهم الطامحة فى امتلاك البلاد المقدسة ، الحافز الأول لهم فى بناء عدد يذكر من القلاع . . تلك التى مازالت إلى اليوم محطاً لدراسة رجال الآثار ، وكان أكثرها نماذج رائعة لأساليب العمارة الحربية التى اتسم بها ذلك العصر ، أى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

اتخذت بعض تلك القلاع ، طراز البناء الشرقية . . . شيد بعضها فى عصور الرومان ، وبعضها فى أيام البيزنطيين أو العرب ، وبعضها من طراز الغرب ، ولا سيما الطراز الفرنسى .

لقد غصت سورية وفلسطين وشرق نهر الأردن ، فى الصحراء الجرداء بعشرات القلاع ، التى اتسمت كلها بروح الإبتكار والإنسجام مع شكل أرض البلاد . ولقد استطاع المحاربون أن يؤلفوا من الحجارة تاريخاً للعمارة الحربية فى القرون الوسطى ، وتاريخاً حربياً أيضاً ! فهناك على ربوة تطل على عيون أدونيس ، شيدوا حصن المنيطرة (Le Moinestre) [1] على إرتفاع ستة آلاف قدم . ولذلك يعلو قمتها الثلج معظم أشهر السنة . تنهض فى جلال لتراقب ممراً فى وادى البقاع . وهى فى موقع عزيز المنال يصعب اقتحام جدرها .

وهناك فى طرطوسة على الساحل شيد الصليبيون فى داخل قلعتها كاتدرائية فى الأسلوب البرجندى . وإلى وراء اللاذقية نحو الداخل فى بقعة وعرة جداً ، عند قلعة صهيون نقروا ١٧٠٫٠٠٠ من أطنان الحجر الأصم ، ليزيدوا مناعة القلعة التى أقاموها على قمة الجبل . كما أنهم قد أنشأوا فى قلعة المرقب مخازن فسيحة تسع عتاد ألف رجل يقاسون ظروف الحصار العنيف الذى امتد حوالى خمس سنوات .

---

(١) أعاد الصليبيون بناءها بالقرب من أفقاً وقد شيدت لحراسة المعبر الجبلى الذى يربط بين جبيل وبعلبك ، كانت حصناً عربياً غير أن طغتجين تنازل عنه للفرنجة عام ١١٠٩ .

إنك إذا قمت بجولة لزيارة تلك الحصون التاريخية من شمال سورية إلى أقصى النقب جنوباً ، ومن الشرق عند الفرات إلى ساحل البحر الأبيض لأدركت فى الحال ذلك الدور الهام الذى قامت به تلك القلاع ، فى تلك البقعة بأسرها على مدى التاريخ والتى نشبت على أرضها أعنف المعارك بين الشرق والغرب .

لماذا شيدت الحصون ؟

ذلك العدد الكبير من القلاع الذى مازال ناهضاً إلى اليوم فى بلاد العروبة يجعلنا نتساءل : لماذا شيد البيزنطيون والعرب والصليبيون هذا العدد الكبير من تلك الحصون ؟ أليس عملهم هذا مبالغة وإسرافاً فى خطة إقامة الحصون وحشد الرجال فيها .

ربما كان من محض الصدف أن جاءت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ م) إلى سورية فى الوقت الذى بدأ فيه بناء الحصون يزهر فى أوروبا ، ذلك العصر الذى أطلق عليه عصر القلاع[١] . صادف هذا عصر الإقطاع الذى اتسم ببناء الحصون ، فكان لكل إقطاعى قلعته يحمى نفسه فيها ومعه أتباعه وعتاده .

ولم تكن الحرب الصليبية إلا صورة متقدمة للاقطاع الأوربى فى الشرق الوسيط . وقد يمكن إيضاح ذلك الموقف فى صورة بينة ، إذا أدركنا وضع المملكة اللاتينية فى الشرق .

عبرت جيوش الحملة الصليبية الأولى جبال طوروس متجهة إلى سورية فى عام ١٠٩٧ م ، وغادرت آخر العملات الأرض المقدسة فى أغسطس عام ١٢٩١ م أى بعد سقوط عكا بنحو ثلاثة أشهر[٢] . وكانت المملكة اللاتينية التى عمل الصليبيون كل مافى وسعهم للحفاظ عليها بنجاح متفاوت قرابة مائتى عام ذات شكل شاذ . فقد كان طبيعة موقع دولتهم مكشوفاً تجعلهم معرضين للهجوم عليها . وكانت أراضيهم الممتدة من الجنوب إلى الشمال تضم مملكة بيت المقدس ، وإمارة طرابلس وإمارة

---

(١) شيد برج لندن فى إنجلترا فى عام ١٠٨٧ م ، وأضيفت إليه مبان كثيرة وهو من أهم معالم لندن حتى اليوم .

(٢) قاومت جزيرة أرواد الحصينة التى تقع أمام طرطوسة إلى عام ١٣٠٣ م .

أنطاكية وكونتية الرها التى استقرت فى حدود خمسين سنة يبلغ امتدادها من أربعمائة إلى خمسمائة من الأميال تقريباً . وإذا استثنينا البقعة الشمالية منها لوجدناها أرضاً ضيقة خطيرة يتراوح عرضها بين الخمسين والسبعين من الأميال ، فقد كان امتداده إمارة طرابلس عرضاً مثلا لا يتجاوز ٢٥ ميلا فقط ، وعلى الجانب الصحراوى والطويل لتلك الدولة الساحلية بقيت المدينتان الإسلاميتان والقويتان ، حلب ودمشق تناهضان تلك الدولة الدخيلة ، ولم يستطع الصليبيون مطلقاً الاستيلاء عليهما ، فكانتا طوال مدة الغزو الصليبي بمثابة سيف مصلت عليها باستمرار كشوكة فى جانبها . بل وأكثر من ذلك كانا قاعدتين هامتين ، كان المسلمون يوجهون منها هجماتهم العنيفة المتكررة كلما رغبوا وكلما سمحت ظروفهم الحربية .

ولاشك أن الموقف الحربى العام كان يتغير تماماً لو أن الصليبيين — بدلا من اندفاعهم فى اتجاه الساحل وإلى الجنوب نحو بيت المقدس والاستيلاء عليه — كانوا اتجهوا نحو الشرق واستولوا على حلب ، ثم دمشق مفتاح سورية فى ذلك الحين . ولكن ضاعت الفرصة منهم ، وكان من المحقق فى النهاية أن يخسر الفرنج البلاد المقدسة كلها . فمن المحتمل إذا كانوا استولوا على حلب ودمشق لاطمأن الصليبيون إلى بقاء دولتهم . فان الصحراء تكون حداً منيعاً يفصل دولتهم عن هجمات المسلمين من الشرق . بيد أن ذلك لم يكن شيئاً يسيراً . فان هناك مايقرب من ثلاثمائة ميل فى الصحراء القاحلة التى حرمتها الطبيعة من الماء ، لايستطيع جيش فى العصر الوسيط أن يقوم فيها بعمليات القتال بنجاح إلا إذا أنجز خطته بسرعة .

وفضلا عن ذلك كان وجود الصليبيين يهدف إلى تجزئة الدول الإسلامية ، وفصل بعضها عن بعض ، لكى لاتستطيع التعاون فى إطار من الوحدة . لذلك لم تتعاون القاهرة ، أو توحد خطتها مع بغداد فى سبيل القضاء على دولة الفرنج ، إذ ليست هناك طرق مواصلات جديدة وقصيرة تيسر لهما ذلك التعاون ، فضلا عن الاختلاف المذهبى فى البلدين حينذاك .

وأدرك الصليبيون خطأ خطتهم ، ولكن جاء ذلك متأخراً جداً وضاعت عبثاً جهودهم حينما فشلوا مراراً فى الاستيلاء على دمشق . وعلى ذلك كان يواجه الصليبيين باستمرار عدو قوى بجنوده السريعة الحركة ، عدو يسدد ضرباته فى أى وقت

شاء ضد الجانب المهدد من ناحية تلك المعاقل الحصينة ، ولذلك كان من الضرورى أن يلجأ الصليبيون إلى سياسة بناء تلك السلسلة المنظمة من الحصون المنيعة .

وكان ثمة سبب حيوى آخر اضطر الصليبيون من أجله إلى بناء الحصون والقلاع ، وهو حاجتهم الملحة إلى المزيد من المحاربين . وقد فطنوا إلى تلك الحاجة عند ما أرادوا تعديل خطتهم للاستيلاء على خط حلب — دمشق والاندفاع إلى قلب البلاد الإسلامية . والمعروف أن الجيش الصليبي الذى خرج من نيقية فى عام ١٠٩٧ كان عرمرماً إذا نظرنا إليه بمقياس الجيوش المعاصرة إذ ذاك . ولكن معركة « دوريليوم »(١) وقسوة الطبيعة فى الأناضول أثناء الصيف كبدت الصليبيين خسائر كبيرة ، فنقص تعداد قواتهم . وعلاوة على ذلك فإن قواتهم التى حاصرت أنطاكية قدرت بحوالى الخمسين ألفاً ، يضاف إلى هـذا أنه فى الوقت الذى كادت فيه الحملة تحقق أهدافها بدأ قادتها الواحد بعد الآخر ينسلخ عن الحملة برجاله ، وكان كل منهم يهدف إلى إنشاء إقطاعيات جديدة فى الدولة التى كسبوها . فمثلا استقر بلدوين (فلاندرز) فى الشمال الشرقى إلى الرها . وفضل بوهيموند ورجاله من أهل جزيرة صقلية البقاء فى منطقة أنطاكية ، فلم يصل من القوات الصليبية جميعها إلى بيت المقدس (عام ١٠٩٩ م) سوى ١٥٠٠ فارس وقرابة ١٥٠٠٠ مشاة ، ثم أنه بعد سقوط القدس تحقق الهدف الأول من الحملة الصليبية عاد معظم الفرنج وأتباعهم إلى أوروبا ، بينما بقى « جودفرى دى بيون » لإدارة مملكة بيت المقدس ومعه ثلاثمائة من الفرسان . وليس يخاف أنه قد يستطيع عدد من الفرسان القلائل على كسب المعارك لكنهم لا يستطيعون بعد ذلك الحفاظ على دولتهم . ولذلك كانت حاجة الصليبيين إلى الإمداد بالرجال ملحة باستمرار فى أوروبا . ولم يكن هذا الإمداد دائماً كافياً لأنه كان صغير العدد ومحدوداً .

صحيح أن الحملة الصليبية الأولى كانت ضخمة العدد ، ولربما كان فى استطاعتها أن تغير مجرى تاريخ الدولة اللاتينية ، لولا ما صادفها من المحن فى آسيا الصغرى فى عام ١١٠١ ، ثم جاءت فى أعقابها الحملة الصليبية الثانية ــ التى قدر عدد رجالها

---

(١) نشبت هذه المعركة بالقرب من المدينة المعروفة بهذا الاسم بين السلاجقة والصليبيين وذلك فى عام ١٠٩٧ وهزم فيها السلاجقة .

بحوالى ١٥,٠٠٠ من المحاربين . وفى ذات الوقت اتسعت رقعة البلاد المحتلة ، وتناقص عدد رجال الحاميات « نسبياً » ... ولذلك أمام هذا النقص الشديد فى الرجال عالج الصليبيون الموقف الحربى بالالتجاء إلى بناء الدفاعات الحصينة الاستعاضة بها عن جنود الحاميات . ولا يخفى أن الجنب الأيسر للصليبيين كان معرضاً دائماً لهجمات المسلمين الفاجئة .

لذلك لم يكن هناك سوى علاج واحد لملافاة المتاعب .. ألا وهو مضاعفة الجهود لبناء القلاع والحصون كما ذكرنا .

ولكى يحتفظ الصليبيون بمواطىء أقدامهم على شاطىء لبنان ، كان عليهم أن يحتفظوا بسيادتهم على البحر لكى يبقوا على الصلات التى تربطهم بمواطنيهم فى الغرب ، ولكى يحظوا بعطفهم فيواصلون إمدادهم بالرجال . فلقد أحس الصليبيون أنهم يستطيعون الحفاظ بممتلكاتهم إذا استمر سيل المساعدات بالعتاد والرجال يأتيهم من أوروبا ، وإذا ظل أعداؤهم متفرقى الكلمة لا يوحدهم زعيم قوى . فكان عليهم إقامة التحصينات الساحلية . لكى يؤمنوا العمليات البحرية . ولذا فإنهم أقاموا عند مداخل الموانىء البحرية فى عكة وصور وصيداً ، وجبيل ومدن بحرية أخرى أبراجاً عند الحاجز الذى يقاوم الموج ، أو على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانىء . فشيدوا سلسلة من الأبراج التى كانوا يستخدمونها للمراقبة على طول الشاطىء اللبنانى لكى يؤمنوا الاتصال بينها . وقد بقى من هذه الأبراج إلى يومنا هذا تسعة أبرزها برج جبيل القائم على هضبة جنوبى شرق البلدة . وجميع هذه الأبراج تقوم على مواقع أبراج أو قلاع قديمة . ومواد البناء التى بنيت بها كانت أنقاض تلك الأبراج . وكذلك شيد الصليبيون قلاعاً تحيط بالموانىء من جهة البر .

أمافى طرابلس وصور وعسقلان حيث كانت المقاومة عنيفة شديدة وطويلة الأمد، فإن الصليبيون بدأوا ببناء قلاع كهذه فى زمن مبكر . وكانت هذه القلاع التى بنوها من العوامل التى عجلت فى إخضاع المدن والاستيلاء عليها . وبقايا قلاع الصليبيين فى جبيل هى أول ما يسترعى انتباه السائح فى تلك المدينة(١) وجميع هذه القلاع

---

(١) Max Van Berchem and Edmond Fatio : Voyage en Syrie, vol. 1, Paris, 1914, pp. 108-10.

والحصون الصليبية فى لبنان يعود زمن بنائها إلى القرن الثانى عشر ، وبعضها إلى القرن الثالث عشر(١) .

أما قلعة البحر فى صيدا ، فإنها شيدت على جزيرة صغيرة عام ١٢٢٧/٢٨ م ، وكان يربطها بالمدينة جسر طوله ٨٥ ياردة لا يزال قسم منه قائماً إلى يومنا .

ولما أخذ الملك لويس التاسع يرمم حصونها وقلاعها استعمل مواد البناء ذاتها التى كان الرومان والفينيقيون قد استعملوها فى بناء تحصينات المدينة . وفى الواقع أن أكثر الحصون والقلاع اللبنانية التى أقامها الصليبيون لم تكن سوى إصلاح أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها ، إما البيزنطيون أو الرومان أو ربما الفينيقيون أنفسهم . وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعادوا بناءها فى عصر تال .

ذلك أن مواقعها الإستراتيجية الممتازة يجب أن تكون قد استرعت انتباه العسكريين قبل وصول الصليبيين بأزمنة كثيرة . فإن الإدريسى الرحالة والجغرافى المغربى (ت ١١٦٦) لمازار هذه البلاد قبل الفترة التى نحن بصددها ذكر ثلاث قلاع بين صيدا وبيروت وستة عشرة قلعة بين بيروت واللاذقية (٢) .

مراحل بناء القلاع الصليبية

تجلى أمام الفرنج الذين استقروا فى البلاد عقب سقوط القدس حقيقة واضحة هامة . فإنه بالرغم عن استطاعتهم إنشاء مملكة لاتينية ، كان لزاماً عليهم أن يحافظوا عليها . ومن ثم بدأت سياسة الإنشاء والبناء بنشاط على أيام حكم الملك بلدوين الأول (١١٠٠ — ١١١٧) ، تلك السياسة التى استمرت نحو مائتى سنة .

المرحلة الأولى :

كان حصن صافيتا — الحصن الأبيض(٣) أول المعاقل التى شيدها الصليبيون

---

(١) فليب حتى : لبنان فى التاريخ س ٣٥٦ — ٣٥٨ .

(٢) الإدريسى : طبعة جلد ميستر ، ص ١٦ — ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) Safet-Chastel Blanc

(١١٠٢ م .) ، ولذلك لأجل السيطرة على مخاضة نهر الأردن فى أقصى الشمال من سورية[١] ثم شيدوا قلعة تورون (Toron) عام ١١٠٧م . التى تشرف على الطريق الموصلة بين صور على الساحل ودمشق . ثم قلعة الشقيف[٢] أقوى الحصون السبعة التى شيدت لحراسة حركة الحج بين يافا وبيت القدس . وقلعة الحبيس جلدق ذلك المعقل الكهف لمراقبة نهر اليرموك . وقلعة الشوبك[٣] التى شيدت حول عام ١١١٥ جنوب البحر الميت لتهديد المواصلات الصحراوية بين مصر ودمشق . وقلعة سكاناليون (١١١٦ م) جنوب صور على الساحل. وأخيراً قلعة الجريه[٤] التى تشرف على شمال خليج العقبة فى البحر الأحمر .

وفى أوائل القرن الثانى عشر احتل الصليبيون قلعة صهيون — البيزنطية الأصل — فى جبل العلويين ، وكانت تستر المداخل الجنوبية الشرقية المؤدية إلى أنطاكية وجعلوا منها قلعة منيعة لما أضافوه إليها من الأبراج والأسوار والخنادق .

ولقد كانت قلاع الصليبيين فى هذا الطور (أوائل القرن الثانى عشر) صغيرة البناء كقلعة بلفور[٥] .

كان أهم مايميز طابع القلاع فى تلك المرحلة ، استخدام الحصن النورمانى المربع ، وبناء سور بسيط تدعمه الأبراج المربعة الموزعة على مسافات طويلة نسبياً وذات نتوءات واضحة . وفى هذه المرحلة أيضاً يمكن القول بأن الصليبيين استفادوا بما وجدوه فى البلاد من القلاع البيزنطية[٦] علاوة على ما نقلوه معهم من الغرب من

---

(١) يوجد قول آخر بأن أول قلعة يمكن تأريخها هى قلعة الكونت ريمون التى أقاموها على جبل الحاج عام ١١٠٤م ، لكى تكون مقراً لرئاسة جيشه ، وذلك أثناء انهماكه فى حصار طرابلس ، ومن المحتمل أن تكون قلاع أمراء الجليل فى طبرية وتورون قد شيدت فى نفس العصر .

(٢) Chastel Arnoul

(٣) Montreal

(٤) Ile de Graye

(٥) Belvoir

(٦) كانت الأسوار وأبراج السورمن أهم ماتميزت به القلاع البيزنطية والتى اقتبسها الفرنج فى حصونهم .

أساليب البناء الحربية . وكما رأينا فقد واكب وصول الصليبيين إلى فلسطين العصر الذى رأى فيه العرب الأبراج الأولى (Keeps) ، ولذلك فقد عرف الفرنج الاستفادة باستخدام الحصن النورمانى المربع إلى أبعد حد ، وليس هناك أدنى شك فى أن الصليبيين تأثروا بتقليد حصون البيزنطيين الذين كانوا أحياناً يشيدون فى قلاعهم (كما كان الحال فى نيقية ودارا) برجاً واحداً يمتاز بضخامته ومنعته عن الأبراج الأخرى . . وقد عاين الفرنج عدداً كافياً من القلاع فى بلادهم .

وتلك الأبراج القوية التى بدأ الصليبيون يشيدونها فى صافيتا[1] وكرك مؤاب وصهيون وجبله وعكار وفى أماكن أخرى ، كانت تتألف غالباً من طابقين وشرفة (terrace) تعتبر من المتانة التى لم يسبقها مثيل فى العمارة العسكرية إلى القرن السابع عشر . فقد كانوا يشيدون تلك الحصون فى بادىء الأمر فى أسهل مكان دفاعى فى القلعة ، ولكنهم بعد التجربة وجدوا أن خير مكان يشيدن فيه هذا البرج هو المكان الذى يتطلب الدفاع فيه أقوى أعمال التحصين . وبناء على هذا الاعتبار وضعت أبراج مربعة منيعة فى أقوى أعمال الدفاع فى المملكة اللاتينية — وهى حصون صهيون (Saone) والصبيبة والمبانى القوية التى شيدت فيما بعد فى الكرك والمرقب والبرجان الكبيران فى قلعة الحاج فى أنسب الأماكن فى القلاع — أى أشد المناطق خطراً فى القلعة .

والبرج المربع يعتبر أهم السمات البارزة فى الصليبية الأولى ، وبالرغم عما يمتاز به من المتانة فله مساوىء خطيرة . وقد وضحت تلك العيوب فى حروب الحصار المتعاقبة فى الأرض المقدسة ، كان فى أول الأمر سلاحاً إيجابياً ، ولم يكن مبناه يسمح إلا لحامية محدودة العدد . ولم يكن باب البرج الوحيد (لأجل أسباب الأمن والوقاية) يسمح للحامية بالانسحاب عندما تضطر الأحوال . ولقد قيل إن البرج يستطيع الدفاع عنه جندى واحد . وقد أشار ذلك لورنس[2] فقال إن إثنين فقط يستطيعان محاصرة البرج بنجاح . وذلك إذا وقف جندى واحد عند كل ناحية من ناحيتى الباب لمنع إنطلاق الجنود من الداخل . كما أن هناك مساوىء فنية أخرى تلازم كلا من البرج

---

(١) Chastel Blanc

(٢) المغامر البريطانى الذى اشتهر بأعماله فى شبه الجزيرة العربية خلال الحرب العالمية الأولى.

المربع وبرج السور المربع فهما معرضان من زواياها (أركانها) للغم . فضلا عن أن شكلهما لا يسمحان لوقايتهما التامة بواسطة النيران الحاكمة .

وقد دعا الضعف المتوارث للحصن النورمانى والبرج المربع فى السور ، فى أواخر القرن الثانى عشر إلى التخلى جزئياً عن الشكل المتبع وإلى إحداث تغييرات هامة فى عمارة القلاع الصليبية ستتضح جلية فى المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

وفى خلال حكم الملك بلدوين الثانى (١١١٨م — ١١٣١م) تم الإستيلاء على بانياس وتحصين قلعة الصليبية فوق جبل الشيخ (Hermon) الذى تكسيه الثلوج فى الشتاء ، وذلك لغلق الطريق بين دمشق وأعالى نهر الأردن . ثم نشطت حركة البناء والتعمير بصورة واضحة على أيام فولك أوف أنجو (١١٣١ — ١١٤٤م) ففيما بين ١١٣٧و١١٤٢ شيدت حلقة قوية من القلاع فى الجنوب الغربى من عسقلان تضم قلعة الحارس الأبيض [١] (تل الصفى) وابلين [٢] وبيت جبلين . والمعروف أن عسقلان هذه كانت آخر المرافىء التى بقيت فى قبضة المسلمين . وكان غرض « فولك » من تشييد تلك الحصون قفل الطريق من مصر إلى فلسطين .

وفى عام ١١٣٩ بدأ الفرنج يشيدون قلعة بوفورت [٣] (شقيف أرنول) المنيعة على أحد الجبال المشرفة على نهر الليتانى وذلك ليتحكموا على أحد مخانقه الضيقة ، وبعد أربع سنوات شيد الصليبيون كرك مؤاب فيما بين ١١٤٠ — ١١٤٣ شرق البحر الميت وهى تمتاز بموقعها المسكرى وتعد نموذجاً طيباً فى أسلوب التحصين ، وقد شيدها باين النابلسى رئيس سقاة الملك فولك . وفى تلك السنين تسلم فرسان طائفة الإسبتارية حصن الفرسان (الأكراد) من الملك [٤] .

---

(١) Blanche Garde

(٢) شيد رجال الاسبتارية قلعة ابلين (يبنا) عام ١١٤١م .

(٣) تبعد بوفورت (بلفورت) نحو ٢٤ ميلا من بيروت ، انتزعها السلطان الظاهر بيبرس من الصليبيين فى ١٠ أبريل ١٢٦٨ (Beufort) .

(Crak des Chevaliers

وينسب إلى قلاع هذه المرحلة قلعة بلفوار[١] وتعرف باسم كوكب الهواء ، شيدها فولك عام ١١٤٠ فى السنة التى شيدت فيه قلعة صفد فى الجليل العلوى ، وقد بنيت على الأسلوب البيزنطى ، ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريباً ، وتدعمه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال كان يؤلف فى الواقع قلب الدفاع ، وقد جمع أسلوب البناء بين المتانة والمنعة .

ويعتبر انتقال واجب الدفاع عن حصن الأكراد (الفرسان) إلى طائفة الاسبتارية حدثاً هاماً وذلك من ناحية الترتيبات الدفاعية فى مملكة اللاتين وذلك فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر . ذلك لأن تصميم هندسة الحصون وبناءها كان قد بلغ مستوى رفيعاً من ناحية الضخامة ، بحيث لا يستطيع السيد الإقطاعى مهما كان غنياً أن يتكبد الإنفاق على البناء المطلوب . ولذلك انتقلت تدريجياً شئون الدفاع عن الأرض المقدسة إلى الطوائف العسكرية القادرة . ومن ثم وقع على عاتق الاسبتارية بناء حصن إبلين فى عام ١١٤١ م ، ثم عسقلان بعد الاستيلاء عليها عام ١١٥٣ م . وقلعة بلفوار التى تحكم أعالى نهر الأردن قبل عام ١١٦٨ ، وقلعة عكار فى لبنان الشمالى فى عام ١١٧٠ م ، وقلعة المرقب التى بين طرابلس واللاذقية فى عام ١١٨٦ م .

ولم يكن بناء قلعة المرقب الاسبتارية قد تم عندما انتهت معركة حطين فى عام ١١٨٧ ، ومن ثم حشدت جميع القوات التى أمكن الحصول عليها لمقابلة جيوش صلاح الدين عند طبرية ، وكانت نتيجة تلك الأعمال الحربية المتعاقبة أن نقص عدد رجال الحاميات فى القلاع .

وهكذا نرى أنه كان من عواقب نقص عدد الرجال فى القلاع ، أن ازداد عبء الدفاع أمام هجمات المقاتلين المسلمين ، ولدينا الكثير من أحداث الحصار الرائعة فى قلاع الكرك بمؤاب والشوبك (مونتريال) وبوفور وصافيتا ، فقد استطاع رجالها مقاومة الحصار أكثر من عام ضد قوات تفوقهم عدداً وعدة .

ونلاحظ أن أكثر القلاع التى استولى عليها صلاح الدين ومنها كرك مؤاب ،

---

(١) Belvoir

لم يستردها الصليبيون مرة ثانية . ولكن عندما جاءت الحملة الصليبية الثالثة بامداد من الرجال (١١٨٩) عاد الأمل إلى اللاتين ، ونشطت حركة بناء القلاع ثانية .

أنه قبل حوالى ١١٧٠ م لم يشيد الفرنج أية أبراج مستديرة كبيرة . وبعد معركة حطين (١١٨٧) وباستثناء قليل ، كانت أهم حصونهم الكبرى تعتمد على الأبراج المستديرة ذات النتوء أو البروز الكبير — تلك الأبراج المستديرة التى تسمح بكمية كبيرة من النيران الجانبية . وفى الوقت الذى حافظ فيه الصليبيون على طراز البرج القديم بدأوا يتخذون الطراز المعمارى المستدير ، ومن ثم أخذ هذا يتطور إلى حصن متين يضم عدة أبراج متصلة ببعضها ، وسمح هذا الشكل ـ التطور الجديد ـ إلى زيادة سرعة حركة الجنود ومضاعفة نشاط هجومهم ، وقد أدى هذا التطور فى الأسلوب البنائى إلى ظهور الحصن ذى الأسوار المتكررة المشتركة المركز وهو المعروف concentric fortification .

وأصل هذا الأسلوب فى القلاع الصليبية التى لها نطاق مزدوج من الأسوار غير محقق ، وصحيح أن الإمبراطورية الشرقية قد استخدمت هذا النوع من الاستحكامات ذات الحصون المتداخلة فى بزنطيوم وغيرها ، كما استخدمها الخليفة المنصور عند بناء الأسوار المستديرة فى تشييد بغداد فى القرن الثامن ، وفى انجلترا على أيام الرومان والسكسون عرفت بعض الاستحكامات الترابية من هـــذا النوع (concentric earthworks) ، وما زالت مخلفات هذه الاستحكامات تشاهد إلى اليوم فوق الكثبان الرملية الإنجليزية .

ومن الممكن أيضاً أن تكون القلعة ذات الحصون المتداخلة قد تطورت من البرج الذى على شكل المحار (Shell-keep) ، وهو عبارة عن قلعة وحصن (Keep-fortress) شيد وسط فناء ، وقد أثبت هذا التخطيط فى أوروبا أنه أحسن ما يستعاض به عن الحصن النورمانى المحدود المهمة ، ومن الحصن الذى على شكل المحار جاء سور الستارة الذى ضم مساحة أكبر عرفت باسم بيلى (Bailey) .

وعلى أية حال فمهما اختلفت الآراء فى منشأ هذا الطراز المعمارى : أهو شرقى أو غربى فانه ازدهر على أيام الصليبيين ازدهاراً مدهشاً واضحاً . نراه أمامنا إلى

اليوم ظاهراً جداً فى قلعتى المرقب وحصن الأكراد ، وهو عنوان الفخامة والجمال فى وقت واحد .

وقد واكبت هذه الثورة فى التخطيط عدة تغييرات فى طريقة البناء : منها استخدام الحجارة المنحوتة التى لا يتيسر بسلالم الحصار التغلب عليها لأنها لا تمسك بها ، وتطورت طريقة عمل المزاغل (فتحات السهام) وصارت تتجه منحنية إلى الأسفل ، وبذلك تيسر الرمى إلى أسفل القلعة . ولم يقتصر عمل تلك الفتحات على الشرفة العليا أو الطوابق المرتفعة فى الحصن ، بل عممت أيضاً فى الطوابق المنخفضة إلى مستوى الأرض . وتطور أيضاً عمل الشربيات الحجرية (Machicolation) وذلك ببنائها من الحجارة بدلاً من الخشب كما كان الحال فى أوروبا ، وذلك لندرة الأخشاب فى سورية . كما طرأ على مداخل القلاع وأبوابها أساليب خداعة لتضليل المهاجمين ، ولنضرب لذلك مثلا : فالمحاصرون إذا أرادوا اقتحام مدخل حصن الأكراد .. كان عليهم أن يجتازوا ممراً مقبي ويديرون ثلاث مرات وربما قابلهم بعد ذلك باباً شبكياً من الحديد يمنعهم عن اقتحام البوابة الكبرى .. وعليهم بعد ذلك أن يعملوا جادين لاجتياز أربعة أبواب أخرى أقيمت فوقها الشربيات الحجرية . ولأجل تيسير التحرك والعمل لرجال الحامية ، فقد لجأوا إلى استخدام عدد من الأبواب السريه والخلفية (Postern gates) . وكانت تلك الأبواب يخفى أمرها فى بعض الأحيان كما كان البيزنطيون فى الغالب يخفون أبواب قلاعهم ، ودلك فى المكان الذى تأخد فيه ستارة السور فى الانثناء بشكل زاوية قائمة ، وكانوا يختارون مواضعها بحيث أن جماعة الجند المهاجمة عندما تتخذ طريقها نحو الباب السرى تعرض يسرتها أو أجناب دروعها للعدو .

المرحلة الثالثة :

وبعد انكماش مساحه الأراضى الصليبية فى القرن الثالث عشر نتيجة لاستيلاء المسلمين على أراضى الأفرنج ، لم يشيد هؤلاء إلا القليل من القلاع الجديدة باستثناء قلعة مونتفرت[1] أو القرين (١١٢٧ — ١١٢٩ م) والتى شيدت فى موقع جذب

(١) Monsfortis

ومنيع يشغلها مقر رئاسة الفرسان التيتون(١) علاوة على أعمال التحصين الهامة التى شرع فى إقامتها بعد عام ١٢٤٠ م فى صافيتا شمال طبرية ، وفى قلعة بوفورت التى كان الأفرنج قد شيدوها من قبل ، ثم استولى عليها المسلمون واستعادها الصليبيون بعد ذلك . وانتقلت العناية إلى تحصين قلاع الساحل، ذلك لأن المرافىء يستطيع المسلمون مهاجمتها ، ومنها يتمكن الفرنج مراقبة البحر ، وييسر كل هذا للفرنج التمسك بالسهول الضيقة المطلة على البحر ، ولذلك رأينا الملك ريتشارد يعيد تحصين يافا قبل رجوعه إلى وطنه فى عام ١١٩٣ م ، ثم شيدت قلعـة صور حوالى عام ١٢١٠ م ، وشيدت قلعة الحاج هى حصن الداوية المنيع عام ١٢١٨ ، كما بنيت قلعة الجزيرة فى صيدا عام ١٢٢٨ . وقد نشطت على أيام الملك لويس (سنت لوى) حركة تحصين واسعة فى المرافىء على طول امتداد الساحل ، وعلى أية حال فقد استمر البناؤون الفرنج يشيدون ويعمرون حتى الساعة الأخيرة ، ساعة فراقهم سورية .

هكذا رأينا فى عرض عام حصون المملـكة اللاتينية تزيد حصناً بعد حصن ، عقب سقوط بيت المقدس فى قبضتهم حتى انتهاء دولتهم وسقوط عكاء فى يدى المسلمين (١٢٩١ م) .

ويمكن تقسيم تلك القلاع حسب الأهمية العسكرية (الوضع الحربى) وربما من الناحية الجغرافية أيضاً إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — حصون لتأمين طريق الحج المؤدى إلى بيت المقدس من يافا أو عسقلان :

كان الغرض الظاهر من الحملة الصليبية الأولى هو تحرير الأماكن المقدسة من السلاجقة . فلما أحرز هذا الهدف عكف الصليبيون على تأمين حركة الحج من الساحل إلى كنيسة القيامة . ولأجل هذا أنشأوا سبعة معاقل رئيسية بين يافا وهى المحطة الأولى لإنزال رجالهم الذاهبين إلى القدس ، وفى عام ١١١٨ م أناطوا برجال طائفة الداوية واجب حراسة الطريق المذكور . وكان أهم تلك المعاقل شقيف أرنول(٢) . أما المعاقل الأخرى فى هـــذه المجموعة فلم تــكن على شىء كبير من الضخامة .

---

(١) تعرف أيضاً باسم قلعة ستاركنبورج Starkenburg

(٢) Chastel Arnoul أو بلفورت ، ويعرف عند العرب بقلعة الشقيف .

٣ — تحصين المدن الساحلية :

أول المدن الساحلية من الشمال هي أنطاكية . وكانت حصونها البيزنطية منيعة ، ولم يزد عليها الصليبيون شيئاً يذكر . ثم وجه هؤلاء عنايتهم لتحصين معظم المدن الساحلية الممتدة بين عسقلان فى الجنوب إلى ساحل آسيا الصغرى فى الشمال . وقد وجد الصليبيون فى معظم تلك المرافىء والمدن حصوناً بيزنطية وأسواراً عربية كانت أقيمت قبل وصولهم إلى سورية (ماعدا يافا) ، وعلى ذلك كانت أعمال الصليبيين عبارة عن إمتداد أو توسع أو تحسين لحسب . وقد اجتنبوا إقامة القلعة فى قلب المدينة كما كان يفعل العرب ، وهؤلاء أسوة بالرومان . وبدلا عن ذلك كانوا يشيدونها فى ركن من أركان المدينة أو بعيداً عنها مع إشرافها على الأرض المكشوفة ولذلك استقلت القلعة من ناحية تأديتها الواجب الدفاعى عن المدينة . ولا يخفى أنه كان للمدينة أسوارها وأبراجها الخاصة . فإذا سقطت المدينة فى قبضة العدو استطاع رجال القلعة القيام بواجب الدفاع كوحدة مستقلة ، وفى الوقت نفسه تستطيع أن تستمد العون والمدد والنجدة من البلاد المجاورة ، ومن أمثال تلك القلاع :

حصون طرطوسة وجبلة وبيروت وقلعة البحر فى صيداء[١]، وقلعة صور (والتى كان يمكن عزلها بغمر خندقها بمياه البحر) كانت تتمتع باستقلال مماثل ، لأنه عندما تسقط المدينة (أى صور) فى قبضة العدو كانت تستطيع القلعة الإتصال بواسطة البحر .

ولم يبق معظم أعمال تحصين المرافىء التى أقامتها الدولة اللاتينية لأسباب كثيرة . لقد مر عليها الكثير من أحداث القتال ، وكثيراً ماتبادلتها القوات المتحاربة منذ القرن الثالث عشر ، علاوة على ما قامت به معاول الهدم والتخريب ، ولم يبق اليوم من منشئات اللاتين الحربية فى صور أو أسوار يافا (ذات الـ ٢٤ برج) التى هدمها السلطان بيبرس ، أو بيروت التى اشتهرت قلعتها بفسيفسائها وقاعاتها الرخامية . تلك أثارت دهشة ويلبراند فى القرن الثالث عشر[٢]. ولم يبق شىء هام فى قلعة طرابلس ، أما قلعة عكاء فقد ضاع معظم معالم البناء الصليبية .

---

(١) Chateu de mer

(٢) Wilbrand of Oldenburg

أما قلعة البحر فى صيداء فلا تزال تحتفظ بأطلالها الصليبية . كذلك الحال فى برج جبلة ، على عكس ما تبقى فى طرطوسة : وقلعة المبدين ذات البرج المنيع وأسوار دفاعاتها المزدوجة ، وجزء من سور المدينة والكاتدرائية .

وفى نيفين[١] (Nephin) حيث حول اللاتين قطعة جبلية فى البحر إلى جزيرة لم يبق منها سوى أكوام من الحجارة .

٣ — القلاع الاستراتيجية :

والنوع الثالث من الحصون (الاستحكامات) هى القلاع الاستراتيجية الكبيرة التى شيدت لحماية مدينة هامة أو موقع رئيسى ، ومعظم هذا النوع شيده الصليبيون فى داخل سورية . وواجبها الرئيسى وقاية الجنب المهدد بالهجوم لدولتهم . وقد أقيمت هذه القلاع إما عند مخاضة رئيسية أو مضيق ، ولذلك كانت تبقى فى مكان موحش منعزل تسوده العزلة من كل جانب . فإذا بقى هذا النوع إلى اليوم محتفظاً بأهم سماته فذلك راجع إلى طبيعة الموقع . ولم تفقد تلك القلاع أهميتها على مر السنين بل إنها حافظت عليها لان طبيعة الأرض لم تتغير .

وتعتبر تلك القلاع الاستراتيجية الكبرى خير تعبير للعمارة العسكرية الصليبية فى القرون الوسطى ، وقد تمكن رجال الآثار والتاريخ بفضلها أن يدركوا كفاءة ومهارة بنائيها وذوق مهندسيها . ونذكر من تلك القلاع :

حصن الأكراد ، المرقب ، كرك مؤاب ، صهيون ، بوفورت (الشقيف) ، قلعة الحاج أو أثليت ، الصبيبة جنوبى جبل الشيخ . ونضيف إلى تلك إسمى قلعتين من ذات الطراز الكبير ، هما تورون[٢] وصافيتا . وقد خربهما المسلمون فى زمن ما .

العوامل الجغرافية واختيار المواقع :

ولا شك أنه كان للعوامل الجغرافية أثر كبير فى اختيار مواقع تلك القلاع الكبيرة .

---

(١) اختفت هـذه القلعة اليوم تحت مياه البحر ، وقامت بالقرب منها قرية آنفة ، وهى جنوبى مدينة طرابلس .

(٢) Safita — Ioron

وتوزيعها فى سورية ، ونظرة فاحصة للخريطة للبقاع التى تقع بين صيداء وأنطاكية تبين لنا أهمية الواقع التى شيدت فوقها تلك القلاع . فعند جبال لبنان الشاهقة التى تناطح السحاب إلى ارتفاع قد يصل إلى عشرة آلاف قدم ، وجبل العلويين فى شمال لبنان أيضاً (مع أنه أقل ارتفاعا) يتمثل التوحش والوعورة .. اتخذت طائفة الاسماعيلية معاقلهم المنيعة ومنها قلعة القدموس ومصياف ، وقد كان هؤلاء فى وقت ما من حلفاء الصليبيين .

ومن صيداء إلى أنطاكية كان من اللازم بناء القلاع عند الممرات القليلة العدد التى تصل بين داخلية البلاد والساحل . ولقد شيدت قلعة صهيون عند الطرف الشمالى لجبل العلويين والمرقب فى المكان الذى تنحرف فيه سلسلة الجبال عند الساحل مؤلفة أخدوداً ضيقاً بين الجبال والبحر . وحصن الأكراد (الفرسان) ، والقلعة البيضاء وعكار وغيرها . . كل منها فى مكان تتحكم فيه على ثغرة بين الطرف الجنوبى لجبل العلويين أول معاقل لبنان . ولم يكن من اللازم بناء قلعة كبيرة على طول امتداد سلسلة جبال لبنان ذاتها . وأمامنا قلعة بوفور عند نهاية تلك السلسلة الجبلية ، وهى تحرس الممر الذى يخرج منه نهر الليتانى فى طريقه إلى البحر .

وفى فلسطين ، فى الجنوب ، حيث تعتبر الدفاعات الطبيعية إلى حد ما قليلة وغير مؤثرة ، أمكن استعاضة هذا الضعف بتشييد قلاع كثيرة ، وسنذكر بعضها . كان هناك خط دفاعى أولى للدفاع فى الأرض الشبيهة بالصحراء فى شرق نهر الأردن :

الصبيبة فى جنوب جبل الشيخ للتحكم وكشف أى تقدم يرد من جهة دمشق .

وقلعة كرك مؤاب فى شرق البحر الميت وعلى مقربة منه .

والشوبك فى صميم صحراء الأردن وشمال خليج العقبة .

أما خط الدفاع الثانى فكان يقع غرب نهر الأردن ويعتمد على قلعتى تورون وصافيتا ، ويشرف بالتتابع على الطرق المؤدية من أعالى الأردن إلى صيدا أو عكا ، وعلى قلعة بلفوار التى تشرف على المخاضة الهامة جنوب طبرية .

وإلى جنوب وادى نهر الأردن والبحر الميت أنشئت عدة حصون منيعة جيدة : بينما شيدت قلعة الحاج على ساحل البحر حيث ترتطم المياه بأسوارها من ثلاثة أجناب .

الأساليب المعمارية للقلاع الصليبية

تلك القلاع التى مر ذكرها يختلف تخطيطها اختلافاً بيناً ، وهى تلخص أوتوجز تاريخ وتطور الحصون من نهاية القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر إلى خاتمة القرن الثالث عشر .

كانت مشكلة بحث الأصول الهندسية والمعمارية لتلك القلاع موضوع دراسة رجال الآثار منذ القرن السابع عشر .. هل استمد الصليبيون أصولها من البيزنطيين أم من الغرب أم أنهم جلبوها معهم من الغرب ؟ ، أم أن تلك القلاع كانت هندستها من وحى بنائيهم عندما حلت قوات الصليبيين فى الأراضى المقدسة ؟

إن الرأى الغالب هو أن البنائين الصليبيين تلقوا فنونهم فى العمارة العسكرية من الشرق ، وأن فن الحصون الأوربى استمد أصوله واستوحاها من التقدم الذى طرأ على القلاع فى الشرق منذ البيزنطيين يذكر ف . ا . لورنس[1] أن القلاع الصليبية فى سورية صورة من النماذج الأوربية وأنها لم تستمد شيئاً مطلقاً من أساليب القلاع البيزنطية ، وقد اندفع فى تأييد هذا الرأى وتسجيل نظريته بشتى الشواهد ، ومنها ما قد يعتبر متفقاً مع الحقائق العلمية أو منساقاً مع العواطف !

والواقع ، أن الحق ربما يوجد بين الرأيين ، فان الصليبيين تعلموا كثيراً من الشرق ، كما جلبوا معهم بعض الأساليب من الغرب وخاصة فى السنوات الأخيرة من دولتهم .

إن الحصون فى الشرق العربى التى عرفت فى القرن الحادى عشر امتدت أصولها وتطورها منذ العصور القديمة ، ولم يعرف عن الصليبيين أنهم استحدثوا جديداً فى منشئات الدفاع العسكرية ، مما لم يكن أمره معروفاً عند القدامى . ذلك لأن بعد سقوط رومه انتقلت تقاليد فن الحصون القديمة إلى البيزنطيين ، وتلك القلاع بقيت خير تعبير لما شيده جوستنيان من المبانى العسكرية التى يقدر عددها تسعمائة مبنى . وقد اهتدى رجال الآثار على كثير من تلك الأعمال . وفى عام ١٠٩٧ بدأ الصليبيون

---

(١) Lawrence, I.E., Crusader Castles, 2 vols., Golden Cockerel Press, 1936.

سيرهم الطويل عبر آسيا الصغرى ودمروا نيقية ثم أخضعوها لهم ، وفى العام التالى استولوا على أنطاكية . وقد اشتملت المدينتان الحصينتان على خير النماذج المعمارية الحربية التى تأثر بأساليبها البناءون الصليبيون ، فعرفوا كيف يستفيدون منها ، واقتبسوا منها ما يتفق مع مطالبهم .

كانت قلاع الصليبيين مبان منيعة وكأنها وحدات دفاعية مستقلة ، وكانت تزداد قوة باتصال إحداها بالأخرى كحلقات فى سلسلة أو شبكة محكمة من المواصلات مع المعاقل المجاورة .

ومن المحتمل أن الصليبيين تأثروا أثناء وجودهم فى الشرق باستخدام الإشارات والحمام الزاجل كوسيلة من وسائل المواصلات . والمعروف أن العرب قد امتازوا فى إستخدام الحمام الزاجل ، كما مهر البيزنطيون فى استعمال الإشارات . ومع ذلك أدرك الفرنج أين يشيدون قلاعهم وذلك لكى يجعلوا الإتصالات الداخلية بين معاقلهم أمراً ممكناً داخل مساحات شاسعة فى ممتلكاتهم اللاتينية .

كان جنودهم على ذروات قلعة بوفور (الشقيف) (مثلا) يتصلون بالإشارات مع جنود قلعة الصبيبة أى بانياس على سفوح جبل الشيخ . وكذلك مع قلعة تورون إلى الجنوب ، ومع حامية قلعة صيداء على بعد ١ ميلا على الساحل . وكانت المواصلات فى تورون ، (تبنين) ممكنة مع « شاتونوف » ونهر الأردن . كما أنه كانت هناك شبكة مواصلات شبيهة تصل بين حصن الأكراد وعكا والقلعة الحمراء (قلعة يحمور) وصافيتا (Chastel Blanc) والعريمة وطرطوسة فى شمال ووسط المملكة اللاتينية . وفى أقصى الجنوب فى كرك مؤاب حينما كان يحاصرها صلاح الدين عام ١١٨٣م كانت القلعة تتصل ليلا بوساطة الشارات النارية عبر البحر الميت بقلعة بيت المقدس (برج داود) التى تبعد عنها مسافة تبلغ نحو خمسين ميلا .

وتلك القلاع ومن كان فيها من رجال الحاميات القليلى العدد وهم مسلحون تسليحاً طيباً [1] احتوت على الإسطبلات الكافية وأبراج الحمام والطواحين ومخازن

---

(١) فى معركة حطين (١١٨٧م) فقد حوالى ٢٣٠ من فرسان الطائفة الشجعان ، كما فقد الداوية عدداً كبيراً من رهبانهم فى معركة عكا الختامية .

العتاد فى الأقبية داخل الأرض ، وكان يشرف عليها مسئول من قبل كبار الإقطاعيين الذين أسهموا فى إرسال الحملات الصليبية الأولى إلى الشرق . ولـكن فيما بعد تغير هذا الوضع حينما اتسع نطاق العمليات الحربية واستقرت مملـكة اللاتين فى الشرق ، وآل معظم الأمر فى منتصف القرن الثانى عشر إلى رجال الطوائف الدينية وأهمها طائفة الإسبتارية وطائفة الداوية ، وهما الطائفتان اللتان وقع على عاتقيهما مسئولية المحافظة على القلاع الـكبرى ، ثم آلت إليهم مسئولية الدفاع عن المملـكة اللاتينية بأسرها .

كذلك كان الحال فى قلاع الصليبيين التى كانت على الحدود بين دولتهم والدولة الإسلامية . كان يحافظ عليها رجال تلك الطوائف المتعصبة ، وكان من مهامهم تقرير الضرائب كما كان لهم سفنهم البحرية الخاصة وهيئاتهم الدبلوماسية التى تتـكلم بالنيابة عنهم لدى ملوك أوروبا .

لقد وصل رجال طائفة الاسبتارية إلى الشرق قبل مجىء الصليبيين ، وكانوا مسئولين عن تنظيم حركة الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس وتوفير نظم الراحة لهم ومعالجة المرضى منهم . وفى أوائل القرن الثانى عشر تطورت واجباتهم وضمت الشئون الحربية . أما الداوية فينسبون إلى الهيكل (هيكل القدس) ، ونشأت طائفتهم فى عام ١١١٨م . وفى أعقاب العام المذكور أخذ يتقدم نفوذ الطائفتين بسرعة ونشاط ثم ساعد تطور الأحداث على إدماج الأعمال الحربية ضمن مسئولياتهم ودخل فى اختصاصاتهم إدارة معظم القلاع الهامة ، كما أصبحت لهم نظم خاصة وتقاليد متصلة بأعمالهم الروتينية والعسكرية .

التأثيرات البيزنطية المعمارية

حين نبحث موضوع التأثيرات البيزنطية المعمارية نجد أن حاجيات الصليبيين والبيزنطيين اختلفت إحداها عن الأخرى . فالبيزنطيون لم يكن ينقصهم الإمداد بالرجال (القوة البشرية) ، ونضيف على هذا أن تـكتيكات وأسلحة الحصار خلال العصور الوسطى وقبل العهد الصليبى لم تـكن تتطلب الأسوار المتينة البناء . وكان أهم ما اعتمدت عليه القلعة البيزنطية هو سور رفيع «نوعا» تحميه عدة أبراج مربعة ذات

بروز ضئيل . وتلك الأبراج موزعة على مسافات معينة ، بين كل منها والآخر ستارة غير سميكة من الحجارة ، الأمر الذى كان من أجله تبنى كوابيل يعتمد عليها ممشى السور ، وفى بعض الأحيان كانت تبنى لها سلسلة من العقود الداخلية .

ومن أهم مميزات الحصون البيزنطية — الخندق الكبير الذى يحيط بالقلعة ، وكان يتقدمه أكمة من التراب تسمى متراساً (استحكام ترابى) . وعلى العموم فقد كانت الحصون البيزنطية تعتمد على عدد الرجال وعلى الأعمال الدفاعية الخارجية (الخندق والمتراس الترابى) ولا تعنى كثيراً بالموقع المنيع أو بمتانة الأسوار أو بترتيب منسق لاستخدام النيران الساترة [1] .

استفاد الصليبيون كثيراً فى سورية من الخصائص والمميزات المعمارية لحصون البيزنطيين واتخذوها مرشداً لهم ، ولا سيما فيما شيدوه منها عندما وصلوا إلى الشرق . وقد استخدم الفرنج الأبراج فى حصونهم على الأسلوب البيزنطى ، وشيدوها فى بادىء الأمر مربعة الشكل ، ولكن بدون النتوء البارز الذى عرفه البيزنطيون . ونشاهد فى قلعتى صهيون والحاج أن أبراج الستارة لم تكن متصلة بممشى السور . وفى قلعة صهيون نلاحظ أن جزءاً من ممشى السور كان يعتمد على الكوابيل الخارجية . وقد استخدم الصليبيون بمهارة الخندق وعنوا به كثيراً ، ويشاهد هذا بوضوح فى قلعة صهيون وكرك مؤاب والصبيبة وبوفورت وقلعة الحاج .

ومن حصون الفرنج التى لم تطبق فيها الأصول المميزة للحصون البيزنطية ، تلك الحلقة من القلاع التى شيدها الملك فولك أوف آنجو بين عامى ١١٣٧ و ١١٤٢ م حول عسقلان وهى : إبلين وبيت جبلين والحارس الأبيض . فقد كانت تلك عبارة عن قلاع مربعة ذات أبراج مربعة فى الأركان وبروزات (نتوءات) مستطيلة ممتدة مع الستارة .

وكان فى قلعة من تلك القلاع برج منيع مستقل فى وسطها (Keep) ، وقد شيد

---

(١) تلك هى ميزات عامة ويمكن الرجوع إلى حصون قبرص البيزنطية وحصون الرصافة وغيرها مما شيده البيزنطيون فى سورية .

على نفس الطراز قلعة كوليات[١] بالقرب من طرابلس وقلعة بافوار (١١٤٠ م) ، وقد بنيت الأخيرة من الحجر المنحوت الأسود ، وهى حصن كبير مربع يحيط به خندق حول ثلاثة من أجناحه ، أما الجانب الرابع فيطل على هوة سحيقة . ويمتد أطول أضلاع القلعة نحو ٣٨٠ قدماً ، والأبراج المشيدة عند الأركان مربعة الشكل ، وهناك برج واحد ذو نتوء كبير مقام فى وسط ثلاثة من ستائر القلعة .

ومن أهم المميزات التى توضح التخطيط الدفاعى هى الأبواب السرية الثلاثة (Posterns) وكذلك المدخل الرئيسى للحصن ، وكان يضم هذا الأخير على الأقل منحنيين يعملان معاً شكل زاوية قائمة[٢] وكان يصل المرء إلى الباب الثانى بواسطة ممر مقبي ، وتعتبر القلعة الحمراء القريبة من طرطوسة نموذجاً بسيطاً لهذا النوع من البناء ، ونجد هذا المدخل الذى على شكل مرفق يتكرر عدة مرات فى قلعة حلب .

واستمد الصليبيون من النماذج العربية عنصر المشربيات الحجرية (Machicolation) ثم عملوا على تطويره . وهناك عدة أمثلة لهذه الظاهرة المعمارية فى عدة مبان بالقرب من أنطاكية ترجع إلى مابين القرنين الرابع والسادس. وقد نشأت هذه الظاهرة فى الشرق قبل ظهورها فى أوربا[٣] .

أما عن أسلوب البناء بالحجارة فقد اتبع الصليبيون الطراز الذى اتبع فى سورية على أيام ما قبل البيزنطيين (الفينقيين وغيرهم) . ولا يخفى أن ندرة الخشب فى تلك البلاد أجبرت الصليبيين على إستخدام العقود والقبوات بدلا من استخدام الخشب، ولذلك كان عدد الطوابق محدداً ، ولم يتجاوز عددها فى القلاع اثنين أو ثلاثة ، ويلاحظ أن الأبراج التى تتوسط القلاع الصليبية (Keeps) كانت أقل ارتفاعاً من مثيلاتها التى شيدت فى الغرب .

---

(١) Coliat .

(٢) هـذا الأسلوب المعمارى أخذه الغرب من الشرق وهو جعل المدخل الموصل من باب القلعة إلى داخلها على شكل زاوية قائمـة أو جعله منثنياً لـكى لا يتمكن العدو الذى يصل إلى الباب من أن يرى الفناء الداخلى أو أن يصوب سهامه إلى من فيه .

(٣) K.A.C. Creswell : A Short Account of Early Muslim Architecture, Pelican, 1958, pp. 121-122.

وليس بخاف أن العرب على أيام الصليبيين كانوا قد اتصلوا من قبل بيبزنطية منذ عدة قرون . وقد استفاد الاثنان وتبادلا المعرفة كما أنهما أضافا كثيراً إلى مبادىء فن هندسة الحصون القديمة .

ونحن هنا إذا تذكرنا أن فى معظم عصور النضال الإسلامى الصليبي ، كان العرب يعتمدون على الهجوم وسرعة الحركة ، وكانوا يمتازون فى الوقت ذاته بتفوق عددى كبير على خصومهم ، فانهم لم يعنوا كثيراً فى تلك المدة بأعمال بناء الحصون الدفاعية ، ولأجل ذلك لم يقدر الباحثون تأثيرهم على العمارة اللاتينية حق قدره . وليس هناك أدنى شك أن الصليبيين استفادوا كثيراً من خبرة العرب فى أساليب البناء العسكرية . وكان مما أدخلوه الى أسس جدرانهم ذلك التضخم فى زيادة سمك جدران أسوار قلاعهم .

وفى صيداء وغيرها استخدم المسلمون العمد الرخامية والجرانيتية القديمة كدعامات لتقوية مبانى الحصون ، وهو أسلوب معمارى شاع استعماله عند المسلمين أينما وجدوا تلك العمد القديمة .

وموجز القول أن الصليبيين استفادوا دروساً شتى من البنائين البيزنطيين والعرب وأخذوا تلك الميزات المعمارية التى راقت لهم وأوصلوها إلى مستو رفيع . ثم أدخلوا عناصر جديدة ، وكان من أهمها حسن اختيار الموقع الذى تشيد عليه القلعة من ناحية الدفاع المثالى والعمل على أن ينسجم الموقع مع شكل الأرض وطبيعتها .

كان من نتائج الحروب الصليبية ، أن تطور نوعان رئيسيان من القلاع ، انتقلا فيما بعد من الشرق إلى أوروبا ، وكان لكل منهما ذات التخطيط والغرض فقد اشتملت كل قلعة على خطين للدفاع أو ثلاثة خطوط دفاعية ، الواحد فى خلف الآخر . وقد اختلف كل نوع عن الآخر من ناحية طبيعة الموقع الذى شيدت عليه القلعة . وبمعنى أوضح أن طبيعة الأرض ، هى التى كانت تتحكم فى اختيار نوع التخطيط المنشود . فإذا كانت القلعة معرضة للهجوم من جميع الأجناب ، فان القلعة فى مثل هذه الحالة تتطلب الدفاع المتعادل عن كل جنب من أجناب القلعة ، ومن هنا نشأ ذلك النوع من القلاع الذى يشتمل على عدة خطوط أو ساحات دفاعية

متعاونة تعتمد على بعضها بعضاً داخل القلعة. وقد أطلق على هذا النوع « القلاع المتداخلة الحصون » (concentric) . وكان يحدث غالباً ، حينما تشيد قلعة ما فى أعلى ربوة أو موقع شبيه وينتظر أن يكون الهجوم على القلعة من جانب واحد فقط . حيث لاتتوافر فيها إمكانية الدفاع عن كل الأجناب ، فقد كان من الطبيعى إستخدام الأسلوب الذى يسمح بإقامة ساحات متعاونة داخل القلعة لأجل مواجهة المهاجمين فى الاتجاه الذى ينتظر أن يحصل الهجوم منه .

حصن الأكراد :

وخير نموذج لهذا النوع من القلاع فى سورية ، هو حصن الأكراد أو قلعة الحصن (١٢٠٥) التى تقع فى شمال شرق طرابلس . فان موقعها فوق ربوة مرتفعة جعلها تشرف على جميع الأراضى المحيطة بها . لقد كانت القلعة موجودة قبل وصول فرسان يوحنا (Saint John) فأخذوا يشيدنها من جديد ، وجعلوا فيها ساحتين كبيرتين تتخللها الأبراج المنيعة والأبواب الحصينة ، وكانت الساحة الداخلية أعلى من الساحة الخارجية ، ومشرفة عليها ، ومسيطرة على المهاجمين الذين قد ينجحون فى اقتحام السور الخارجى ، وبذلك يتهيأ للمدافعين فرصة التحكم فى العدو فيقضون عليه أو يطردونه . وكان مدخل قلعة الحصن مهيأ بطريقة حاذقة ، فإذا استطاع العدو مثلا اقتحام البوابة الرئيسية للقلعة ، فلا بد أن يأخذ طريقه عبر ممر ضيق وطويل ، ثم تقابله عدة بوابات حصينة أخرى ينبغى التغلب عليها بعناء وتضحيات ، فإذا نجح قابلته دهاليز أخرى ذات منحنيات ومرافق يتعذر التغلب عليها .

كل هذا ، قبل أن يصل المهاجمون إلى الساحة الداخلية للقلعة ، وهنا تكون قوات العدو ، قد حوصرت ، وأصبحت هدفاً محققاً وتحت رحمة المدافعين فوق الأبراج والأسوار والبوابات المسيطرة على الساحتين . ولم يكن فى هذا النوع من القلاع ، ذلك البرج المربع المنيع (keep) الذى كان يتوسط قلاع القرون السابقة والذى كان يحتمى فيه المدافعون للقتال حتى اللحظة الأخيرة ، فقد اضمحلت أهميته وأصبح لا يركن إليه . ولذلك لا نشاهده فى القلاع التى بنيت منذ عام ١٢٠٠ ، فقد أهمل إلى حد ما . ولقد أثبتت التجربة ، أن منعة القلاع قد أصبحت حينذاك فى

سلسلة الأبراج القوية التى تدعم أسوار القلعة ، وكل برج منها يقوم فيه رجاله بالقتال والدفاع ضد المهاجمين ، وكأن كل جماعة فى قلعة مستقلة .

أما النوع الثانى من القلاع ، وفيه يقوم الدفاع معتمداً على خطوط (ساحات) دفاعية منفصلة ضد الجانب الوحيد المعرض للهجوم ، كما هو الحال فى قلعة صهيون (Saone) فى سورية ، وقلعة جايار التى شيدها ريتشارد الأول ملك انجلترا على نهر السين فى عام ١٩٨١ بعد عودته من البلاد المقدسة[١] .

أثر العمارة العربية على الغرب

وليس مما يثير الدهشة أن بعد عودة الفرسان من الحملة الصليبية الثالثة انعكست كثير من التطورات المعمارية العسكرية التى انطبعت فى البلاد المقدسة على المبانى الأوروبية ، وكان المعماريون الأوربيون يبحثون عن أفضل الأساليب التى عرفت فى سورية ، كالأبواب ذات المرافق الكثيرة وكالأبراج المستديرة فى السور والحصون الوسطى التى استخدموها فى مبانيهم ، كما أنه عنى كثيراً بتأثير النيران الجانبية ، ثم عرفت السقاطات[٢] والمتاريس ، ومن ثم ساد فى أوروبا القلاع المتداخلة الحصون ، على الأقل لمدة قرن ونصف ، وذلك بعد نجاحها فى سورية على غيرها من الأساليب التى كانت قد استقرت فيها منذ أجيال سابقة .

ونلاحظ فى ضوء استيعاب الخبرة الصليبية فى أوروبا ، أن عدداً من البنائين فى سورية الذين نهضوا بتشييد قلاع طائفة الداوية ، وقلعة مونتفورت (١٢٢٧ — ٢٩م) معقل فرسان التيتون ، لم يتأثروا بطراز القلاع الدائرية الدفاع ، وواصلوا بناء القلاع على الأسلوب البيزنطى حتى نهاية أيام الصليبيين فى سورية (بالرغم من إدخالهم

---

(١) تشبه قلعة جايار فى الواقع ثلاثة حصون يكاد يكون كل حصن مستقلا عن الآخر فأقيم الحصن الأول على ربوة عالية ويحيط به الأسوار والأبراج ، ويفصله عن باقى القلعة خندق عميق ، ويقع خلفه حصن كبير يضم ساحتين كبيرتين يفصلهما خندق ، ويحيط بهما سور ضخم تتخلله الأبراج المنيعة ، وواحد من هـذه الأبراج منيع جداً يقوم بوظيفة الخط الدفاعى الأخير للقلعة .

(٢) تعرف فى البلاد الغربية باسم Portcullis

لبعض عوامل التقوية عليها) ، واستخدموا كذلك البرج المربع « القديم الاستعمال » . وقد نسب بعضهم ذلك الاتجاه (أى المحافظة على التقاليد القديمة) فى أسلوب بناء الحصون إلى المنافسة التى كانت تسود العلاقات بين طائفتى الداوية والاسبتارية ، والأخيرون كان لهم الفضل فى اتخاذ الطراز الدائرى الدفاع والنهوض به . ومن الصعب اليوم أن نحكم على مدى ما كانت عليه قوة كثير من القلاع الداوية لأنها تعرضت لانتقام قاس أكثر مما لقيتة قلاع الاسبتارية . ومن تلك القلاع : صفد والعريمة ، والقصر الأبيض (صافيتا) وطرطوسة ، وغيرها من القلاع الجنوبية التى تخربت .

وسنوضح العناصر (التدابير) المعمارية التى استخدمها العرب فى حصونهم قبل وصول الصليبيين إلى البلاد المقدسة ، ثم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا . وفى طليعة هذه العناصر :

١ — المدخل ذو المرافق العديدة (لأنها على هيئة المرفق) والكلمة التى استخدمها المؤلفون العرب « عطف » . عرف المصريون القدامى هذا الأسلوب فى حصونهم . فنشاهده فى حصن شونة الزبيب فى الألف الثانية قبل الميلاد . والغرض منه أن نكبد العدو المهاجم للحصن أفدح الخسائر فى أثناء محاولته الانطلاق من باب الحصن ولا سيما فى أثناء الظلام أو عند انسحابه عقب فشل هجومه . ولم يستخدم الرومان أو البيزنطيون هذا الأسلوب فى حصونهم بل إنهم استخدموا المدخل المستقيم الذى يؤدى مباشرة إلى فناء الحصن . وفى القرن الثامن استخدم المهندس الذى أسهم فى بناء بغداد (٧٦٢ — ٧٦٥) المدخل ذى المرفق ، فكان استخداماً موفقاً . ومع ذلك فلم ينتشر هذا الأسلوب فى الشرق العربى ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثانى عشر تم استخدامه فى مبانى الحصون بطريقة جيدة ، ولا سيما فى قلعة حلب العظيمة (أوائل القرن ١٣) التى عتاز مدخلها بخمسة منثنيات قائمة ومتتالية[١] .

---

(١) تراجع مادة « باب » للأستاذ كريسويل فى دائرة المعارف (الطبعة الجديدة) وفى مقاله عن الحصون فى الإسلام قبل عام ١٢٥٠ فى :

The Proceedings of the British Academy, vol. XXXVIII, London, 1952, pp. 89-107.

ويلاحظ أن أول الأبواب التى اشتملت على هـذا المرفق المثنى فى العمارة البيزنطية ، هو الباب الجنوبى فى قلعة أنـكرا (أنقرة) التى شيدها الملك ميخائيل الثالث فى عام ٨٥٩ م . ويرجح أن العباسيين نقلوا ذلك النظام المعمارى من إقليم ما وراء النهر حيث شوهد هذا الأسلوب فى قلعة جنبس التى بنيت قبل الإسلام[١] . والجدير بالذكر أن الأمير قراقوش الذى ندبه السلطان صلاح الدين الأيوبى لبناء قلعة الجبل ، أستخدم ذلك الأسلوب من المداخل فى القلعة ثلاث مرات (١١٧٦ — ١١٨٤) ، وفى قلعة الجندى بسيناء التى شيدها هذا العاهل حوالى عام ١١٨٢ . ثم انتقل الأسلوب إلى أقصى المغرب فى قصبة وداية فى رباط بمراكش[٢] . كما أننا نلاحظ هذا الأسلوب الرائع فى حصن الفرسان (الأكراد) فى شمال سورية .

٢ — وهناك نظام معمارى آخر ابتـكره العرب وهو «السقاطة» التى انتقلت إلى الغرب باسم "Machicoli" وهى عبارة عن دروة من الحجارة أو الخشب ذات فتحات تبرز عن الحائط بوساطة كوابيل وتقام فوق أسوار الحصون أو فى أعلا مداخلها ، ويستطيع الجنود من خلال الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار على الرجال الذين يقتحمون القلعة وقد ظلت السقاطة مجهولة مدة طويلة فى الغرب حتى استعارها الصليبيون فى القرن الثانى عشر . وقد استخدمت السقاطات على نطاق واسع فى شمال سورية قبل ذلك بعدة سنوات ، وأقدم نموذج منها تلك السقاطة الباقية فى دار قيطة وتاريخها منقوش عليها وهو ٥٥١ م . وتشاهد السقاطة أيضاً فى قصر الحير الغربى (٧٢٩ م) الذى شيده الخليفة هشام ابن عبد الملك فوق أبواب القصر ، وكذلك تشاهد سقاطة أخرى فى قصر الحيرة الشرقى (٧٣١) م) والجدير بالذكر أن أقدم السقاطات التى شيدت فى أوروبا هى التى نشاهدها فى قلاع جايار (١١٨٤) وشاتيلون (١١٨٦) ، ونوروتيش (١١٨٧) وونشستر (١١٩٣) . ويتضح من هذا أن الصليبيين نقلوا فـكرة السقاطة عن المعماريين العرب بعد مرور عدة أعوام طويلة .

---

(١) Field and Prostov : Ars Islamica, VI, pp. 158-166.

(٢) المرجع المذكور فى هامش ١ فى ص ٧٤ للأستاذ كريسويل ، والمعروف أن نظام الأبواب ذات المرفق انتقل إلى كثير من القلاع الأندلسية فى عصر المرابطين ولا سيما فى غرناطة وأشبيليه وأبيلا .

وبالإضافة إلى هذين النظامين العربيين ، هناك أيضاً « المتراس » Portcullis ويمكن وصفه بأنه إطار من الخشب أو الحديد ، مدبب الأطراف من أسفله ، ينزلق عمودياً فى حزين جانبيين فى كتفى باب حصن أو قلعة ، ويثبت فى الإطار شبكة معدنية صلبة ، يستطيع المدافعون قذف السهام من خلالها ، ويسدل المتراس عند محاولة العدو اقتحام القلعة وذلك بخفضه بوساطة حبال متينة أو سلاسل . ومن المحتمل أن يكون العرب قد اقتبسوه عن البيزنطيين فى أثناء حصار حصن بابليون فى مصر العتيقة[1] ثم استخدموه فيما بعد فى قصر الأخيضر ج . ع . م (٧٧٨ م) ومنذ ذلك الحين شاع استخدامه فى الشرق قبل انتقاله إلى الغرب فى أثناء الحملات الصليبية .

٤ — وهناك البربقان (Barbican) وهى كلمة عربية أو فارسية الأصل (بربخان) ، تطلق على البرج الكبير الذى يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته القائمة فوق الخندق المحيط بالحصن . وقد انتقل هذا النظام المعمارى إلى أهل الأندلس ولا سيما فى عهد المرابطين بشمال أفريقيا .

٥ — والقرنص (Squinch) نظام معمارى استخدمه العرب ونشاهده فى كثير من العمائر الإسلامية وهى ذات طبقات مصفوفة أعلا بعضها ببراعة فنية ولا يقصد بها الزخرفة بل أنها ركن مهم فى الهندسة المعمارية ولا سيما فى بناء القباب ، وهى غالباً كروية محمولة على قواعد مربعة الشكل . ففى الفراغ الناشىء مادة من انتقال السطح المربع إلى مسطح دائرى . وكان كل صف من هذه الدلايات يوضع فوق بعضها وكل صف يبرز من الذى فى أسفله حتى يلتقى الصف الأعلى بصف القبة . واستخدمت القرنصات أيضاً فى المآذن أسفل دورات المؤذن وذلك لإيجاد البروز الذى يتحرك فيه المؤذن ، فهى تقوم بعمل الكوابيل التى نشاهدها فى أسفل الشرفات لحملها . والمعروف أن الفاطميين كانوا أول من استخدموا الدلايات فى مبانى القاهرة . وقد انتقل استخدام القرنصات إلى أوروبا بوساطة الصليبيين .

---

١) Joy, Sidney : Babylon of Egypt. Journal of British Archaeological Assoc., 3rd serie, vol. I, p. 70.

(٢) Creswell, K.A.C.

إعتبارات متصلة بالقلاع الصليبية :

وهنا وقد انتهينا من عرض مميزات بعض القلاع الرائعة ، وألممنا بأنظمتها ، أفلا نتساءل كيف سقطت بعض تلك الحصون الصليبية أو كيف أجبرت على الاستسلام.

الواقع أنه لا يوجد جواب واحد لذلك السؤال . إذ أن هناك عدة عوامل كانت تؤثر على سقوط القلاع الكبرى . وكان يجتمع منها عاملان أو أكثر كسبب هام لسقوط القلعة ، ويمكن بحث كل من تلك العوامل على حدة .

نقص قوة الرجال(١) :

كان النقص المزمن للقوة البشرية الصليبية دون شك العامل الرئيسي لسقوط قلاع كثيرة فى قبضة المسلمين ، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

وجد المسلمون فى حصار قلعة صهيون المنيعة عام ١١٨٨ م أن قسما كبيراً من السور المنيع فى القلعة لا يدافع عنه أحد من رجال الحامية . وكان ذلك ما حدث فى قلعة تورون (تبنين) التى قاومت سبعة أيام فقط . وقد لاقت قلعة حصن الفرسان (الأكراد) نفس المصير ولا سيما بعد ما تخلى رجال التركمان عن مساعدة الفرسان ، فاضطر فرسان الاسبتارية وحدهم إلى الدفاع عن الحصن حتى أجبروا على التسليم .

عقلية القلاع :

أوجدت القلاع الكبرى عند الصليبيين عقلية دفاعية ، وفرضت جهداً نفسياً عليهم . وقد كان هؤلاء دواماً فى انتظار ما يجلبه المهاجمون من مفاجآت أو ما سوف يملونه عليهم . وبعبارة أخرى كانوا فى حالة يقظة مستمرة ورقابة وانتظار وإنصات وخوف . . إلخ . فنشأ عندهم الضجر والذعر والانهيار والتبرم والملل . وتلك كلها أعداء عنيدة للجنود تعرضهم لانهيار معنوى شامل ، ولا سيما إذا تواردت الإشاعات بأخبار الهجوم ، أو أنباء الحصار . وفى بعض الأحوال كان يتسرب المسلمون من الأبواب السرية الخلفية ويفاجئون رجال القلعة ثم يفرون مسرعين بعد الانتهـــاء من غارتهم ، فى حين يعمل رجال اللغم (اللغامون) تحت الأبراج

---

(١) يعبر عنها بعبارة Lack of manpower

الكبرى والأسوار دون كلل أو ملل ، ويدمرون قسما هاماً من القلعة ويسهلون على المهاجمين التسرب أو المباغتة . فما بالك إذا انضبت المياه داخل القلعة وتفشت الأمراض . وبينما هم فى محيط تلك الكوارث والمتاعب تصل الأنباء إلى حامية القلعة بأن العدو قد أباد نجدة كانت آتية لخلاصهم .. وهكذا كانت معنويات الحامية تتضاءل .. وتتفشى بين أفرادها الدعوة إلى التسليم . وتفسر لنا أمثال تلك المواقف لماذا سلمت أنطاكية المنيعة عام ١٢٦٨ أم بعد حصار لم يدم أكثر من خمسة أيام .

المجاعـة :

كان أهم عناصر حروب الحصار حرمان رجال الحصن من المؤونة والطعام والماء ، ولكن هذا السلاح لم يتأثر به الصليبيون . ذلك لأن رجال الحصن لم يكن عددهم ضخماً يحتاج إلى مقادير كبيرة من الميرة . ومع ذلك فقد احتوت القلاع الكبيرة على مخازن تحت الأرض تحتوى على مقادير وفيرة من الحاجيات الضرورية . فكانت فى قلعة المرقب مثلا من المؤنة التى تكفى رجاله للمقاومة خمس سنوات من الحصار المرير ، وكان فى حصن الفرسان (الأكراد) طاحون للقمح وكانت مخازن الزيت والحبوب كبيرة . . وتلك لا زالت إلى اليوم موضع دهشة الباحثين . وكانت فى صهاريج ومخازن قلعة صهيون ما يكفى حامية كبيرة مدة حصار طويلة .

وفى بعض الأحيان كان يبدو شبح المجاعة مخيفاً مزعجاً . وتتحدث المراجع التاريخية عن دفاع « رينودى ساجيت » وحاميته البـاسلة عن قلعة الشقيف (Beaufort) ، وانتهاء هذا الاستبسال بالتسليم لصلاح الدين (٨٩/١١٨٨) بعد ما تحمله رجالها من الحرمان ، وقد مر هذا الخطر بحامية قلعة بلفوار (بيت جبرين) التى قاومت الحصار ١٨ شهراً . كما فتكت المجاعة برجال كرك مؤاب بعد معركة حطين — وحامية حصن مونتريال ، وقلعة صافيتا (١١٨٨ م) .

د. عبد الرحمن زكى

ملحق

ثبت بالقلاع الإسلامية والصليبية

فى الشرق الأوسط العربى

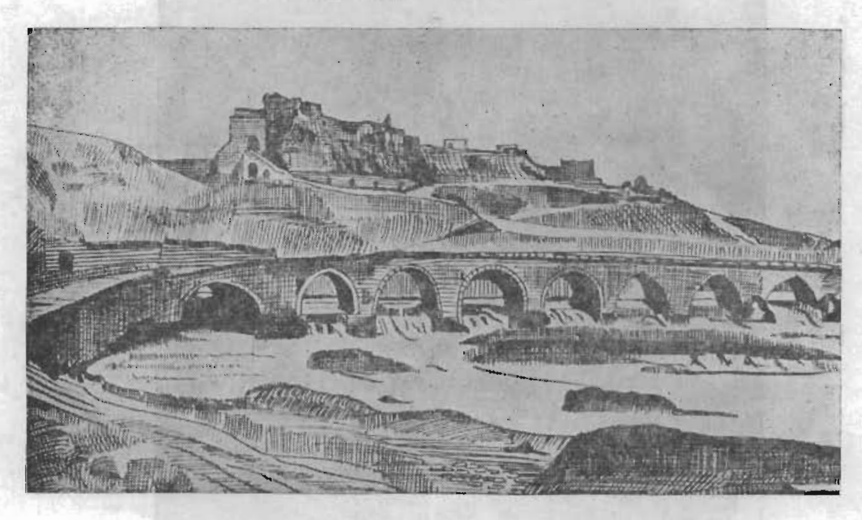
حصن بابليون بمصر	حوالى ١٠٠ م
حصن الأزرق	نهاية القرن الثالث
قلعة أنطاكيا (بدأ تشييدها أنتيجونوس وسلوكوس)	٥٢٧ — ٥٦٥ م
قصير الحلابات (بدأ تشييده كراكلا ٢١٣ م)	٥٢٩
حلبية (زنوبيا على نهر الفرات)	القرن السادس
ساموساتا (قلعة الطين على الفرات)	« «
مرعش (أعاد الخليفة معاوية بناءه)	القرن السابع
الحدث (أعاد الخليفة المهدى بناءه) وسماه المحمدية	« «
جبلة (على البحر المتوسط بالقرب من اللاذقية)	« «
المصيصة (بدأ تشييد القلعة عبد الملك بن مروان)	٧٠٢ — ٧٠٣
الثقب (شيده الخليفة عمر بن عبد العزيز)	٧٢٤
قصر الحير (شيده هشام بن عبد الملك)	٧٢٨ — ٧٢٩
قلعة الرصافة (شيدها هشام بن عبد الملك)	٧٢٨ — ٧٢٩
ملطية (أعاد تشييدها الخليفة المنصور)	٧٥٦
منصور (شيدها المنصور بن جعوانة بن الحارث)	٧٥٧
زبطرة (بالقرب من قلعة منصور أعاد بناءها الخليفة المنصور)	٧٨٠
أدنة (شيدها هارون الرشيد)	٧٨٢
طرسوس	٧٨٧ — ٧٨٨
عين زربة (ʻAnazarbus)	٧٩٦
الهارونية (شيدها هارون الرشيد)	٧٩٩ — ٨٠٠
برزية	القرن التاسع

جعبر (دوسرة)	قبل القرن العاشر
حران	قبل القرن العاشر
حلب	القرن العاشر
المعـــريعة	القرن العاشر
مصيف (قادموس بالقرب منها)	القرن العاشر
عكا	القرن العاشر
حمص	القرن العاشر
يهمر (القلعة الحمراء)	القرن العاشر
حارم	٩٠٩
بغراس (Pagrae)	٩٦٣—٩٦٨
عكار	حوالى ١٠٠٠
شيزر	حوالى ١٠٠٠
المهلبــة	القرن الحادى عشر
الـكهف (شمال بانياس)	القرن الحادى عشر
قادموس (١١٣٤ ؟)	القرن الحادى عشر
دمشق (الأمير أتسز) أو خلفه	١٠٤٥ أو ١٠٦٧
المرقب (مرجط) — بدأ تشييدها رشيد الدين الإسماعيلي	١٠٦٢
المضيق (أباميا)	حوالى ١١٠٠
بانياس (حبيبة أو نمرود)	حوالى ١١٠٠
صافيتـا	١١٠٢
طرابلس (سان جيل)	ح ١١٠٣
جبلة (جبيل)	١١٠٤
تورون (تيرون)	١١٠٣ أو ١١٠٧
حبيس جلدق (شرق الأردن)	١١١٠
حصن الأكراد (الفرسان) على أسس سابقة	١١١٠ — ١١٤٠
الشوبك (كراك مونتريال) شرق نهر الأردن	١١١٥

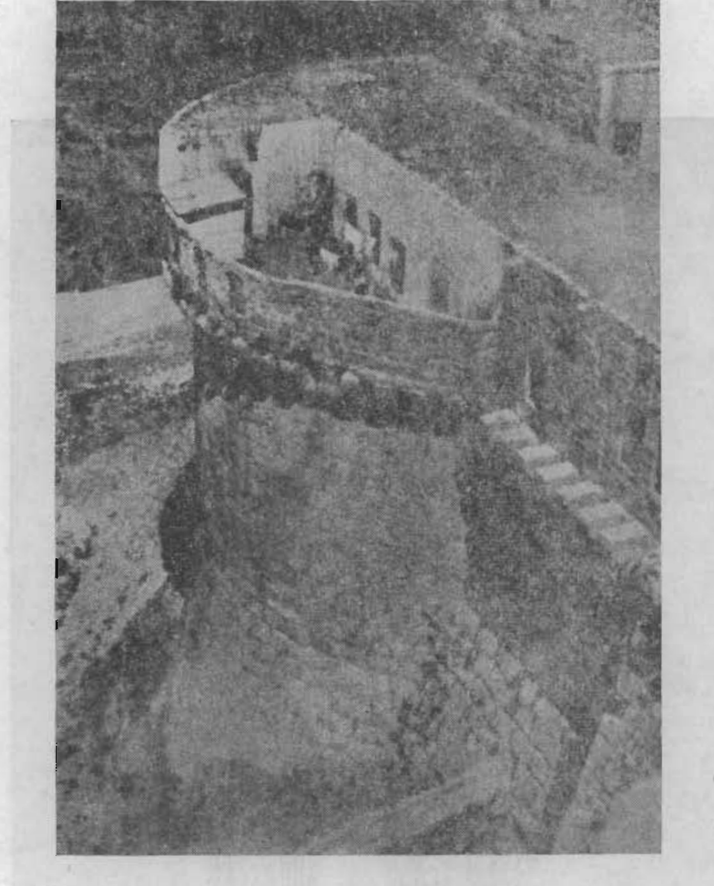
فرعون (الجرايه) بخليج العقبة	ح ١١١٦
سكاندليون	١١١٦
صهيون (صلاح الدين)	١١١٩ — ١١٢٠
إبلين (يبنا)	١١٣١ — ١١٤٤
بيت جبلين	١١٣١ — ١١٤٤
جارد بلانش (تل الصافى)	١١٣٧ — ١١٤٢
بلفورت (شاستل أرنول) أو شقيف أرنول	١١٣٩ - ١١٤٠
صفـــد	١١٤٠
بلفوار (كوكب الهواء)	١١٤٠
كرك مؤاب (شرق نهر الأردن)	١٩٤٢ — ١١٤٣
غزة (على البحر المتوسط)	١١٤٩ — ١١٥٢
عر يـــة	١١٤٩
عسقلان (على البحر المتوسط)	١١٥٣
قلعة الجبل بالقاهرة (صلاح الدين)	١١٧٦ — ١٢٠٧
شاستلية (ن . الأردن الأعلى)	١١٧٨
طرطوسة	ح ١١٨٣
عجلون (الربض شرق نهر الأردن)	١١٨٤
صدر (صلاح الدين بسيناء)	١١٨٧
داروم (دير البلح) — الملك بلدوين الأول	القرن ١٢
إنفة (نفين)	القرن ١٢
بصرى (سورية)	١٢٠٢ — ١٢٠٣
قلعة النجم	١٢٠٨ — ١٢١٥
قلعة صور (على البحر المتوسط)	١٢١٠
قلعة جبل طابور (الملك العادل)	١٢١١
عثليت (الحاج فى شمال فلسطين)	١٢١٧ - ١٢١٨
قيصارية	حوالى ١٢١٨
جدين (مونفرتس — ستاركنبرج)	١٢٢٧ - ١٢٢٩

صيداء (ساجيت)	١٢٢٧—١٢٢٨
جزيرة الروضة بالقاهرة	١٢٤٠
قلعة بيت المقدس	القرن ١٣
قلعة قايتباى بالإسكندرية	١٤٧٧
قلعة قايتباى برشيد	١٤٧٩
العقبة (السلطان الغورى)	١٥١٦
نخل (السلطان الغورى بسيناء)	١٥١٦
العريش	١٥٦٠
الطور	ح ١٥٦٠

مدخل قلعة حلب العربية بسورية



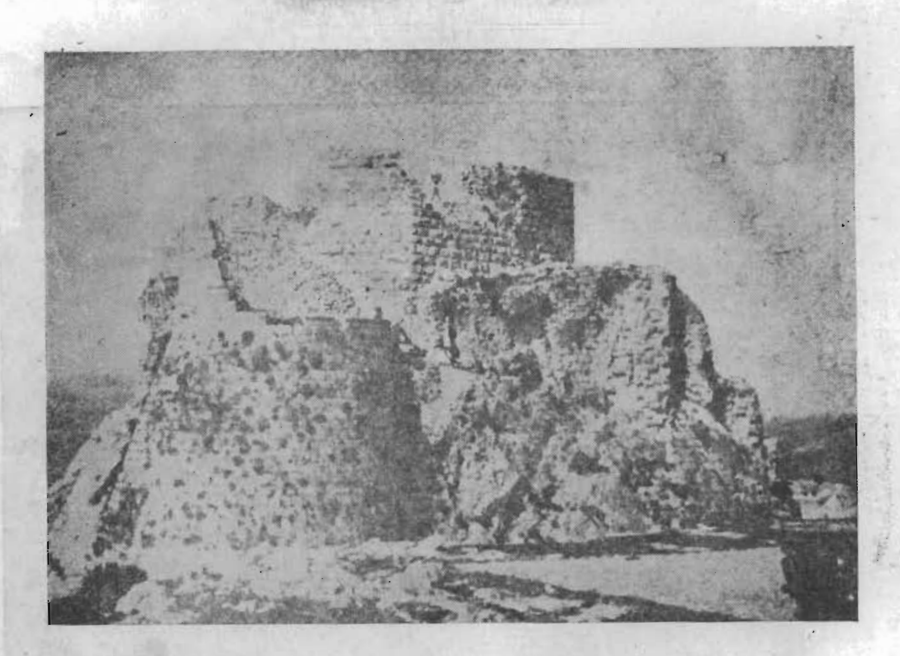
قلعة شيزر العربية المطلة على نهر العاصي بسورية



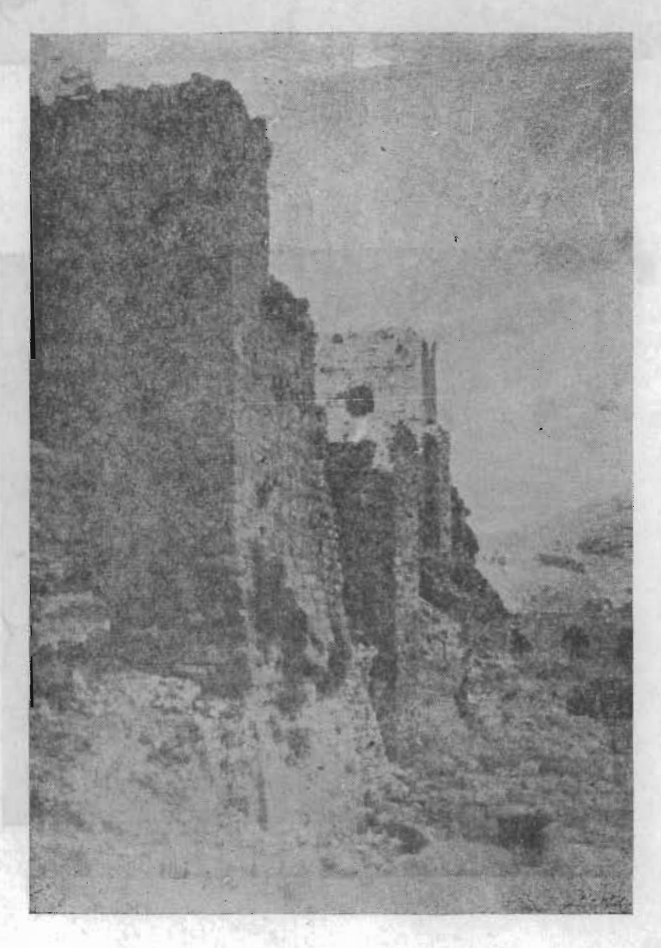
قلعة حصن الأكراد : برج مطل على السهل بسورية



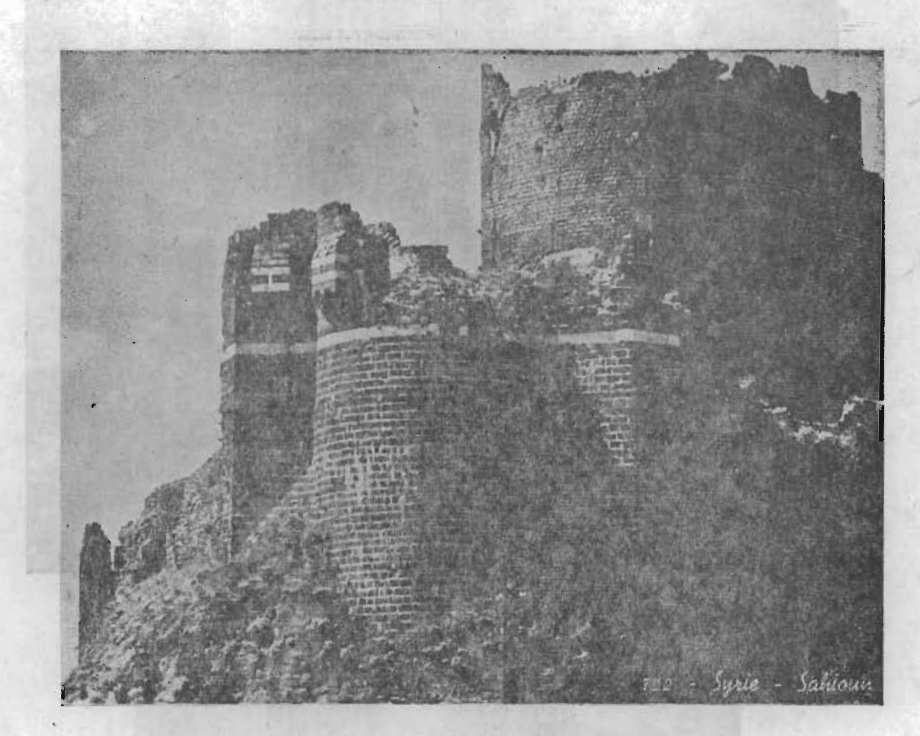
قلعة الشقيف شقيف (أرنول) بلبنان



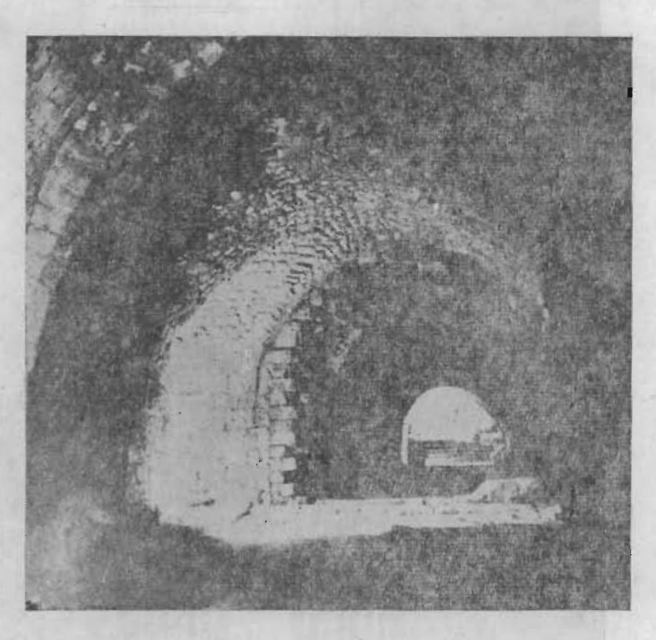
قلعة الشقيف بلبنان



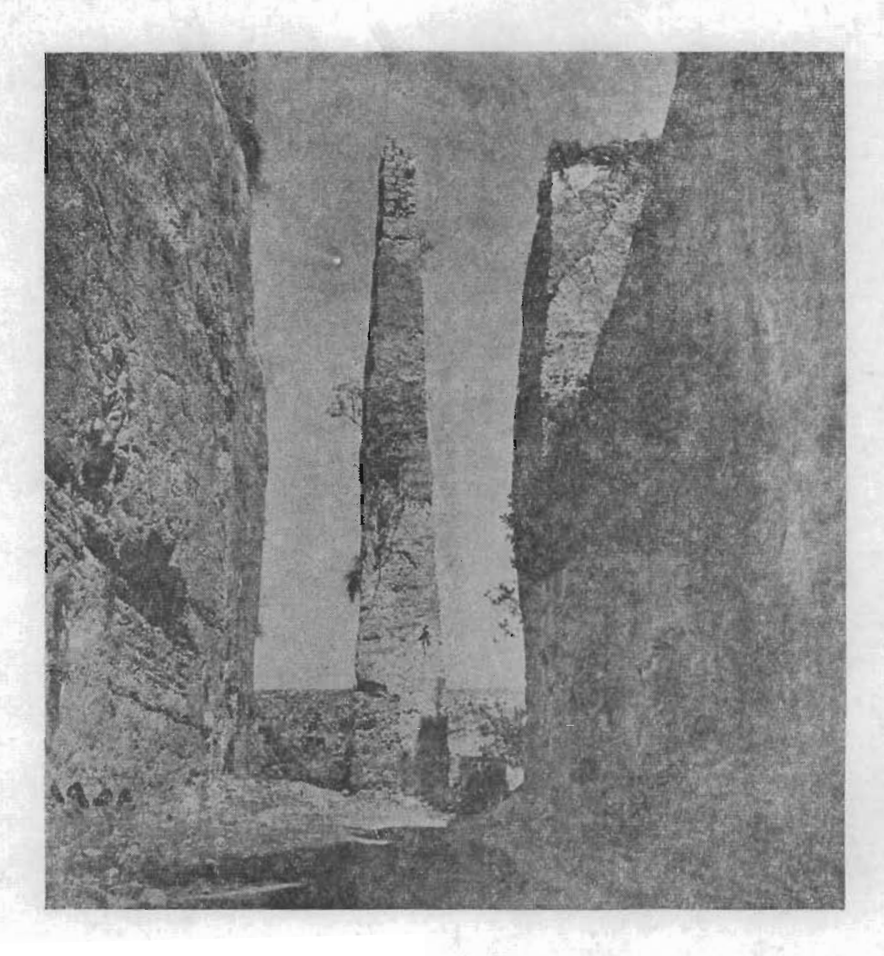
قلعة الكرك بشرق الأردن



قلعة صهيون (صلاح الدين) في سورية



قلعة جبيل : أقبية الحصن بلبنان



قلعة صهيون (صلاح الدين) فى سورية

الغناء والموسيقى والمجالس الاجتماعية في العصر العباسي

للدكتورة ناجية رحمة الله

قسم التاريخ – كلية البنات – جامعة بغداد

اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بصناعة الغناء والموسيقى. ولم تكن هذه الصناعة جديدة عليهم، فالعرب في الجاهلية كان لديهم غناء بسيط يسمى بالحداء ثم اشتق منه الغناء المعروف، ويقول المسعودي « لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب»[١]. وظهر من المغنين المشهورين في العصر الإسلامي الأول ابن محرز وابن سريج ومعبد والغريض وغيرهم[٢].

وفي العصور العباسية تطورت صناعة الغناء والموسيقى تطوراً كبيراً. وبلغت ذروة الكمال[٣] عند ظهور المغنين كابراهيم وإسحاق وغارن وابن بانة وابن جامع وعلوية هذا وقد شاركت المرأة الرجل في هذا الميدان، وبرزت بعض الجواري المغنيات كعريب جارية المأمون وشارية وبدعة وشاجية وغيرهن كثيرات.

ولا بد من وجود دوافع وأسباب أدت إلى تطور هذه الصناعة تطوراً بعيداً لدى جميع طبقات المجتمع حتى العامة[٤]. ونلخص من هذه الأسباب:

١ – التأثر بالفرس ثم بالروم الذين أصبحوا موالي للعرب المسلمين بعد الفتوحات؛ فغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير، وسمع العرب تلحينهم فلحنوا عليهم الأشعار[٥]. هذا فضلا عن كثرة الجواري اللواتي أخذن كسبايا في الحرب. وأغلبهن من الفارسيات والروميات اللواتي حمل البعض منهن ثقافتهن الأصلية ثم تثقفن على أيدي

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٠

(٢) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢ ص ٢٦٨

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٠٠

(٤) ابن طيفور : بغداد ص ١٥١ ؛ التوحيدي : الأمتاع والمؤانسة ص ١٧١–١٧٣

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٠٠

النخاسين ، فبرزن فى الأدب والشعر الغناء وأقيمت الأسواق لبيعهن ، حتى بلغ سعر البعض أربعة عشر ألف دينار[١] وربما أكثر ، ولعب بعضهن دوراً كبيراً فى قصور الخلفاء والأمراء ، كما فعلت عريب التى جمعت بين الأدب والغناء . وهناك البعض ممن برزن فى اللعب على الآلات الموسيقية ، واشتهرت عبيدة[٢] الطنبورية التى جمعت بين الأدب والشعر والموسيقى ، وقد ذكرها جحظة فى كتاب «الطنبوريين والطنبوريات» ؛ ومنهن من اتصفن بحسن السلوك والأدب والتصرف مع الغناء . ذكر ابن طيفور أن جارية أهداها عبد الله بن طاهر إلى المأمون فلما دخلت عليه قال لها : غنى ياجارية فغنت وهى قائمة ، فقال لها : لم غنيت وأنت قائمة وما منعك من الجلوس ؟ فقالت ياسيدى أمرتنى أن أغنى ولم تأمرنى أن أجلس فغنيت بأمرك وكرهت سوء الأدب فى الجلوس بغير إذنك . فوهب لها مالا واستحسن ذلك منها[٣] .

أما شاجية التى عرفت بحبها للغناء والموسيقى فقيل أن المعتضد سألها يوماً عند حضورها فى دار الخلافة « هل رأيت شيئاً لم تر مثله عندنا فاستحسنته ؟ » فقالت « لا والله إلا عوداً من عود »[٤] وهى التى شهد لها المغنى جحظة بقوله : فما قولك فيمن يدخل دار الخلافة فلا يمد عينه بشىء يستحسنه سوى عود[٥] . وغيرهن كثيرات .

هذا ، وللمغنين دور كبير فى تطور الغناء والموسيقى ، بعضهم من أصل أجنبى نقلوا الثقافات القديمة وأضافوا إليها ثقافة العرب ، فبرزوا ليس كمغنين فقط بل كأدباء وشعراء — بل حتى فقهاء — مع الغناء والموسيقى . فهذا إبراهيم الموصلى[٦] الفارسى الأصل كان بارعاً فى صناعة الغناء والموسيقى ، حتى أن ثلاثين جارية ضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين فى الأوتار وتراً غير مستو ، فأخذ يشير إلى إحداهن قائلا : يا فلانة شدى مثناك ؛ فتشده وتستوى الأوتار[٧] .

---

(١) الصوى : الأدران ص١٠١
(٢) الأصفهانى ، الأغانى جـ ١٩ ص ١٣٢
(٣) طيفور ، بغداد ص ٩١
(٤) الشابشتى ، الديارات ص ٨
(٥) التنوخى ، نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٦٣ ، ٦٤
(٦) الأصفهانى ، الأغانى جـ ٥ ص ١٧٠ وما بعدها
(٧) تاريخ العرب مطول ص ٥٠١ — ٥٠٤ جـ ٢

وهكذا كان ابن إسحاق الوصلى له مقدرة وتفهم للغناء والموسيقى كأبيه ، ذكر أن يوماً فى مجلس المأمون جلست عشرة على يمين المأمون وعشرة جوارى عن يساره ومعهن العيدان يضربن بها ، وكان ابراهيم بن المهدى حاضراً ، فبدأن بالغناء والضرب ؛ فوجد إسحاق هناك خطأ من الناحية اليسرى ؛ فأنكره إبراهيم وأكد عليه إسحاق ، وظهر صحة قوله وتعيينه للخطأ ؛ فشهد له المأمون ببراعة فى هذه الصنعة وتفوقه على إبراهيم بن المهدى ؛ إذ قال لإبراهيم «لا تمار إسحاق بعدها أن رجلا فهم الخطأ بين ثمانين وتراً وعشرين حلقاً لجديد الأغارية »[1] ، ويقول الأبشيهى إن إسحاق كان يصنع الألحان العجيبة . ووصف خرداذبة للمعتمد خصائص المغنى بقوله : « قد تمكن من أنفاسه ولطف فى اختلاسه وتفرغ فى أجناسه »[2] .

وكان لاهتمام الخلفاء بالغناء أثره فى ارتفاع منزلة المغنين والغناء فى المجتمع ، فالاهتمام بالمغنين كان منذ العهد الأموى حتى قيل أن الوليد هو أول من جلب المغنين من البلدان إليه[3] . وهكذا فعل الرشيد الذى فاق جميع الخلفاء فى تقديره للمغنين — بالإضافة إلى العطاءات والهدايا — وجعلهم مراتب وطبقات[4] : أولها إبراهيم وإسحاق وابن جامع وزلزل وغيرهم ، وآخرها أصحاب المعازف والونج والطنابير . وعلى قدر ذلك تخرج جوائزهم[5] وإذا أظهر أحدهم براعة رفع إلى المنزلة العليا . وهكذا فعل برصوما الزامر وهو من الطبقة الثانية عندما طلب منه أن يزمر لغناء ابن جامع فرفض وقال : لا أزمر فإن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها ، فإما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزمر على الأولى فلا أفعل . فطلب الرشيد من صاحب الستارة أن يرفعه إلى المرتبة الأولى[6] . وماذا نقول فى تقدير خليفة للمغنين حيث يذهب بنفسه إلى دار المغنى ، كما فعل الرشيد عندما ذهب يوماً مع أربعمائة خادم أبيض إلى دار المغنى إبراهيم[7] .

(١) الأصبهانى ، الأغانى ج ٥ ص ٢٨٥
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٦٠
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧١
(٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١١٦
(٥) الجاحظ ، التاج ص ٣٩
(٦) الجاحظ ، التاج ص ٤١
(٧) الأصفهانى، الأغانى ج ٥ ص ٢١٨

وهذا المأمون الذى اشتهر عصره بالعلم والمعرفة فى جميع النواحى ، كان لا يتردد فى السماح لإسحاق المغنى أن يدخل عليه بزى الفقراء وهو سائر بجانب قاضى القضاة أحمد بن داود ، مما أثار الدهشة عند الناس والحسد لدى مخارق وعلوية[١] . هذا ، وطلب إليه أيضاً أن يدخل مع أهل العلم والأدب والرواة لامع المغنين ، فإذا أراده للغناء غنى[٢] . وسأل المأمون يوماً أن يحضر الصلاة مع الفقهاء فى المقصورة يوم الجمعة ، فأجابه المأمون «ولا كل ذا يا إسحاق» وقد اشتريت هذه المسألة بـ ١٨٠ ألف درهم»[٣] . وهكذا فعل الواثق مع المغنين . قيل كان يحضر إسحاق إلى مجلسه بدون عود ، فإذا طلب منه الغناء أعطى له عود[٤] . وكذلك الراضى[٥] والمقتدر وغيرهم . أما الخلفاء القادر والقاهر والمهتدى الذى طرد المغنين وحرم الغناء ومنع الملاهى وقبضها عليهم من الرجال والنساء والحرائر والأماء وكسر آلات الطرب وأمر ببيع الجوارى على أنهن سواذج ... إلى آخره .

وهناك سبب آخر هو تفهم واطلاع ومعرفة بعض الخلفاء لفن الغناء ، واهتمامهم الشديد بدراسته وتطوره ، وعلى رأسهم الواثق والمعتمد . فالأول له معرفة عميقة بالأهزاج والألحان والأصوات[٦] ، وكان يأمر المغنين بغناء ما يخرجه من الأصوات ويهتم بالتلحين إلى درجة المقارنة بينه وبين إسحاق ، ويشهد له المؤرخون ، فقال السيوطى « وكان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء وله أصوات وألحان بلغت حوالى المائة »[٧] .

أما المعتمد ــ كما يذكر عنه المسعودى[٨] ــ فكان شغوفاً بالطرب وبفن الغناء والموسيقى ، وكان ملازماً لابن خرداذبة الكاتب المعروف فى الغناء والموسيقى ، إذ

---

(١) الأصفهانى ، الأغانى ج ٩ ص ٢٧٦
(٢) و (٣) الأصفهانى ، الأغانى ج ٩ ص ٢١٥
(٤) الأصفهانى ، الأغانى ج ٩ ص ٢٨٦
(٥) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦١ ، قيل كان لا ينصرف عن مجلسه مغن أو مغنية إلا ويدفع لهم بصلة أو كسرة قلت أم كثرت كما كان يفعل أبو العباس .
(٦) الأصفهانى ، الأغانى ج ٩ ص ٣٣٥
(٧) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٣٦
(٨) المسعودى ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٦

دخل عليه يوماً وفى مجلسه عدد من الندماء فسأله المعتمد عن أنواع الطرب ، فقال على ثلاثة أوجه ؛ ضرب محرك ينعش النفس وضرب شجن وحزن؛ وضرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس ... إلى آخره .

أما آلات الطرب فتتكون من المزمار ، الناى[1] ، الرباب[2] ، العود[3] ، الطنبور[4] ، الرق [5] ، الطبل[6] ، المعزفة[7] ، السكلارنيت[8] ، السرناى[9] ، الجنك[10] ، الونج[11] إلى آخره .

فقيل ناى[12] زنامى إخترعه زنام ، وأول من ضرب فى هذه الآلة فى عهد المعتصم عاصى الرشيد والمعتصم والواثق والمعتز . أما العود فقد عرف عند العرب وهو من الآلات الوترية ، ووصفه الشعراء بقولهم كثيراً فى شعرهم[13] وضرب عليه العرب كثيراً ، ويعتبر من الآلات المرغوبة ؛ أخذ من الفرس ، واستطاع زلزل أن يحدث الضرب على العود بعيدان الشنابيط ، وكانت قبلا على عمل عيدان الفرس ، فجاءت عجيباً من العجب[14] ووصف الخوارزمى العود وصفاً دقيقاً وكيفية الضرب عليه[15] .

أما الطنبور فيعتبر من الآلات الموسيقية المشهورة والمهمة عند العباسيين ، وسمى أحياناً من يدق عليه باسمه كعبيدة الطنبوريه ، واشتهر بالضرب عليه سليمان

(١) الشابشتى ، الديارات ص ٧١
(٢) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧ ؛ التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٩٣
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥١
(٤) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ٧٠
(٥) الشيرازى ، المسبة ص ١٠٩
(٦) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٨
(٧) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧
(٨) و (٩) الشابشتى ، الديارات ص ٧٢
(١٠) و (١١) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧
(١٢) البحترى ، الآداب السلطانية ص ٣٢٠
(١٣) الشابشتى ، الديارات ص ١٦٨
(١٤) الأصبهانى ، الأغانى ج ٥ ص ٢٠٢
(١٥) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧ — ١٣٨

الطبال[1] وابن القصار فى مجلس[2] المعتز ، وكلاهما من المغنين فى القرن الثالث الهجرى . وأشهر أنواع الطنبور الميزان البغدادى الطويل[3] . وفى المسعودى وصف شامل للآلات الوترية كآلة المربع والمستطيل والمدورة ، إلى آخره[4] . أما الطبل فيقول المسعودى أنه أخذ من الفرس[5] . والرباب وهو ما يجىء حتى يحجى صوته ولايضرب ، عرفت عند الفرس. والقثارة واللوزا وغيرها أخذت من الهنود[6]. وهناك تشابه مابين المزمار[7] والكلارنيت[8] ، وهو آلة ينفخ فيها كالمزمار، وصنعها أحمد بن موسى المهندس ، وعند التصفير يرسل منها الماء فيسمع لها متكونة من عدة دفوف يسمع لها صوت كالجلجل[9] ، وهناك آلات كثيرة أخرى كالشهرود[10] اخترعت فى القرن الثالث الهجرى (إخترعها حكيم بن أحوص السفدى) وآلة بوران التى سميت الآلة[11] باسمها وغيرها من الآلات .

(١) الشابشتى ، الديارات ص ٩٩ ؛ الأصفهانى ، الأغانى ج ٢ س ٢٨ - ٣١

(٢) الشابشتى ، الديارات ص ١٠٧

(٣) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥١ — ٢٥٢

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٨

(٦) ابن الجوزى ، المدهش ص ٢٣٢

(٧) الوشاء ، الموشى ص ١٩١

(٨) الشابشتى ، الديارات ص ٧٢

(٩) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١٠) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ص ١٣٧

(١١) سيد أمير على ، ص ٣٩١

المجالس الاجتماعية فى العصر العباسى

١ — المجالس الغنائية :

أقيمت بالدرجة الأولى فى قصور الخلفاء وأصحاب المراتب العالية ، واشتهرت هذه فى العصر العباسى ، خاصة فى عهد الرشيد والمتوكل والمقتدر والواثق . ولعقد مثل هذه المجالس مناسبات عديدة ، منها أنها أقيمت فى أول يوم الخلافة ، إذ يدخل المثقفون على الخليفة الجديد ويغنون له أبيات شعرية تمجد الخليفة الجديد ، وقيل إن إبراهيم الموصلى أول من غنى للرشيد فى اليوم الأول ؛ قال[١] :

إذا ظلم البلاد وتجلتنا   منها ردن الإمام لها ضياء

بها ردن استقام الصراع فينا   وغاض الفجور وانفسح الرجاء

أو أن تقام لمجرد التسلية والإيناس والاستماع للغناء والموسيقى ، خصوصاً فى عهد هارون[٢] والواثق والمتوكل والمعتز ، فيكثر فيها الشراب ويشترك الندماء والجوارى . وذكر أن الواثق أقام مجلسين متتاليين فى يوم واحد ، وأقامها أيضاً فى يومين متتاليين[٣] .

أو لإزالة الشعور بالانقباض ، وإزالة حالة الغضب والهياج ، كما فعل المنتصر يوماً ، إذ دعى بينان بن الحرث العواد وكان مطرباً عبيداً فأحضره فغناه .

لقد طال عهدى بالإمام محمد   وما كنت أخشى أن يطول به عهدى[٤]

أو قد تقام فى مناسبات الأعياد ، خصوصاً النوروز والمهرجان . أمر الراضى فى

---

(١) الأصفهانى ، أغانى ج ٥ ص ٢٠٣

(٢) كان الرشيد يجمع المغنين والموسيقيين دائماً للتسلية فجمع يوماً ابراهيم وزلزل وبرصوما فكونوا جوقاً موسيقياً ، المغنى والزامر والضارب « أغانى ج ٥ ص ٢٤١ » ؛ النويرى ، نهاية الأرب ج ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، مجلس الرشيد الذى حضرته ألف جارية فى أحسن زى .

(٣) الشابشتى ، الديارات ص ١٠٧

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ٧٨

ليلة عيد المهرجان بإحضار الجلساء ، وقعد فى مجلس التاج على دجلة ، وأجاز فى ذلك اليوم من الندماء والمغنين والملهين بالدنانير والدراهم والخلع وأنواع الطيب ، فلم يكن أحسن منه فرحاً[1] .

وتقام أيضاً فى أعياد المسيحيين، إذ يشترك المسلمون فى تلك المناسبات — حتى الخلفاء — فالمأمون جلس فى يوم الشعانين ، وبين يديه عشرون وصيفة راميات ، تخرجن بالديباج الرومى وعلقن فى أعناقهم صلبان الذهب، وفى أيديهن الخوص والزيتون، وغنى إبراهيم

ظبـــاء كالدنانـــير ملاح فى القـــاصير
جلاهن الشعـــــانين علينـــا فى الزنانير

ورقصت الجوارى أنواع الرقص والمأمون فى حالة سكر ، ثم أعطى المغنى ألف دينار ووزع على الجوارى ثلاثة آلاف دينار[2] .

وتقام فى مناسبة ختان الأولاد ، واشتهرت حفلة ختان عبد الله المعتز ابن المتوكل ، حضر المجلس أربعمائة بليه ، أى راقصة، عليهن أنواع الثياب، وحملن فى أيديهن أنواع الزهور والرياحين والنرجس والفواكه ، ونثرت على الرؤوس ، وحضر المجلس المغنون والموسيقيون أمثال عمرو بن بانة وابن المكى وسليمان الطبال وصالح الدقاق ، وغيرهم كثيرون[3] .

هذا ، وقد تجرى فيها مناظرات ومناقشات تدور حول صنعة الغناء والموسيقى وتاريخهما وتطورهما ، وكذلك عن الرقص والتحكيم بين المغنين والموسيقيين[4] .

وأحياناً تقام حفلات موسيقية فقط خاصة تسمى (بزيات الخاتون) يشترك فيها مائة عازف[5] .

أما طريقة الجلوس بالنسبة إلى الخلفاء العباسيين فمنهم من لم يظهر أمام الندماء

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦٢
(٢) الأصفهانى ، الأغانى ج ١٩ ص ١٣٨
(٣) الشابشتى ، الديارات ص ٩٩
(٤) المسعودى ، مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٧
(٥) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧

والمغنين ويستمع إليهم من خلف الستارة[١] ، كما فعل أبو جعفر المنصور . ومنهم من اختفى[٢] ، ثم ظهر ، كالمهدى والهادى والرشيد . أما المأمون فقد امتنع عن إقامة مجالس غنائية لمدة سنتين ثم ظهر أمام المغنين[٣] . ومنهم من اهتم بها اهتماماً كبيراً إلى درجة انشغاله بها ليالى متتالية لحبه الطرب ، كالواثق[٤] والرشيد[٥] وغيرهم .

أما الجلوس فى المجلس فيكون بدرجات ، فالمتقدمة فيها العلماء وأهل الأدب والرواة ، ثم تأتى طبقة الندماء ثم المغنين . وقد طلب إسحاق يوماً من المأمون الجلوس مع أهل العلم والأدب بدون غناء ، وإذا غنى يتقدم ويجلس مع المغنين ثم يرجع مرة أخرى . وحتى المغنين فقد رتبهم الرشيد بمراتب وصنوف مختلفة ، تبعاً لمقدرتهم الغنائية والموسيقية[٦] . وأما المجالس التى تحضر فيها المغنيات ، فتفصل بينهن وبين الخليفة أو الرجال ستارة ، ويقف شخص يشرف على إدارة حفلة الغناء يسمى بصاحب الستارة[٧] عليه أن ينفذ مايطلبه الخليفة من المغنيات . قيل أحضرت شارية فى مجلس المعتز[٨] لتغنى ، وجلست خلف الستارة ، وأخذت تناقش الرجال فى الغناء[٩] . وقد وصف المؤرخون الستارة بأنها مطرزة بالذهب[١٠] ومن خلفها الجارية تغنى .

والظاهر أن هناك بعض الجلسات ، جلس الخلفاء فيها مع المغنيات بدون ستارة . ذكر أن المأمون جلس يوماً وعن يساره تسعة مغنيات وعن يمينه تسعة مغنيات أيضاً ؛ وطلب منهن أن يغنين ، وطلب من إسحاق وإبراهيم أن يحكما بينهن[١١] وأكثر من ذلك أن المقتدر كان يجلس مع الجوارى خلف الستارة التى تفصله عن المغنين

---

(١) الجاحظ : التاج ، ص ٣٣

(٢) الجاحظ : التاج ، ص ٣٣ ؛ ابن طيفور ، بغداد ص ١٧٩

(٣) الجاحظ : التاج ص ٣٣

(٤) الشابشتى ، الديارات ص ١٥٧

(٥) أغانى ، جـ ٥ ص ١٦٦ إخراج ابراهيم من السجن لإحياء حفلة غنائية فقط .

(٦) الجاحظ ، التاج ص ٤١

(٧) الجاحظ : التاج ، ص ٣٣

(٨) الشابشتى ، الديارات ص ٧٩

(٩) الشابشتى ، الديارات ص ٧١

(١٠) البيهقى ، المحاسن والأضداد ص ٤٠١

(١١) ابن طيفور ، تاريخ بغداد ص ١٠٥

والموسيقيين ، فإذا أراد شيئاً أرسل شخصاً يطلب منهم الغناء . وبين يدى كل مغن كأس فيه خمسة أرطال من النبيذ وقدح ومغسل وكوز ماء . وقد تغنى الجوارى أيضاً[1].

وكما كانت المجالس الغنائية تعقد فى قصور الخلفاء ، كانت تعقد أيضاً فى بيوت الأمراء والوزراء . وقد لاتقل أبهة وروعة وبذخاً وإسرافاً عن سابقتها ، ويحضرها حتى القضاة الذين قد يطرحون الحشمة ليلا ثم يرجعون إلى وقارهم . ومن بينهم أشهر القضاة كابن مترببة وابن معروف والقاضى التنوخى المعروف . قيل ، حضروا فى مجلس الوزير المهلبي الغنائى وانغمسوا بالطرب ونسوا الوقار إلى درجة وضع كل منهم لحيته فى شراب من قطر بل أومكبراً بكأس من الذهب من ألف مثقال ، ثم يشرب أكثره ويرش بعضهم على بعض ، ويرقصون وعليهم المصيفات إلى آخره ، وقال الشاعر فى ذلك .

مجالس ترقص القضاة بها ‏ ‏ إذا انتشوا حلوة فى مخانق الدم
وصاحب يخلط المجون لنا ‏ ‏ بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شيبه عبثاً ‏ ‏ أمل مثل حمرة العلم
حتى تخال العيون شيبته ‏ ‏ شيبة فصلان ضرجت بدم[2]

وعرف أبو الحسن على بن محمد بن الفرات بأبهة الحفلات الغنائية التى كانت تقام فى داره ، فنى إحدى الحفلات أحضر المغنيات خلف الستارة ، ومن بينهم الجارية بدعة فغنت وضربت على العود ، فاستحسن أبو الحسن ما أتت به .

فطرب وقال شعراً :

إذا بدعة جردت عودها ‏ ‏ فذلك فى ضربها كل شعب[3]
تغنى — فتجنى ثمار القلوب ‏ ‏ وتهدى سروراً إلى كل قلب

---

(١) الأصفهانى ، الأغانى ج ٥ ص ٢٢٢
(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٣٢
(٣) الصابىء ، الوزراء ص ٢١٤ — ٢١٥

٢ — مجالس القصاص :

مجالس القصص نوعان : عامة وخاصة ، فالعامة يجتمع فيها نفر من الناس للقاص ويعظهم ويذكرهم . وأما الخاصة فقد أوجدها معاوية ، يقف القاص بعد صلاة الصبح ويذكر الله ويدعو للخليفة[1] . وهذه المجالس تعقد على شكل حلقات[2] في المساجد[3]، ثم أخذت تعقد في الطرقات[4] والأسواق[5] والمقابر[6] . فالإسلام لم يمنع القصاص من القيام بمهمتهم بل شجعهم وذكرهم[7] بالحسنى في القرآن ، قال تعالى « نحن نقص عليك أحسن القصص »[8] ، وقال « فأقصص القصص لعلهم يتذكرون »[9] وغيرها من الآيات ، كما أن الرسول الأعظم (ص) ذكرهم وامتدحهم[10] . وهذه الآيات دلت على أن القصص لم تكن وليدة الإسلام ، بل كانت قبل ذلك عند العرب ، ولكنها أصبحت عند ظهور الإسلام في القرن الأول الهجرى عبارة عن قصص دينية[11] تهدف إلى معرفة الخالق والتمسك بالأخلاق إلى غير ذلك من الحسنات . واختلف المسلمون في تعيين زمن ظهور مجالس القصص ، فمنهم من قال في عهد عمر بن الخطاب ، والمقريزى قال[12] في عهد معاوية ؛ وربما كانت في عهد عثمان . ولكن معاوية أحدث القصص الخاصة ومنع القصص العامة وسمح برواية القصص الخاصة ؛ وفيها يجلس القاص بعد صلاة الصبح يدعو للخليفة ولأهل

---

(١) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١٠٣

(٢) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١١٤

(٣) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٣

(٤) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٢ ؛ الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦٨

(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦٦

(٦) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ص ١٢٢

(٧) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ص ١٢٠

(٨) القران الكريم ، سورة يوسف آية ٣

(٩) القرآن القريم ، سوره الأعراف آية ١٧٦

(١٠) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١٤١

(١١) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨

(٢) الخطط ، ج ٢ ص ٢٥٣

(١٣) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٠١

ولايته ولحاشيته إلى آخره[١] ، بعد الدعاء للنبي (ص) . فالقاص مهنته إلقاء الآيات والأحاديث وأخبار السلف[٢] والحكايات[٣] على الناس . والظاهر أنه في القرن الأول الهجري — حتى منتصف الثاني — لا يمكن التمييز بوضوح بين الواعظ والقاص ، فأطلق على القصاص إسم الوعاظ المتطوعين[٤] لأن كلا المهنتين كانت تخدم المجتمع خلقياً ودينياً ، لذا لم يتعرض أحد للقصاص خصوصاً العلماء الذين رضوا عنهم لأنهم كانوا يبثون روح الزهد بين العامة . ومنهم إبراهيم التيمي[٥] القصاص ، كان قاضياً كقاضي مكة الذي كان يروى عن الصحابة مثل ابن هريرة ، ومنهم الخطباء المثقفون كأبي بكر الهندي ومعطوف[٦] ومنهم البلغاء العظماء من قراء القرآن القائم بالتدريس ، ومنهم العلماء العارفون للغات أجنبية بجانب العربية كابن سيار الأسراري[٧] . حتى أنه كان يترجم من اللغة العربية العظمى إلى الفارسية العظمى وبالعكس بطلاقة ، أثناء وعظه ، وهكذا كان غيرهم . ولكن لم تستمر هذه الحالة ، إذ جاء بعد هؤلاء العلماء طبقة من القصاصين قليلي المعرفة حتى عن الأنبياء والمرسلين[٨] غايتهم الكسب والتسلية واللعب بعقول العامة [٩]، وقد ظهروا في القرن الثالث حيث أخذت الروح الدينية[١٠] والأخلاقية تختفي من مجالسهم تدريجياً ، حتى جاء القرن الرابع ، وإذا بالقصاص ينزلون إلى غمار العامة ، وصاروا يقصون لهم القصص الدينية الخرافيـــة والأساطير والنوادر في المساجد والطرقات ، وكان يجتمع إليهم رجال ونساء فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم لأخذ الأموال[١١] .

هذا الانحراف يرجع إلى تدهور شخصية القاص من جميع الوجوه ، وإلى مستوى

---

(١) الخطيب ، تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٠١
(٢) السبكي ، معيد النعم ص ١١٣
(٣) المسعودي ، مروج الذهب ج ٨ ص ١٦١
(٤) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١٠٣
(٥) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ج ٢ ص ٩ — ٥٠
(٦ و ٧) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ٣٦٧
(٨) الثعالبي ، يتيمة الدهر ٣ ج ص ٥٢
(٩) ابن الجوزي ، تلبيس ص ١٢١ .
(١٠) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ٣٦٧ .
(١١) المكي ، قوت القلوب ج ١ ص ١٤٩ .

عقلية العامة . فالقصاص الكذابون انتشروا فى العراق فى القرن الثانى الهجرى ، ومنه انتقلوا إلى آسيا الصغرى والحجاز[١] وهؤلاء استغلوا جهل العامة من جهة ومحبتهم لهم من جهة ثانية ، إذ قيل أن العامة كانت تدافع عن القاص حتى لوكان غير لائق بهذا المنصب . حكى أن عثمان الوران قال : رأيت العتابى يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام فقلت له : ويحك أما تستحى ؟ فقال لى : أرأيت لو كنا فى دار فيها بقر كنت تستحى وتحتشم أن تأكل وهى تراك ؟ فقال : لا . قلت : فاصبر حتى أعلمك بأنهم بقر . فقام ، فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أن من بلغ لسانه أرنبة أنفه لن يدخل النار . فما بقى واحد إلا وأخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقدره حتى يبلغها أم لا . فلما تفرقوا ، قال لى العتابى : ألم أخبرك أنهم بقر[٢] ؟

وهناك قصص كثيرة وحوادث تدل على دفاع ومحبة العامة للقصاص ورغبتهم فى الحضور لمجالسهم أينما عقدت .

هذا ، ومن القصاص من اتصف بفساد الأخلاق كأبى كعب القاص[٣] وأبى سالم الذى قلع باب المسجد يوماً لأن باب داره سرقها اللصوص ، وعندما قالوا له : ماتصنع ؟ قال : أقلع هذا الباب فإن صاحبه يعلم من قلع بابى[٤] ومنهم من يذكر بدعاً[٥] وأخباراً كاذبة لا علاقة لها بالدين ، ومنهم من ينوح على الموتى ويصف ما يجرى لهم من البلاء والغربة إلى آخره ، أو قد ينشد أشعاراً غزلية ويقول محبة الله ، أوقد يحرك يديه ويصفق بها ويحرك رجليه ويضرب بها الأرض إلى آخره من حركات الجسم التى يريد بها أن يجذب إليه أنظار العامة ومن ضمنهم النساء ، كما يقول ابن الجوزى[٦] . أو قد يفسر بعض الكلمات تفسيراً غير صحيح لقلة معرفته باللغة العربية أو لكونه عجمياً . قيل سؤل أحد القصاص عمن تسميه العصفور ، فأجاب : لأنه عصى وفر !

---

(١) آدم متز : الحضارة جـ ١ ص ١٢٨
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٣ ص ١١٤
(٣) الجاحظ : الحيوان جـ ٣ ص ٢٤ — ٢٥
(٤) ابن الجوزى : الحمق والمغفلين ص ١٢٥
(٥) الغزالى : إحياء العلوم جـ ٢ ص ٣٣١
(٦) تلبيس إبليس ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

وقيل له : فالطفشيل ، قال : لأنه طفا وشال[١] ! وحكى عن مدى جهالة العامة والقاص أيضاً أن أحدهم وقف يوماً وهو يقول : إذا مات العبد وهو سكران وحشر وهو سكران ، فقال رجل فى طرف الحلقة لآخر : هذا والله نبيذ جيد يساوى الكوز منه عشرين درهما[٢].

هذا ، وقد اقتبست القصص الإسلامية من القصص الهندية كـكليلة ودمنة[٣] طريقة التحدث عن ألسنة الطيور والحيوانات ، ومن القصص الفارسية كألف ليلة[٤] وليلة الحوادث الخيالية البعيدة عن الدين ، فألف سهل بن هارون[٥] وعلى العتابى على لسان الحيوانات ، وقام الجهشيارى أيضاً بكتابة ألف سحر وسحر[٦] ، ولكنه توفى ولم ينته الكتاب ؛ بالإضافة إلى دخول العقائد وآراء الأديان القديمة[٧] إلى مجلس القصاص . ولعب الوراقون أيضاً دوراً كبيراً فى دفع القصاص إلى الانحراف ، فأخذوا يصنفون ويؤلفون القصص الخيالية ، كما فعل ابن العطار وابن دلان[٨] ، واستمرت القصة ومجالس القصاص فى التدهور فى القرن الرابع وحتى القرن الخامس، حيث شاع انتشار الحكايات والأسمار وكثر عدد المستمعين لمجالسهم من الرجال والنساء على السواء[١٠] .

وقد اتخذوا بالإضافة إلى ما ذكرناه طرقاً أخرى لكسب المال ، فنجد أحد القصاص يقف بطرف الطريق يقص عن فضائل على ، وآخر يقف فى الطرف الثانى يقص عن

---

(١) الحموى ، معجم البلدان جـ ١ ص ٣٩٣

(٢) ابن الجوزى ، أخبار الظراف ص ٩٠

(٣) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٣٧

(٤) المسعودى ، مروج الذهب جـ ١ ص ٤٣٧

(٥) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٣٧

(٦) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٣٧

(٧) ابن النديم ، الفهرست ص ٤٥٦

(٨) ابن النديم ، الفهرسهت ص ٤٣٧

(٩) القفطى ، تاريخ الحكماء ص ٣٣١

(١٠) ابن الجوزى ، تلبيس ١٢٢

فضائل أبي بكر ؛ والناس تدفع لهم النقود[1] كل حسب ميوله ، فلا يفوتهما درهم . أوقد يتفقون مع أحد الأشخاص أن يجالس مجلسهم ويسمى بالكوز ، فيأمر القاص أصحابه باعطائه النقود ، ثم إذا تفرقوا تقاسموا ما أعطوه[2] . هذا ومن جراء ما وصلت إليه مجالس القصاص وقف في وجههم الخلفاء ، وأصحاب السلطة من جهة ، والعلماء من جهة أخرى . فمن جراء إثارتهم للفتن ، وكسبهم الأموال بدون استحقاق منعهم بعض الخلفاء من الجلوس في المجلس وإلقاء القصة للناس . وقد حدث هـذا في سنة ٢٤٨[3] ، إذا أمر المتضد بمنع القصاص من الجلوس في المساجد والطرقات ، بعد حصول الفتنة بين السنة والشيعة . وفي سنة ٣٦٧[4] أيضاً منع عضد الدولة القصاصين من الظهور وأعتبرهم آفة المجتمع الذي تعرض للحروب الأهلية المذهبية وإلى الجوع والمرض والهلاك . وكذلك في سنة ٤٠٨[5] أمر القادر بضرب القصاص واندفع في محاربة المذهب الشيعي من جراء موقف القصاص . وفي كتب التاريخ حوادث كثيرة من هذا القبيل خلال العصور العباسية المتأخرة على الأخص .

أما العلماء ، فقد وقفوا لهم بالمرصاد وحاربوهم بقدر ما يملكون ، ولو أن القصاص كانوا هم المسيطرون على المجتمع في القرون الثالث والرابع والخامس . فمن هؤلاء المسعودي الذي وصفهم بالكذابين[6] ، ووصفهم الهمداني بالمشعوذين ، وغيرهم كالبيروني والمقدسي والسيوطي وابن الجوزي ، وغيرهم .

أما من علماء الدين فهؤلاء كانت لهم الأفضلية والأسبقية في الوقوف في وجه القصاص ، فيذكر أن مالك بن أنس منعهم من دخول مسجد المدينة[7]. وأحمد بن حنبل بعد أن كان يمجدهم بقوله « ما أحوج الناس إلى قاص »[8] ، انقلب عليهم لانحطاط

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦٦

(٢) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ٣ ٣٦٢

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ١٨٢

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٣ ص ٨٨

(٥) الذهبي ، العبر ص ٦٥ — ٦٦

(٦) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٦ الطبعة الأوربية

(٧) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١٤١

(٨) ابن الجوزي ، تلبيس ص ١٢٢

مستواهم الأدبى والخلقى والاجتماعى» . وكذلك المحدث المشهور الدارقطنى ، وغيرهم من علماء الدين .

وبالرغم من تقرب ومحبة العامة لهم ، إلا أن هناك جماعات لم تتحمل المستوى المنخفض للقصاص . حكى أن رجلا جاء إلى قاص وهو يقر ألا يجرعه ولا يسيغه[١] فقال له : اللهم اجعلنا ممن يتجرعه ويستسيغه . وكان الناس أيضاً يكفرونهم وينسبونهم إلى الخوارج[٢].

٣ — مجالس الوعاظ :

كانت لمجالس الوعاظ أهمية كبيرة فى العصور الإسلامية الأولى (القرنين الأول والثانى) حيث يقوم الواعظ مقام المدرس ، ويحضر حلقته فى مجلسه عامة الناس بدون تمييز ، ويأخذ على عاتقه تثقيف الناس ثقافة دينية ، يشرح لهم الشرائع ، ويجيب على جميع الأسئلة ؛ وأطلق على بعضهم عندئذ الأساطين [٣] لأنهم يفتون الناس فى أساطين المسجد . وهناك دوافع لاستمرار مجالس الواعظ وهى شعور الناس بالروح الدينية التى لا زالت عميقة فى نفوسهم وكون الواعظ نفسه فقيهاً عالماً[٤] زاهداً ولاستمراره على التمسك بغايته الأساسية فى الوعظ ، ألا وهى بث روح الإسلام وإرشاد العامة إلى الطريق الدينى السليم[٥] .

وهناك نوع ثان من مجالس الوعظ وهو مجالس الوعظ الخاصة وهى على قسمين وعظ شخصى ، وهذا قد يتم بين الفرد والواعظ كما فعل كثير من الخلفاء[٦] إذ يسألون الواعظ أن يعظهم . ووعظ يتم بين الواعظ ونفر من الطلاب ويسمون بأهل الزوايا[٧] لأنهم يتخذون مكاناً منزوياً فى المسجد ، أى فى إحدى زواياه . وهذه

---

(١) ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين ص ١٢٥
(٢) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١٠١
(٣) المكى : قوت القلوب ج ٢ ص ١١
(٤) ابن الجوزى ، تلبيس ص ١٠٢
(٥) البيهقى : المحاسن والمساوىء ج ٣٣٨ وص ٣٤٤
(٦) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ١١٣
(٧) المكى : قوت القلوب ج ٢ ص ١١

الحلقات علمية غايتها تعليم الطلبة أمور الشرع(١) . ولكن هذه المجالس إنحرفت بتطور المجتمع العباسى ، خصوصاً فى القرنين الثالث والرابع ، إذ تعرض لمجالسهم الجهال من العوام والنساء كما يقول ابن الجوزى (٢) فتركوا العلم واهتموا بالكسب المادى ، فتنوعت عندهم البدع والخرافات، فمنهم ينزل فى وعظه إلى مستوى (٣) واطىء من حيث المعرفة واللغة ، وقد يكون أعجمياً تنقصه البلاغة . حتى أن الأمين العلوى حضر مجلس واعظ أعجمى ، فمدحه الواعظ ثم قال : أى شىء أقول فيك وأنت من بيت الطهارة ثم قال : الدعاء فى الخلوة ربما دخله نفاق ، وأنا أدعو لك فى الخلاء . قال : فقال لى الأمير مارضا من بيت الماء (٤) .

هذا ، ومنهم من خلع ثياب الزهد البسيطة والمرقعة ولبس الثياب الفاخرة الثمينة فيفتتن الناس به ويكون له جماعة ، كمحمد بن أحمد الواعظ الشيرازى(٥) وكذلك بن ميمون الواعظ (٦) المعروف الذى عرف بلبسه أحسن الثياب وبأكله لأطيب الطعام (٧) . ومنهم من أخذ بالوعظ خارج المساجد فى مقابر رجال الدين ــ كمقبرة أحمد بن حنبل ــ يعقد فيها مجالس للوعظ، ومقبرة الشيخ معروف (٨) ومنهم من يعقد مجلسه فى الأماكن الشعبية كمحلة (كباب البصرة والحربية) وغيرها من الأماكن الكثيرة (٩).

والمفروض فى الواعظ أن يكون عنصراً صالحاً للمجتمع ، فلا يثير الفتن والإضطرابات ولا يستغل كآلة بيد أصحاب السلطة ، كما حصل فى القرنين الثالث والرابع ، إذ أصبحوا كالقصاص عاملا مثيراً للفتن المذهبية بين السنة(١٠) والشيعة وبين

---

(١) آدم متز : الحضارة ج ٢ ص ١٠٦
(٢) ابن الجوزى : تلبيس ص ١٢٠ — ١٢١
(٣) الغزالى : إحياء العلوم ج ٢ ص ٣٣١
(٤) ابن الجوزى : الحمق والمغفلين ص ١٢٦
(٥) ابن الجوزى : المنتظم ح ٨ صفحة ١٣٤
(٦) ابن الجوزى : المنتظم ، ح ٧ صفحة ١٩٨
(٧) آدم متز ، الحضارة ، ح ٢ صفحة ١١٢
(٨) ابن الجوزى ، المنتظم : ح ٩ صفحة ٨٩
(٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، ح ١٠ صفحة ٣٠
(١٠) أبو الفدا ، ح ٢ صفحة ٨٢

مذاهب السنة كالحنبلية ، والشافعية ، إذ استغلت الوعاظ هذه المذاهب فى التهجم على المذاهب (١) الأخرى . فمن الحوادث المهمة سنة ٣١٨ (٢) حدوث الفتنة الكبرى بين الحنابلة والعامة حول تفسير قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » فقالت الحنابلة معناها يقعده الله على عرشه وقال غيرهم بل هى الشفاعة . وكذلك حادثة الاسفرايينى (٣) والأكنانى اللذين كادا أن يقتلا . وكذلك فى حوادث سنة ٤٦٩ (٤) و٣٥٢ (٥) ، وغيرها ...

ومن الحكام من يقف بجانب أحد المذاهب ؛ فيطلب من واعظ المذهب أن ينشر ويعلن عن طريق وعظه ما يكنه الحاكم ، فيكون الواعظ خير عامل للدعاية بيد السلطة . وحوادث سنة ٤٠٨ (٦) خير دليل على ذلك ، إذ طلب الخليفة القادر بالله ضرب الشيعة ومنع القصاص ، فاستعمل الوعاظ فى ذلك . وتكرر هذا عند حدوث الفتنة بينهما والراضى (٧) فى موقفه ضد الحنابلة ومعاقبته لهم عن طريق الوعاظ . وحادثة سنة ٣٥٤ فى عهد بنى بويه عندما طلبوا من الوعاظ الاحتفال بيوم عاشوراء ولعن معاوية (٨) وفى إقامة الاحتفال بعيد الغدير (٩) سنة ٣٨٩ ، وأقام السنة العيد بيوم غار حراء وغيرها من الحوادث . .

هذا ، ومن الوعاظ من له القابلية والمقدرة على مسايرة السلطة (الخليفة) بمقدرته على الوعظ البليغ ، كما عرف ابن سمعون الواعظ المشهور الذى استطاع أن يجعل الخليفة الطائع فى حالة بكاء عندما أرسل عليه ليؤنبه لتعرضه على الأمام على ، فشعر ابن سمعون بذلك وانقلب فى وعظه يمدح علياً وما زال يعظ حتى أبكى الطائع (١٠) . وهكذا استطاع أن يتخلص من عقوبة عضد الدولة عندما استمر فى

---

(١) أبو الفدا ، جـ ٢ صفحة ٧٤ . السيوطى تاريخ الخلفاء صفحة ١٥٤

(٢) الذهبى ، العبر ، جـ ٣ صفحة ٦٥

(٣) ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ ٧ صفحة ٨٨

(٤ ، ٥) الذهبى العبر ، جـ ٣ صفحة ٩٨

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٦ صفحة ٢٤٨

(٧ ، ٨) الثعالبى ، ثمار القلوب صفحة ٥١١

(٩) المقريزى ، الخطط جـ ٢ صفحة ٢٢٢

(١٠) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٧ صفحة ١٩٩

التحدث والجلوس في المسجد ، ولم يأتمر لامر المنع للقصاص من المساجد(١) .

ومن الوعاظ من ابتدأ بقراءة شعر في مجلسه بدل الآيات .. حكى في أبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي(٢) الواعظ المشهور أنه ابتدأ بشعر عندما صعد على المنبر وقال :

مواعظ الواعظ لن تقبلا ... حتى يعيهـــا قلبه أولا
ياقوم من أظلم على واعظ ... خالف ماقد قاله في المــلا
أظهر بين الناس إحسانه ... وبارز الرحمن لما خلا(٣)

هذا ،وفي عهد إنحراف الوعاظ إزداد عدد النساء (٤) في المساجد . ومن الوعاظ من لم يضع حائلا (٥) بينهم وبين الرجال . ويؤكد الغزالي على منعهن من الحضور إذا أدى ذلك إلى الفتنة (٦) ومن الوعاظ من يتزين للنساء ، ويتكلم مستعملا حركات وإشارات كثيرة مع كثرة الإشعار ، فتحضر النساء مجلس هذا الواعظ ، ويؤدي إلى إنحرافها، فعلى الواعظ أن يظهر بمظهر الورع والهيبة والسكينة والوقار ، وزيه زي الصالحين(٧) .

ومن الوعاظ من يعتقد أن في التخويف والتعنيف والشدة في القول عبرة للمستمع ، قيل إن أحد الوعاظ حضر للمأمون لوعظه فأستعمل العنف في القول ، فقال له المأمون : يارجل أرفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني ، وأمره بالرفق متمثلا بقوله تعالى (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) (٨) .

ومن الوعاظ من يستغل مجلسه فيثير الفتنة بالتشنيع على واعظ آخر منافس له ، لذلك كانت السلطة تراقبهم ، وتناقش من يسيء منهم التصرف ، وقد تمنعه من الوعظ أو تطرده خارج البلاد ، أو قد تصدر مرسوماً يوقع عليه القضاة الفقهاء بعد توقيع

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٧ صفحة ٢٠٠
(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، صفحة الصفوة ، ج٤ صفحة ٧١
(٣) متز الحضارة ، ج ٢ صفحة ١١٥
(٤) ابن الجوزي ، تلبيس ، صفحة ١٢٠
(٥) الغزالي ، إحياء ، ج ٢ صفحة ٣٣١ . ابن الجوزي ، تلبيس ، صفحة ١٢١
(٦،٧) الغزالي ، إحياء ، ج ٢ صفحة ٣٣١
(٨) الغزالي ، إحياء ج ٢ صفحة ٣٢٩

الخليفة ، ويوزع على الوعاظ لتلاوته فى حلقاتهم ، وذلك عندما تحدث منازعات مذهبية فتنشط بعض العناصر لبث آرائها بين الناس . هذا ولا ننسى دور العامة فى إستمرار الوعاظ فى إنحرافهم ، حيث يتحمسون ويقفون إلى جانبهم ، ويدافعون عنهم لأنهم يغذون خيال العامة ويشاطرون المكدين والشعراء فى ذلك ، حتى قيل أصبحت صناعة الوعاظ (أعلى مرتبه من ساسان)[1] .

---

(١) متز : الحضارة ، جـ ٢ صفحة ١١١ .

آل محمد
بيت الرئاسة فى عشائر شمر الجربا

دراسة فى الزعامة العشائرية العراقية فى القرن التاسع عشر

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

قد يتبادر إلى الذهن أن دراسة تاريخية لعشيرة عربية بدوية لن تخرج عن تسجيل منازعاتها مع الحكومة ومع العشائر الأخرى . ولكن هناك بعض العشائر العربية ذات تاريخ حافل يتضمن المجالات المحلية والدولية على السواء ، وعشائر شمر الجربا(١) العراقية من هذه العشائر التى يكشف لنا تاريخها عن تفصيلات دقيقة لما كان يجرى داخل العشيرة نفسها ، وعما كان يحدث بينها وبين العشائر الأخرى من صراع وتحالف ، ويكشف لنا تاريخها أيضاً عن تجربة خطيرة وهى هجرتها من شبة الجزيرة العربية إلى العراق وما تبع ذلك من جهود مضنية لتثبيت أقدامها فى مواقعها الجديدة . كذلك يكشف لنا تاريخ عشائر شمر الجربا عن نوع من الملاقات الدولية فى منطقة المشرق العربى . فلقد اصطدمت هذه العشائر بعنف بحركة الموحدين (الحركة الوهابية) فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكافحت الغزو الإيرانى للعراق فى العشرينات من القرن التاسع عشر ، كما تعاونت مع القيادة المصرية فى الشام (١٨٣١ — ١٨٣٤) . وإلى جانب هذا وذاك كانت السلطات الإنجليزية المسئولة عن مصالح إنجلترا فى العراق تولى عشائر شمر الجربا عناية خاصة لأنها كانت تسيطر على جزء هام من خطوط المواصلات العالمية التى كانت تربط بين الشرق والغرب عبر العراق .

وخلال دراستنا لهذه العشائر سنلقى نظرات على الظروف التى أدت إلى هجرة عشائر الجربا من شبه الجزيرة العربية إلى العراق ثم سنركز بعض الأضواء على

---

(١) سميت شمر لأن رجالها كانوا يشمرون عن ساعد الجد خلال الأزمات ، أما الجربا فلقب لقسم من هذه العشيرة التى تضاربت بشأنه الروايات .

الشخصيات الهامة من « آل محمد » وهو البيت الحاكم فى تلك العشائر لما كان لها من آثار واضحة فى توجيه أمور العراق خلال القرن التاسع عشر .

كان العراق قبل الفتح الإسلامى مهجراً لبعض القبائل العربية ، وقد تغلغل بعضها داخل العراق بينما أقام البعض الآخر على تخومه ، حتى إذا ما فتح المسلمون العراق تحولت معظم تلك العشائر إلى الإسلام وتوالت بعد ذلك الهجرات العربية حتى أصبح العراق على جانب كبير من التكامل من حيث العروبة والإسلام . ومنذ ذلك الوقت أصبحت العشائر العربية تغطى مساحات واسعة فى العراق . ولقد كان للعشائر العربية فضل كبير فى أن يحتفظ العراق بطابعه العربى حتى الآن . فالمعروف أن العراق كان أكثر البلاد العربية تعرضاً لموجات متتالية من الغزوات والهجرات غير العربية التى كادت أن تغير من ملامحه العربية ، لولا أن توافدت مجموعات من العشائر العربية على العراق بصورة تكاد تكون مستمرة . ولكن نلاحظ — من ناحية أخرى — أن العرب بعد سقوط الدولة الأموية فقدوا الكثير من صفات الزعامة والتفوق خاصة فى النصف الثانى من العهد العباسى . فلقد احتكر الفرس والترك الحكم والإدارة خلال ذلك العهد ثم سقط العراق فى قبضة المغول فى ١٢٥٨م الذين قضوا على الخلافة العباسية هناك .

ولفترة طويلة عاش العراق تحت حكم المغول الايلخانيين ثم (القره قوينلو والآق قوينلو ومن بعدهم استولى الفرس الصفويون على العراق فى ١٥٠٨ وظل فى قبضتهم حتى انتزعه منهم الأتراك العثمانيون فى ١٥٣٤ ثم استولى عليه الفرس مرة أخرى فى ١٦٢١م ولم يسترده الأتراك العثمانيون إلا فى ١٦٣٨م ومنذ ذلك التاريخ ظل العراق فى إطار الدولة العثمانية تارة تحت الحكم المباشر (١٦٣٨ — ١٧٤٩) ومن (١٨٣١ — ١٩١٤) ، وتارة أخرى تحت حكم عصبيات حاكمة من أشهرها مماليك بغداد (١٧٤٩ — ١٨٣١) وآل عبد الجليل فى الموصل(١) وآل آفر أسياب فى البصرة(٢) والأسرات الكردية العديدة(٣) التى قويت شوكتها خلال القرن

---

(١) حكمت هذه الأسرة فى الموصل من أوائل القرن الثامن عشر حتى حوالى ١٨٣٤م .

(٢) حكمت هذه الأسرة البصرة من ١٥٩٥ إلى ١٦٦٢ .

(٣) من أهمها الأسرة البابانية فى السليمانية والصورانية فى راوندوز .

السابع عشر . ولكن استطاعت الحكومة أن تصفيها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر[1] ولعل تقسيم العثمانيين للعراق إلى أربع ولايات كبرى : بغداد — البصرة — الموصل وشهر زور (كردستان) كان من العوامل الرئيسية التي قوت من جانب هذه العصبيات المحلية ، ولكنها مع هذا كانت لا تفكر في الانفصال الكامل عن دولة الخلافة العثمانية رغم المعارك الدموية التي كانت تقع بين تلك الإمارات من جهة وجيوش السلطان من جهة أخرى .

ونظرة سريعة على تاريخ العراق تؤكد لنا أن العراق عاش معظم الفترة الواقعة بين سقوط الخلافة العباسية والاحتلال الإنجليزي له خلال الحرب العالمية الأولى تحت حكومات غير عربية حجبت عن العرب المناصب القيادية الكبرى . فزادت أحوال العرب تقهقراً كما زادت سرعة انحدارهم نحو تقاليد الجاهلية الأولى ولم يعصمها من العودة الكاملة إلى تلك الجاهلية الأولى سوى احتفاظها بالاسلام ديناً وبالعروبة كياناً ولقد ظلت تلك العشائر معتزة بعروبتها رغم التفوق الحضاري الذي كان لدى الفرس والترك . وكان لهذا الاعتزاز بالعروبة قيمة كبرى في الحفاظ على العراق عربياً حتى الآن .

وفي الغالب كانت العشائر العربية في العراق خصوصاً النازلة قرب نهر الفرات على اتصال بأصولها في شبه الجزيرة العربية . فكانت عشائر بادية العراق تمثل حلقة بين العشائر العربية التي استقرت في ريف العراق والعشائر البدوية في شبه الجزيرة العربية . وكانت هجرة العشائر العربية من شبه الجزيرة العربية تقع في فترات متطاولة فكانت تملأ الفراغ الذي كان يحدث في العراق بسبب الاحتياجات المخربة ، أو الحروب المدمرة ، أو بسبب الأوبئة التي كانت تقضي على أعداد كبيرة من سكان العراق . وكانت بعض عشائر شمر من بين العشائر العديدة التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى العراق منذ القرن السابع عشر الميلادي . فتحدثنا المراجع عن مصادمات عديدة بين شمر وولاة بغداد العثمانيين في ١٦٩٥/١٧٠٦ . وقد دخلت شمر في حلف مع عدد من كبريات عشائر العراق مثل المنتفق والخزاعل وزبيد

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث . دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٦٨ (الفصل الثالث عبارة عن دراسة للظروف التي أدت إلى تصفيتها) .

ضد حسن باشا والى بغداد (١٧٠٤ — ١٧٢٣)[١]. ودارت معارك عنيفة جداً بين الطرفين استطاع خلالها حسن باشا أن يثبت تفوقه العسكرى على تلك العشائر[٢] ولم نسمع عن تمردات لعشائر شمر حتى توفى حسن باشا فى ١٧٢٣ . فتجددت تمرداتها[٣] فى وقت كان فيه نادرشاه يغزو العراق ، الأمر الذى شغل أحمد باشا (والى بغداد ١٧٢٣ — ١٧٤٧) عن الالتفاف إلى إخماد تمردات شمر . ولا شك أن شمر بتمرداتها هذه لم تقدر خطورة عملها على مستقبل العراق فى تلك الظروف ، ومن ناحية أخرى فإننا نعتقد أن كراهية شمر للأتراك العثمانيين حكام العراق كانت على قدر المساواة مع كراهيتهم للفرس (الطامعين فى السيطرة على العراق) . فلقد كان هدف هذه العشائر هو التخلص من أى حكم أعجمى وتخليص نفسها من الالتزامات التى كانت تفرضها الحكومة على العشائر .

كانت شمر — شأنها شأن العشائر الكبرى — عرضة لأن تنفصل عنها بعض أجزائها كلما تزايدت أعدادها أو طرأت ظروف سياسية أو اقتصادية تدعو إلى انفصال جزء منها عن جسم العشيرة . ولقد انقسمت شمر فعلا إلى أقسام عديدة استطاع بعضها أن يستقر فى مناطق محددة مثل « شمر طوقة » التى استقرت فى ريف العراق ، كما أن بعضها ظل متنقلا على عادة العشائر البدوية مثل « شمر الجربا » التى كانت من أشد تلك العشائر بداوة . ورغم بداوتها الشديدة هذه فقد لعبت شمر الجربا دوراً كبيراً فى تاريخ شبه الجزيرة العربية وفى تاريخ العراق .

ومما لا شك فيه أن الزعامات تلعب دوراً رئيسياً فى توجيه تاريخ المجتمعات العشائرية . وهذا ما نلاحظه عند تتبع العشائر بصفة عامة أو شمر الجربا بصفة خاصة ولقد كان من المألوف أن يكون هناك « بيت » معين يخرج منه شيوخ العشيرة ، وهو ما يعرف باسم « بيت الرئاسة » . وكان « آل محمد » هم بيت الرئاسة فى

---

(١) كان حسن باشا من الوجهة الرسمية والياً على بغداد ولكن امتدت سطوته إلى معظم العراق وهو الذى كوّن جيشاً من المماليك الذين استطاعوا الاستبداد بالحكم بعد وفاة أحمد باشا ابن حسن باشا فى ١٧٤٧ واستمروا فى الحكم إلى ١٨٣١ م .

(٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٣ جـ ٥ ، ص ١٣٩ / ١٦٩ / ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٤—٢١٥ .

شمر الجربا . ولقد كان لهذا البيت تاريخ حافل عندما وقفت شبه الجزيرة العربية عند مفترق الطرق بعد اشتداد حركة الموحدين (الحركة الوهابية) بزعامة آل سعود الذين جعلوا من هذه الحركة تياراً جارفاً . فقد دعا الموحدون العشائر إلى نبذ التقاليد البدوية الجاهلية . وكان من لا يقبل تلك المبادىء يعتبر — فى نظرهم — كمن كفر بالإسلام . وكان من أهم الموضوعات التى كان من المستحيل أن يلتقى عندها الطرفان موضوع «الغزو»[1] فقد كان من عادة العشائر العربية أن تقوم بغزو العشائر الأخرى وكان شباب العشائر يفخرون بتلك العمليات العدوانية ، بل إن « الغزو » كان كفيلا بأن يعيد العشائر العربية إلى ما كانت عليه من صراع بدائى اشتهرت به قبل الإسلام . ومن ثم كان الغزو يتنافى مع فكرة الدولة الإسلامية ، كما كان يتنافى مع الإستقرار والأمن اللذين هما مفتاح التقدم والتطور ، ولكن فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كان من المستبعد أن تنبذ العشائر فكرة الغزو ، حيث أن تلك العشائر ظلت قرون طويلة وهى تمارس هذه التقاليد البدائية وتعتز بها ولهذا كان من العسير على عشائر بدوية — مثل شمر الجربا — أن تقبل عن طيب خاطر الأفكار والمبادىء التى دعا إليها الموحدون وعلى رأسها الكف عن « الغزو » .

ولهذا كان لابد من وقوع صراع دموى مرير بين عشائر شمر والموحدين ، وكان على رأس هذه العشائر حينذاك « مطلق بن محمد » بينما كان سعود بن عبد العزيز على رأس الموحدين . وكل منهما كان صعب المراس . وأصبح على « مطلق بن محمد » أن يتخذ طريقاً من الطرق الثلاثة التالية :

١ — أن يقاتل حتى ينتصر على آل سعود ، ولكن بينما كان القتال ضرورة ملحة كان النصر بعيد الاحتمال أمام شمر الجربا لأن هذه العشائر لم تكن قادرة على الصمود فى وجه حركة الموحدين أو حتى خفض شوكتها ، لافتقار العشائر الشمرية إلى الفكرة العقائدية وإلى التنظيم الذى اشتهر به الموحدون فى أيامهم الأولى .

٢ — أن يقبل « مطلق بن محمد » خضوع عشائره للموحدين ولكن هذه العشائر الشمرية كانت شديدة البداوة ترفض الخضوع بإباء وشمم .

---

(١) عباس العزاوى : عشائر العراق ، ج ١ ، ص ٧٢ .

٣ — أن تغادر عشائر شمر الجربا نجداً بعيداً عن متناول سيوف الوحدين ، وهذا قرار ليس من اليسير على شيخ العشيرة أن يتخذه إلا تحت ظروف قاسية .

جرب « مطلق بن محمد » القتال (١٧٩١) فإذا بتيار الوحدين جارفاً ، ولما يتقن « مطلق » أن الإحتكام إلى السيف سيعود عليه بالخسران آثران يجمع جموعه مولياً وجهة شطر العراق الذى كان مهجراً طيباً حيث كانت فيه عشائر عديدة شمرية سبقت « الجربا » إليه[١].

ومما ساعد على اتجاه « مطلق بن محمد » إلى العراق ، أن المماليك — حكام العراق — كانوا يرحبون بقدوم مثل هذه العشائر وذلك لكى يستخدمها المماليك فى صد هجمات الوحدين على العراق وأيضاً فى شن حملات على الوحدين فى قلب شبه الجزيرة العربية ، إذ أن جيش المماليك كان مؤلفاً من الفرسان الثقيلى العدة والعتاد ، ولم يكن مثل هؤلاء الفرسان بقادرين على التصدى لقوات الوحدين الخفيفة الحركة . هذا فضلا عن أنه لم يكن فى استطاعة الفارس المملوكى أن يحارب فى الصحراء . لحرب الصحراء وقتال العشائر له أسلوبه الخاص . ومن ثم كانت العشائر هى خير سلاح يمكن إستخدامه ضد الوحدين ، وبخاصة إذا كانت تلك العشائر موتورة منهم .

ومن ناحية أخرى ، كان والى العراق (سليمان باشا الكبير)[١] يعد العدة لشن حملة كبيرة ضد الوحدين فى قلب شبه الجزيرة العربية ، حيث أن سليم الثالث — السلطان العثمانى — كان يلح عليه فى إرسال حملة كبيرة ضدهم . وكان اشتراك عشائر شمر الجربا فى مثل هذه الحملة ضد الوحدين يعطى فرصاً أوسع لنجاحها ، لما كان لتلك العشائر من خبرات فى قتالهم . فضلا عن أنها كانت كبيرة العدد وشديدة الكراهية للوحدين وتبحث عن فرصة لتثأر لنفسها منهم[٢] ، وفعلا اشتركت شمر الجربا فى الحملة الكبيرة التى أعدها سليمان باشا الكبير والتى تولى كتخداه « على بك » قيادتها ، وكانت تضم قوات مملوكية إلى جانب القوات العشائرية .

---

(١) عباس العزاوى : عشائر العراق ، بغداد جـ١ ، ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(٢) حكم ص ١٧٧٩ — ١٨٠٢ .

(٣) عباس العزاوى ، عشائر العراق ، جـ١ ، ص ١٣٧ ، ١٤٤ .

زحفت الحملة من العراق إلى الإحساء ، وهناك تصدت لها قوات الموحدين ، فدارت معركة حامية سرعان ما تحولت إلى هزيمة قاسية كادت أن تصبح مذبحة لولا ثبات قوات العشائر . وخلال هـذه المعركة سقط « مطلق بن محمد » قتيلا عام (١٨٩٨/١٢١٣) واضطرت بقايا قوات الحملة إلى التقهقر من الإحساء إلى العراق[١] .

لقد كانت الضربة التى وجهها الموحدون إلى شمر الجربا قاسية وأصبحت العشيرة فى حاجة إلى زعامة قوية تأخذ بيدها فى هذه المحنة . وكان فى العراق حينذاك شخصية شمرية ذات نفوذ ، ونعنى بذلك « ابراهيم بك الشمرى » الذى آل على نفسه أن يعيد إلى العشيرة قوتها وتماسكها ، ووجد « إبراهيم بك الشمرى » فى الشيخ « فارس » من « آل محمد »[٢] القائد الذى يستطيع أن يتحمل المسئولية بعد مصرع « مطلق ابن محمد » .

كان « الشيخ فارس » فى نجد حينذاك ، فاستقدمه « إبراهيم الشمرى » إلى العراق فلبى الشيخ النداء ، وشد رحاله إلى هناك وتولى مشيخة شمر الجربا[٣] ، وكان طبيعياً أن يكرس جهوده فى تقوية مكانة عشائره عن طريق التعاون مع القوى المناهضة للموحدين أشد أعداء شمر الجربا ، وكانت حكومة العراق تعد حينذاك قوات لتوجيه ضربات إلى العشائر التى تعاونت أو مالت إلى الموحدين[٤] ، ولهذا وضع « فارس » سيفه فى خدمة هذا الغرض ، كما شارك فى الحملة الجديدة التى كانت تعدها

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، تاريخ العراق ، ج٦ ، ص ١٢٥ ؛ لقد كان مطلق بن محمد عنيداً فى كراهيته للموحدين فيقول صاحب مطالع السعود أنه سار من العراق إلى الشام وتوجه إلى أحمد باشا الجزار يحج ، وبعد رجوعه من الحج « رأى ذلك الضلال المبين الذين كان عليه الوهابيون . . . رجع وقد عاهد الله على أن لا يرجع عن الجهاد والقتال مع الوهابيين إلى أن يموت » انظر مختصر مطالع السعود ، ٢٤ .

(٢) البيت الحاكم فى شمر الجربا .

(٣) عباس العزاوى ، عشائر العراق ، ج١ ، ص ١٤٤ .

(٤) مثل عشائر العبيد التى كانت من كبريات عشائر العراق .

الحكومة ضد الوحدين (١٧٩٨ م)[1] .

ولكن هذه الحملة الجديدة لم تستطع إحراز نصر ما على الوحدين ، بل توالى تفوق الوحدين على الحملات الموجهة ضدهم من العراق ، مما أدى إلى أن يتوسع الوحدون فى نطاق عملياتهم فشرعوا فى مهاجمة العشائر النازلة غربى نهر الفرات وبلغت تلك الحملات ذروة قوتها عندما هاجم الوحدون مدينة كربلاء (١٨٠١) ونهبوها وخربوا مرقد الإمام الحسين بن على وامتدت أيديهم إلى مساكن المدينة ، وأدى ذلك إلى إرتفاع هذه المشكلة إلى مستويات عالية بسرعة وخطورة .

فقد كان الشيعة ينظرون إلى مرقد « الحسين بن على » نظرة تقديس ، وكان لذلك الهجوم على مرقده صدى سيئاً للغاية فى مختلف الأوساط الإيرانية ، وجاء هذا الحادث فى وقت كان فيه « فتح على » (شاه إيران)[2] يتبع سياسة نشطة فى المجالات الدولية والإسلامية والمحلية متطلعاً بقوة نحو السيطرة على العراق تحت ستار الأهداف المذهبية الشيعية لتحقيق أهداف اقتصادية ، وكان سليمان باشا الكبير (والى العراق حينذاك) يدرك هذه الأهداف ، كما أن الباب العالى العثمانى ما كان ليقبل ذلك التدخل الإيرانى فى أمور العراق ، كما كان لا يقبل أن يقال إن الحكومة العثمانية عاجزة عن الدفاع عن العراق ضد الوحدين[3] .

وعلى هذا النحو أصبح من الضرورى أن يبعث سليمان باشا الكبير بحملة جديدة ضد الوحدين ، ليمنع عن العراق هجماتهم ، وليستعيد ثقة السلطان به ، وليدرأ خطر التدخل الإيرانى فى أمور العراق . ومعنى هذا أن سليمان باشا أصبح أكثر حاجة إلى القوى العشائرية عن ذى قبل . ولكن توفى سليمان باشا الكبير فى عام ١٨٠٢

---

(١) ع . العزاوى ، عشائر العراق ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، تاريخ العراق ، ج ٦ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) حكم إيران من ١٧٩٧ — ١٨٣٤ .

(٣) هـ . لونكريك ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة ، بغداد ١٩٦٢ ص ٢١٥ — ٢١٦ ، عباس العزاوى ، تاريخ العراق ، ح ٦ ، ص ١٤٤ ، رسول الكركوكى ، دوحة الوزراء ، ص ٢١٦ — ٢١٧ .

وجاء بعده فى حكم ولاية بغداد « على باشا » الذى كان قد سبق له أن تولى حملات فاشلة ضد الموحدين . وعلى أى حال أصبح على « على باشا » أن يعيد تشكيل قواته وأن يرسل حملة كبيرة ضدهم . وكان من الطبيعى أن يعول « على باشا » على الشيخ فارس ورجاله من مقاتلى شمر الجربا . وفعلا شاركت شمر الجربا فى جهود « على باشا » العسكرية ضد الموحدين ، ولكن دون أن تصل تلك الجهود إلى نتيجة إيجابية بل على العكس تزايدت هجمات الموحدين على العراق ، حتى لقد فضل الشيخ فارس أن يبحث لعشائره عن مراعٍ جديدة بعيدة عن متناول سيوف الموحدين .

قاد « الشيخ فارس » عشائره إلى الجزيرة فى شمال العراق لعل العيش يصفو لها هناك . ولكن وصول هذه العشائر الشمرية إلى الجزيرة كان فى حد ذاته خطراً على العشائر الأخرى النازلة هناك . ولهذا كان تاريخ شمر الجربا — منذ ذهابها إلى شمال العراق — عبارة عن سلسلة من الصراع مع عشائر العبيد والعقيل . وحيث أن زعماء عشائر العبيد كانوا ميالين إلى الموحدين فمما لا شك فيه أن ذلك كان من العوامل الرئيسية التى عمقت البغضاء بين شمر الجربا والعبيد . ولعل هذا يفسر لنا عنف الحملات التى كان يشنها الشيخ فارس على عشائر العبيد[1] . ولقد كسب « الشيخ فارس » من وراء ذلك ثقة « على باشا » والى بغداد ، حيث أن الأخير كان شديد الكراهية لشيوخ العبيد بسبب ميول زعمائهم للموحدين . بل أصبح « على باشا » يخشى من أن يقوم الموحدون — بالتعاون مع أعوانهم فى العراق — بانقلاب يطيح بحكومته . ولهذا كان الرجل مستعداً لأن يقدم على أى عمل يخلصه من تلك الأخطار التى كانت تحيط به ، حتى أنه لم يتورع عن إغتيال إثنين من زعماء العبيد هما « محمد » وأخيه « عبد العزيز الشاوى »[2] .

ولكن سياسات العراق حينذاك كانت تختلف باختلاف الولاة وميولهم ولهذا

---

(١) ع . العزاوى ، عشائر العراق ، حـ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) ذكر صاحب مطالع السعود أن مقتلهما كان بسبب ميولهما الوهابية ، انظر مختصر مطالع السعود ، ص ٣٠ ، بينما لم يتعرض « جودت » فى تاريخه لهذا السبب عندما تعرض لهذه المشكلة ، تاريخ جودت ، حـ ٧ ، ص ١٩٩ .

حدث تبدل فى السياسة بعد مصرع « على باشا » فى ١٨٠٧ . فقد حل محله فى ولاية بغداد سليمان باشا الصغير[١] الذى كان ميالا للموحدين . كذلك نجد والى بغداد « سعيد باشا » (١٨١٣ — ١٨١٦) يعتمد على عشائر العبيد ويضع أمور البلاد فى يد أحد شيوخ هذه العشائر وهو قاسم الشاوى . وحيث أن عشائر العبيد كانت شديدة العداء لعشائر شمر الجربا ، فقد أدى ذلك إلى أن تفقد هـــذه الأخيرة تلك المكانة الكبيرة التى كانت تحتلها زمن سليمان باشا الكبير وعلى باشا .

ومما جعل الأمور أمام عشائر شمر الجربا أكثر تعقيداً أنها فقدت بوفاة شيخها المجرب « فارس » الزعيم الذى يستطيع أن يواجه تلك الظروف القاسية . وقد تولى المشيخة بعده « بنية بن قرينص » الذى أصبح عليه أن يواجه حلفاً كبيراً تشكل ضده . وكان هذا الحلف مكوناً من عشائر المنتفق والخزاعل والروله والعقيل ، بل انضمت إليه عشائر العبيد وقوات الوالى سعيد باشا . ويبدو أن هذا الحلف كان قد عقد العزم على توجيه ضربة ساحقة لعشائر شمر الجربا (١٨١٦/١٢٣١) ولم يكن أمام « بنية بن قرينص » إلا أن يقرع السيف بالسيف . فكان أن دارت معركة كبيرة فى أراضى لملوم . وانجلت عن هزيمة شمر الجربا ومصرع « بنية » نفسه .

ولما كان رجال « شمر الجربا » يدركون دقة موقفهم ويمنون بأن يكون شيخهم مقداماً جريئاً قادراً على أن يقود العشيرة وسط أعداء عديدين فقد وقع اختيارهم على « صفوق بن الشيخ فارس »[٢] . حقيقة كان تاريخ حياة شيوخ شمر الجربا سلسلة من الكفاح من أجل الحياة ، إلا أن تاريخ حياة صفوق بالذات كان مليئاً بالأحداث الجلى . ولقد كان صفوق[٣] منذ شبابه جريئاً قوى الشكيمة ، مولعاً بالمخاطر والغزو ، عزمه من حديد ، وفى عينيه بريق حاد يؤكد قدرته على الإصرار وعلى تحقيق الأهداف .

---

(١) حكم من ١٨٠٧ ـ ١٨١٠ .

(٢) رسول حاوى الكركوكى ، دوحة الوزراء ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٣) كان عوده متناسقاً إلا أنه كان ممتلىء الجسم نوعاً ما مما كان يعطيه شكلا تركياً ـ

وقد امتدت مشيخة صفوق[1] من ١٨١٦ إلى ١٨٤٣ . وتعتبر هذه الفترة من أدق فترات تاريخ المشرق العربي ، كما عاصر صفوق مجموعة من أهم الشخصيات التاريخية التي لعبت أدواراً خطيرة في المنطقة . فقد تولى حكم العراق إبتداء من ١٨١٧ الوالي داود باشا[2] الذي كان يسعى إلى توحيد العراق تحت حكمه وإلى تجديد شباب العراق حتى ولو كان ذلك رغم أنف السلطان العثماني . وكان على عرش السلطنة العثمانية حينذاك « محمود الثاني » (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الذي كان مصمماً على أن يعيد حكمه المباشر إلى مختلف ولايات الدولة العثمانية حتى لو اقتضى ذلك استخدام القوة العسكرية ضد الولاة المتغلبين من أمثال داود باشا في بغداد ومحمد علي باشا في القاهرة ، ويوسف القره منلي في طرابلس الغرب . وعاصر صفوق أيضاً « فتح علي » شاه فارس الذي كان يبذل — هو الآخر — كل جهده من أجل تجديد قوة بلاده لعله يتمكن من انتزاع العراق من السلطنة العثمانية .

وعاصر صفوق كذلك بداية الفترة التي استعاد خلالها طريقا العراق ومصر — بين الشرق والغرب — بعض أهميتها كخطوط مواصلات سريعة حديثة عالمية ،

---

(١) كان لصفوق قصة حب كبيرة . فقد حدث أن شاهد في يوم من الأيام ، وهو لا يزال في فتوة الشباب — فتاة بهرته بجمالها وهي عمشة بنت شيخ عشائر طي . ولقد سميت كذلك منعاً للحسد على عادة العرب . وكانت الفتاة ذات سمرة خمرية أخاذة ، وكانت ذات عينين خاطفتين ساحرتين . فشغف ، وأصر على الإقتران بها . ولكن أبوها رفض أن يزوجه إياها ، فما كان من صفوق إلا أن دبر خطة لإختطافها ونفذها بنجاح . وكانت مثل هذه الجرأة كفيلة بأن تشعل نيران قتال مرير بين العشيرتين . لولا أن تدارك الأمر عقلاء القوم ، وتغلبت الحكمة على التهور خاصة وأن طي من بني عمومة شمر . ووافق شيخ طي على أن يتزوج صفوق من إبنته ، وزفت إليه لتصبح بعد ذلك سيدة شمر الأولى . وكانت عمشة تتزين بكميات كبيرة من الذهب تضعها حول رقبتها وعلى صدرها . وكان يتدلى قرط ذهبي من أذنها حتى خصرها ، كما ثبت قطعة ذهبية أخرى على أنفها كانت تتدلى على فمها حتى تغطيه فتضطر إلى إزاحتها بيدها عندما تتناول طعامها . وكانت عندما تتبختر في مشيتها تسمع أصوات رنين الذهب بوضوح . انظر :

H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1849, vol. I, pp. 100-102

(٢) انظر عبد العزيز نوار ، داود باشا والي بغداد ، المكتبة العربية ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ .

وذلك بعض اختراع الباخرة والقاطرة الحديدية وظهور مشروعات لاستخدامهما فى العراق .

ذلك هو العصر الذى عاشه صفوق ، وهو عصر ملىء بالأزمات والتطورات السريعة . وزاد من دقة موقف صفوق — فى سنوات مشيخته الأولى — أنه تولى هذه المشيخة بعد تلك الهزيمة المريرة التى منيت بها عشائره . حقيقة سقط سعيد باشا — والى بغداد — بعد ذلك بوقت قصير جداً فزال بسقوطه خصما شديداً لشمر الجربا ، ولـكن الوالى الذى جاء بعده ، وهو داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣١) ، كان على جانب كبير من النشاط وصاحب آمال واسعة . وكان معنياً كل العناية فى أوائل أيام حكمه أن يثبت أقدامه فى حكم العراق . وكان هذا يتطلب منه أن يجمع قدراً كبيراً من الأموال ليسد به حاجته وحاجات أعوانه وليقدم للباب العالى الأموال التى تعهد بدفعها إلى خزانة السلطان . ولهذا شرع داود فى مطالبة العشائر بدفع ما عليها من متأخرات من أموال الميرى . وكان صفوق من بين من طلب منهم داود دفع الضرائب للحكومة . وكانت أحوال عشائر شمر الجربا سيئة ، هذا فضلا عن أن العشائر كانت غالباً ما ترفض طلبات ولاة بغداد ولا تدفعها إلا إذا شعرت بأن الوالى قد ضغط عليها بقوة . ولهذا اصطدم الرجلان بعضهما ببعض . وبعث داود باشا بحملة ضد « شمر الجربا » فى ١٨١٧ ولـكن لم يصل الوزير داود إلى نتيجة حاسمة بسبب قدرة هذه العشائر على التوغل بعيداً عن متناول سيوف الجيش . ومن ناحية أخرى لم تـكن لدى داود فرصة متسعة لمتابعة الضغط على صفوق بسبب هزيمة قوات الحـكومة أمام عشيرة الصقور هزيمة أضاعت هيبة الوالى فى البلاد الأمر الذى جعل داود باشا يركز قواته ضد عشيرة الصقور . فكان انشغاله بتلك العشائر فرصة طيبة لصفوق ليتابع تنظيم عشائره وتقوية جانبها .

ويبدو أنه خلال السنوات الأولى من حكم داود باشا كان كل من الرجلين ينظر بعين الحذر للآخر . ولم يدرك كل منهما أن العراق فى حاجة إلى تعاونهما معاً إلا عندما دهم الخطر الفارسى البلاد .

لقد كان الفرس يعدون العدة للاستيلاء على العراق . وتزايد نشاطهم المعادى على الحدود العثمانية (العراقية) ، ثم قام الفرس بهجوم شامل . ومنذ البداية كان

تفوقهم العسكرى واضحاً ، وانتصرت القوات الفارسية على جيش داود ، واقتربت القوات الفارسية من بغداد نفسها وشرعت فى حصارها .

وكان المفروض أن يبعث السلطان العثمانى بقوات من عنده لإنقاذ بغداد من الفرس ، ولكن كل قواته كانت مشغولة بقتال القوات الفارسية فى جبهة أرضروم . وهكذا أصبح على العراق أن يدافع عن نفسه معتمداً قدراته الخاصة به . فما كان من داود باشا إلا أن جمع قواته ومماليكه خلف أسوار بغداد واستعد لحصار طويل . ولكن ظلت هناك قوة عربية عراقية قادرة على الحركة السريعة وعلى مناوشة الجيش الإيرانى والنيل منه ، ونعنى بذلك عشائر شمر الجربا .

فقد وضع رجال شمر الجربا — تحت قيادة صفوق — سيوفهم فى خدمة والى بغداد دفاعاً عن العراق ، وقام صفوق بعدة عمليات عسكرية ضد الفرس[١] . ولكن ليس معنى هذا أن هذه القوى العشائرية كانت قادرة على رد الغزو الفارسى ، إنها تستطيع أن تكبده خسائر كبيرة ، وأن تقطع خطوط مواصلاته ، ولكنها لا تستطيع أن تهزم جيشاً مثل الجيش الذى غزا به «فتح على» العراق ، ولقد قامت الكوليرا بمهمة إخراج الفرس من البلاد حيث أنها تفشت بينهم بقسوة فأوهنت قوتهم وجعلتهم يفضلون عقد الصلح مع الدولة العثمانية (١٨٢٣)[٢] .

كان لتلك المجهودات الكبيرة التى بذلها صفوق فى الدفاع عن العراق أثرها الكبير فى نفس داود باشا ، فحفظ له الجميل . وكافأه بأن أقطعه « عانة وما يتبعها من القرى »[٣] ، وارتفعت منزلته لدى الوزير . ويبدو أن صفوق — وقد شعر بتفوق مكانته — وجد أن الفرصة قد سنحت لفرض هذا التفوق على خصوم شمر الجربا ، وعلى عشائر عنزه بصفة خاصة . وسرعان ما وقع القتال بين شمر الجربا وعنزه ، وكسب صفوق الجولة الأولى ، ولكن عشائر عنزه كانت ضخمة العدد ، وكانت لا تقبل بسهولة مثل هذه الهزيمة ، فأعادت « عنزه » تنظيم نفسها ، وجمعت

---

(١) ع . العزاوى ، تاريخ العراق بين احتلالين ، حـ ٦ ، ص ٢٦٣ — ٢٦٥ ، عشائر العراق ، حـ١ ص ١٥٣ ، عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٠٧ .

(٢) عبد العزيز نوار ، داود باشا ، ص ١٨٠ .

(٣) ع . العزاوى ، تاريخ العراق ، حـ٦ ، ص ٢٨٦ .

جموعها ، ودارت الدائرة هذه المرة على « شمر الجربا »[(١)] . ولقد كان انتصار عنزه كبيراً لدرجة أن داود باشا وجد أن عنزه أصبحت خطراً يهدد العراق . وليس هناك من قوة تستطيع أن تصدها عن مزارع العراق سوى شمر الجربا . ولهذا عمل داود على تقديم المونة إلى صفوق ليعيد تنظيم عشائره ويجعلها قادرة على التصدى لعشائر عنزه إذا عمدت إلى التوغل داخل العراق[(٢)] .

ولكن فترة الوفاق بين داود باشا وصفوق لم تدم طويلا . فى السنوات الأخيرة من حكم داود تحولت علاقاته بصفوق إلى عداء مستحكم . فلقد انقلبت الصداقة إلى بغضاء شديدة حوالى ١٨٢٧ . وليس لدينا معلومات وافية عن الأسباب التى أدت إلى هذا التحول . ولكن هناك بعض الاتجاهات العامة التى يمكن أن تفسر لنا هذا التطور .

لقد كان داود يحاول أن يفرض سيطرته بقوة على طول البلاد العراقية وعرضها من الموصل إلى البصرة لعله يعيد إلى العراق تماسكه ووحدته تحت يده . ومثل هذه السياسة تتطلب من العشائر أن تركن إلى الهدوء وإلى الاستقرار فى أماكن محددة ، وأن تعيش على الزراعة بدلا من حياة البداوة والترحال . ولكن مثل هذه الاتجاهات كانت لا تلقى قبولا لدى العشائر البدوية . ومن ناحية أخرى كان داود يرى أن عدم السيطرة على شمر الجربا بالذات قد يؤدى إلى القضاء على مشروعاته الخاصة بالسيطرة على الموصل . فلقد كانت شمر الجربا مسيطرة على منطقة الجزيرة التى تتحكم فى الطريق بين بغداد والموصل . وكان لا بد لداود — قبل أن يبدأ عملياته إزاء الموصل — أن يضمن هدوء واستقرار عشائر شمر الجربا حتى لا تتعرض خطوط مواصلاته مع الموصل لخطر الانقطاع المفاجىء .

هذا إلى أن داود كان قد شرع فى إدخال الأساليب الأوروبية الحديثة فى الجيش . والمعروف أن الجيش الحديث لا يعتمد إلا فى القليل على التشكيلات العشائرية . ومعنى هذا أن حاجة داود إلى قوة شمر الجربا قد أخذت تتناقص كلما نما

---

(١) ع . العزاوى ، عشائر العراق ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

(٢) ع . العزاوى ، تاريخ العراق ، جـ٦ ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

جيشه الحديث . وهذا يعني أن شمر الجربا ستفقد — إن عاجلاً أو آجـــلاً — الامتيازات التي كانت تتمتع بها .

أضف إلى هذا الأسباب المعتادة التي تؤدي إلى وقوع الصدام بين العشائر والحكومة ، وأهمها رغبة العشائر باستمرار في الامتناع عن دفع ما عليها من ضرائب ، والكراهية العميقة التي يكنها رجال العشائر العربية للحكومات الأعجمية .

وعلى أي حال وقعت الأزمة بين داود وصفوق . وكانت أزمة طاحنة شأنها في ذلك شأن تمردات عشائر شمر الجربا السابقة فهي عشائر صعبة المراس ، بعيدة المنال ، سريعة الحركة ، قادرة على أن تهبط مقتربة جداً من بغداد قاطعة الطرق المؤدية إليها ، ناهبة ما تمر به من قرى ، ثم تعود مسرعة موغلة في الصحراء فتعجز قوات الحكومة عن اللحاق بها . ولقد طال الصراع بين صفوق وداود دون أن يكسب الأخير أي جولة من جولات هذا الصراع الذي امتد من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ . وفي أغسطس ١٨٣٠ استطاع داود أن يستخدم بعض وحدات جيشه الحديثة التشكيل ضد صفوق ورجاله (١) . ولكن في نفس هذه السنة بالذات انقلبت الموازين بسرعة لصالح صفوق . فقد انفجر النزاع الحاد بين داود باشا والسلطان محمود الثاني وعزم الأخير على إبعاد داود والمماليك عن حكم العراق وأعادته إلى الحكم المباشر العثماني مرة أخرى (١٨٣٠) .

وترجع هذه الأزمة الكبيرة بين داود والسلطان العثماني محمود الثاني إلى أن داود كان قد تخطى حدوده كوال عثماني على بغداد من حيث قيامه بإعداد جيش حديث كبير قادر على التصدي لقوات السلطان نفسه . ووجد السلطان محمود الثاني أن الإسراع في القضاء على داود خير من الإبطاء ، حتى لا يعطي لداود فرصة لاستكمال استعداداته . ولقد بلغت مخاوف السلطان العثماني ذروتها عندما امتنع داود باشا عن إمداده لا بالمال ولا بالرجال خلال الحرب التركية — الروسية (١٨٢٧ — ١٨٢٩) . ولهذا بعث السلطان العثماني إلى العراق بأحد كبار موظفيه إلى داود حاملا فرمان عزل داود عن ولاية بغداد . فما كان من داود إلا أن قتل مبعوث السلطان مصمماً

(١) A.N. Groves : Journal of a Residence at Bagdad during the years 1830-1831, London, 1832, p. 24 .

بذلك الأزمة إلى ذروتها ، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة على باشا رضا[١] إلى العراق .

كان طبيعياً أن يستعين على رضا بالقوى المادية لداود . وكان « صفوق » مستعداً للتعاون معه لتقوية مركزه في العراق تحت ستار التعاون مع جيش السلطان ضد داود الثائر على الخلافة العثمانية صاحبة الحق الشرعي في أن تولى أو تخلع من تشاء حسب منطق ذلك العصر . كذلك وجد على باشا رضا في قاسم العمرى (والى الموصل) حليفاً قوياً له لأنه كان من ألد اعداء داود ، ونسق هؤلاء (على رضا وصفوق وقاسم العمرى) عملياتهم العسكرية ، وأصبح على صفوق أن يقطع المواصلات بين بغداد وبقية أجزاء العراق . فقامت عشائره بهذه المهمة . ومع هذا كانت الدلائل تشير إلى أن جيش داود كان لايزال قادراً على الصمود طويلا أمام جيش السلطان ومن يشد أزره . إلا أن الأقدار كانت أقوى من الآمال والإمكانات. فقد انقض وباء الطاعون على جيش داود فقضى على معظمه ، وأصيب داود نفسه به ، وانفض كثير من الناس عنه فيما عدى عدد قليل من أعوانه وأهمهم يوسف أغا (رئيس الحسابات) وسليمان (الميراخور)[٢] ومحمد افندى (المصرف) . وقد حاول هؤلاء الثلاثة القيام ببعض العمليات التى يمكن بها تقوية جانب داود في هذه الأزمة الطاحنة . ولكن كان صفوق وقاسم العمرى لهم بالمرصاد . فقد اتفقا على فرض حصار قاتل على بغداد يمنع الخروج منها أو الدخول إليها حتى تضطر إلى التسليم . وعندما حاول يوسف أغا العودة إلى بغداد على رأس قوة مسلحة وبأموال معه كثيرة — كان قد جمعها من نواحى كركوك — أسرع صفوق إلى خمسمائة من خيالة شمر الجربا ومعهم ثلاثين من مشاة العقيل من حملة البنادق . ووضع خطته على أساس أن يكمن مشاة العقيل في أحد الأنهار الجافة بينما يقوم خيالة شمر باستدراج قوات « يوسف أغا » إلى هذا الكمين . ونفذت الخطة بنجاح وسقط عدد كبير من القتلى بل وقع يوسف أغا نفسه أسيراً فى يد رجال صفوق[٣] . وكانت هذه الهزيمة بمثابة بداية

(١) كان والياً على حلب فاسندت إليه ولاية بغداد والموصل وديار بكر ليقوم بالقضاء على داود ومماليكه .

(٢) منصب من المناصب المملوكية الكبيرة .

(٣) سليمان فائق : تاريخ بغداد ، ص ٧٨ — ٧٦ .

النهاية لداود ورجاله ، فقد استسلمت بغداد إلى قاسم على اعتبار أنه قائمقام على باشا رضا[١] .

دخل قاسم العمرى بغداد وفى معيته صفوق ورجاله ، وسليمان الغنام ورجاله من العقيل . وكان هذا فى محرم ١٢٤٧/١٨٣١ . ويحدثنا الكاتب التركى سليمان فائق عن أن صفوق عنى عناية خاصة بالبحث عن زوجة سليمان أغا (الميراخور) ليحصل عليها حيث أنه كان يدعى أنها وهبت له من قبل[٢] .

أما سليمان الغنام ورجاله من العقيل فكانوا يقومون كذلك بعمليات النهب والسلب حيث أن قاسم العمرى كان قد ترك الحبل على غاربه لكل من سليمان الغنام وصفوق . وحيث أن كلا منهما كان بدوياً لا يتقن فن إدارة المدن أو معاملة أهاليها فقد أقدماً على تعديات خطيرة . وقد حاول أهالى المدينة ردعهما بالحسنى دون جدوى . فلم يبق أمامهم سوى الاحتكام إلى السيف رغم ما كانوا عليه من حالة نفسية ومادية متدهورة بسبب النكبات المتتالية التى ألمت بالمدينة خلال فترة قصيرة من الزمن (١٨٣٠ — ١٨٣١)[٣] . ورغم ذلك أعلن البغداديون ثورتهم على قاسم العمرى وأعوانه (صفوق وسليمان الغنام) . فقتلوا الأول وعزموا على خوض معركة ضد القوات الشمرية والعقيلية ، رغم ما عرف عن القوات الشمرية من كثرة عدد وقسوة فى القتال ، ورغم ما عرف عن العقيليين من دقة فى استخدام البنادق .

ومن المعروف عن القوات الشمرية أنها أعجز من أن تقاتل داخل المدينة قتال شوارع لعدم تمرسها على هذا النوع من القتال . ولهذا آثر صفوق أن يغادر بغداد برجاله ، وبأقصى سرعة ممكنة ، كما فر منها سليمان الغنام ورجاله العقيليين[٤] .

---

(١) عبد العزيز نوار : داود باشا . الفصل السابع عبارة عن دراسة مفصلة للظروف التى أدت إلى استسلام بغداد لقاسم العمرى .

(٢) تاريخ بغداد ، ص ٨٤ .

(٣) خلال السنتين ١٨٣٠ ــ ١٨٣١ تعرضت بغداد لحصار قوات السلطان ، ولوباء الطاعون الذى أفنى أغلبية سكانها ولفيضان نهر دجلة الذى دمر وشرد معظم البقية الباقية من سكان ومبانى المدينة .

(٤) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، ص ٨٣ ــ ٨٤ ؛ رحلة فريزر ، ص ١٢٢ .

وبهذا تخلص البغداديون من هذا الحكم البدوى الذى كاد أن يجهز على المدينة . وهكذا أثبتت الطبائع البدوية أنها غير قادرة على إدارة أمور مدينة أو ولاية . هذا فضلا عن أن الفردية تغلبت على أعمال كل من قاسم العمرى وصفوق وسليمان الغنام فعلى حد قول سليمان فائق :

« لقد تفرد كل من ... صفوق وسليمان الغنام بإصدار ما يشاءون من الأوامر المتضاربة دون التشاور بعضهم بعضاً . ولم يكونوا على أمر جامع »(١) .

كان البغداديون يعتقدن أن مصرع قاسم العمرى وفرار صفوق وسليمان الغنام من بغداد قد يقنع السلطان العثمانى — محمود الثانى — وعلى باشا رضا بأن اقتحام بغداد بالقوة أمر بعيد الاحتمال . ولكن « على باشا رضا » كان عنيداً مصراً على أن يستولى على بغداد فتابع حصارها تشد أزره قوات شمر الجربا بقيادة صفوق . واضطرت بغداد فى نهاية الأمر أن تفتح أبوابها لعلى باشا رضا ، بل استسلم إليه داود كذلك . ودخلت قوات على رضا بغداد وبدأ بذلك الحكم المباشر العثمانى لبغداد (١٨٣١) .

و نلاحظ هنا أن القوات التى دخلت بغداد لم تتضمن أية قوة عشائرية ، وهذا يدل على بعد نظره ، وقدرته على التعلم من الأخطاء السابقة . هذا إلى أن على رضا كان قد جاء إلى العراق ليقضى على نظام المماليك حتى يصفو الجو للحكم المباشر . وهذا يتطلب كف أية قوة أخرى غير قوة الوالى العثمانى عن ممارسة الحكم أو توجيه الأمور ، ومن ثم فمهمة قوات شمر — من جهة نظر على رضا — هى القيام بالجهد العسكرى دون التطلع إلى أى نوع من أنواع المشاركة فى الحكم أو امتيازاته .

ويبدو أن صفوق أدرك هذه الحقيقة ، فنقل بسرعة نشاطه إلى الميدان الذى يستطيع أن يحصل فيه على مكاسب أكثر واقعية . فنى أعقاب سقوط بغداد فى يد على رضا نجد صفوق يقود قواته ضد عقيل السعدون — شيخ عشائر المنتفق .

كانت عشائر المنتفق من كبريات عشائر العراق ، وكانت تسيطر على مقدرات البصرة ، وبلغت هذه العشائر درجة كبيرة من القوة عندما استطاعت أن ترفع سعيد

---

(١) سليمان فائق ، تاريخ بغداد ، ص ٨٩ .

باشا إلى منصب الولاية (١٨١٣) ، وظلت عشائر المنتفق تشد أزره ضد منافسة داود لمدة طويلة . ولما نجح داود فى الحصول على منصب الولاية أخذ يتدخل فى أمور المنتفق حتى أسند مشيختها إلى « عقيل السعدون » الموالى له . وعندما وقعت الأزمة بين داود باشا والسلطان العثمانى (١٧٣٠ — ١٨٣١) وقف « عقيل السعدون » بجانب داود . فلما استسلم داود إلى « على رضا باشا » أصبح على هذا الوالى الجديد أن يتخلص من أعوان داود فى العراق ، وبالتالى أصبح الصدام بين « عقيل السعدون » والحكم العثمانى الجديد أمراً لا مناص منه .

وكان المفروض أن يبعث « على باشا رضا » حملة ضد « عقيل السعدون » الذى عزله عن المشيخة ، ولكن اتبع « على رضا » السياسة المألوفة لدى ولاة العراق فى مثل هذه الأمور . وهى ضرب العشائر بعضها ببعض . وكان صفوق « شيخ شمر الجربا » مستعداً لأن يوجه قواته ضد « عقيل السعدون » . وكانت الظروف مواتية لصفوق ليضرب ضربته بقوة ، حيث أن الإنقسام فى البيت الحاكم السعدونى نفسه كان كبيراً ، بل كان فى بغداد عدد من الشيوخ السعدونيين المناهضين لعقيل لنفسه ويسعون إلى خلعه من المشيخة والحلول محله . وكان هؤلاء الشيوخ السعدونيون يحثون « على باشا رضا » على التدخل ضد ابن عمهم « عقيل السعدون » ، وعرضوا عليه تقديم كافة المساعدات فى مقابل حصول أحدهم على المشيخة وانتهت هذه المفاوضات بتفاهم تام بين هؤلاء وعلى رضا وصفوق بأن يقوم صفوق ورجاله بالزحف ضد « عقيل السعدون » يشد أزرهم أعوان أولئك المشايخ المنافسين لعقيل . وفعلا تمت الترتيبات على أساس أن يقوم صفوق بالتعاون مع الشيوخ السعدونيين المتحالفين معه بحملة كبيرة ضد « عقيل السعدون » .

زحفت قوات صفوق وحلفائه صفوال وحلفائه ديار المنتفق ، ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، وأحرز صفوق ورجاله نصراً كبيراً ولكن بعد قتال مرير من جانب المنتفق حتى لقد سقط « عقيل السعدون » نفسه فى المعركة . ولا شك أن مصرعه كان فى حد ذاته عاملا حاسماً فى هزيمة المنتفق حيث أن موت الشيخ أو القائد حينذاك كان يعنى تشتت شمل قواته وهزيمتها . وكان طبيعياً أن يذيع صيت

صفوق بعد ذلك ، حتى لقد أطلق عليه منذ ذلك الوقت لقب « سلطان البر »[١] .

لقد أصبحت عشائر شمر الجربا — فى أعقاب ذلك — من أكبر عشائر العراق فعالية ، وأكثرها قدرة على الحركة لتعدد خبراتها فى القتال وتنوع الأزمات التى تعرضت لها . فأكسبت تلك الظروف « صفوق » بصفة خاصة ، ورجال عشيرته بصفة عامة ، خبرات سياسة وعسكرية لم تكن متوفرة لدى غيرهم من رجالات العشائر الأخرى ، وكان هذا فى وقت دخل فيه الوطن العربى فى تجربة جديدة هزته هزاً عنيفاً ، وجعلت العراق مجالا من مجالات السياسة الدولية النشطة ، ونعنى بذلك الانتشار المصرى فى المشرق العربى فيما بين ١٨٣١ و ١٨٤١ .

فبعد نشوب القتال بين الجيش المصرى والجيش العثمانى فى الشام إبتداء من أكتوبر ١٨٣١ أصبح لزاماً على « على باشا رضا » أن يسهم بما لديه من إمكانيات فى المجهود الحربى العثمانى من أجل عرقلة التقدم المصرى فى الشام ومن أجل تقويض دعائم الوجود المصرى هناك تنفيذاً للسياسة العامة للسلطان العثمانى محمود الثانى الذى طالب الولاة بتقديم كل مساعدة ممكنة للجيوش العثمانية فى حربها ضد « محمد على باشا » والى مصر . وكان الأمر أمام « على رضا باشا » صعباً حيث أنه كان يعتمد على القوات التى جاءت معه من حلب إلى العراق . ومعظمها قوات غير نظامية كثيرة الشغب صعبة القيادة ليس من اليسير الإعتماد عليها فى حرب كتلك التى كانت تدور رحاها فى الشام بين القوات المصرية والقوات العثمانية .

وهكذا وجد على باشا رضا نفسه مضطراً إلى إستخدام القوات العشائرية فى شد أزر الجيوش العثمانية المقاتلة فى الشام وحيث أن عشائر شمر الجربا كانت قد اشتهرت بقدراتها العسكرية فقد وضع « على رضا » عينه عليها كقوة يمكن الإسهام بها فى الحرب الدائرة فى الشام . خاصة وأن هذه العشائر كانت من أكثر عشائر العراق

---

(١) عباس العزاوى : تاريخ العراق ، جـ٧ ، ص ١٩ ، ولقب « سلطان البر » كان يمنح لشخصيات العربية القوية . ولقد حصل عليه فخر الدين المعنى فى أوائل القرن السابع عشر . انظر الخورى بولس قرالى ، فخر الدين المعنى الثانى ودولة تسكانيا ١٦٠٥ — ١٦٣٥ ، رمية مجمع العلوم والفنون الملكى الإيطالى ، ١٩٣٨ ، الجزء الثانى ، ص ١٦ .

تعاوناً معه فى العراق . فكان من المنتظر أن تكون مستعدة كل الإستعداد للقيام بتلك المهمة . هذا فضلا عن أن أراضى شمر الجربا كانت تمتد على مساحات واسعة من الجزيرة العراقية .

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر أصبحت الجزيرة العراقية ذات أهمية كبيرة دولية بسبب التطورات التى حدثت فى أساليب المواصلات العالمية تلك التطورات التى جعلت أنظار أوربا تتجه إلى إعادة الحياة إلى الطرق العالمية القديمة عبر الشرق الأوسط إلى آسيا على إعتبار أنها أقصر من طريق « رأس الرجاء الصالح » وعلى إعتبار أنها أقدر على إستيعاب أساليب النقل الحديثة البخارية ، فاتجهت المشروعات نحو مد خطوط بخارية ملاحية بين الموانى الأوربية والساحل السورى ومنه تنقل البضائع إلى بيره جك فى أعلى نهر الفرات أو إلى الموصل على نهر دجلة ، ومن هناك يعاد شحن البضائع على بواخر تهبط أحد النهرين إلى الخليج العربى ومنه إلى الهند والشرق الأقصى [1]. ومن هنا برزت أهمية الجزيرة العراقية حيث أنها تقع بين نهرى الفرات ودجلة وتسيطر على هذا الطريق الدولى الجديد .

وهكذا أدى اختراع السفن التجارية والتوسع المصرى فى الشام (١٨٣١ — ١٨٤٠) إلى إرتفاع أهمية الجزيرة العراقية إلى مجالات التنافس الدولى [2]، وإلى أن تجد عشائر شمر الجربا — المسيطرة على الجزيرة العراقية ، نفسها فى موقف جديد سواء من حيث الأوضاع الداخلية أو الخارجية ومن ناحية أخرى كان على رضا لاشك سيجعل مميزات الجزيرة العراقية فى خدمة أهدافه إذا ما ضمن تعاون صفوق معه تعاوناً كاملا . ولعل هذا يفسر لنا لماذا علق « على رضا » آمالاً واسعةً على صفوق ورجاله .

---

(١) انظر Hoskins : British Routes to India, New York, 1928, Chapters II-XIII.

(٢) أصبحت الجزيرة العراقية مجالا واسعاً للدراسات الأنجليزية التى كانت تهدف الى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن العشائر العربية النازلة فيها حيث أن أى اضطرابات عشائرية كانت تهدد بالقضاء على المشروعات الانجليزية الهادفة إلى إستخدام البواخر فى نهر الفرات لربط البحر المتوسط بالخليج العربى . ولقد كانت الاضطرابات العشائرية كثيرة الوقوع فى الجزيرة بسبب الصراع المتتالى بين عشائر شمر الجربا وعنزه .

أضف إلى هذا أن « على باشا رضا » كان يعتقد أن «صفوق» سيقدم خدماته للسلطان العثمانى خلال أزمة التوسع المصرى على نفس المستوى الذى كان عليه صفوق عندما خدم الدولة العثمانية خلال حربها ضد الفرس (١٨٢١ — ١٨٢٣) وعلى نفس المستوى الذى تعاون به مع جيش السلطان ضد داود باشا (١٨٣٠ — ١٨٣١) وأيضاً على نفس المستوى الذى قاتل به « عقيل السعدون » شيخ المنتفق (١٨٣١).

ويكشف لنا الفرمان الذى أصدره السلطان محمود الثانى إلى والى الشام عن تلك الآمال الواسعة حيث جاء فيه أن صفوق وصل الخابور[١] جامعاً جموعه « كالجراد المنتشر قد ملأ الفضاء والبر »[٢] واتجه بهذه الجموع التى كانت تمتد بحوالى ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل صوب الشام للتعاون مع الجيوش العثمانية ضد الجيوش المصرية هناك .

ولقد جمع صفوق جموعه حقاً ، وبدا كأنه سيلتحق بالقوات العثمانية فى الشام . ولـكن حدث تغير خطير فى أهدافه واتجاهاته ، حيث أنه غير رأيه ، وبدلا من أن يزحف صوب الشام لوى عنان فرسه وهبط صوب بغداد ليحاصرها شاهراً السيف فى وجه الأتراك العثمانيين[٣] .

وليس لدينا أية وثيقة تـكشف لنا عن الأسباب التى أدت إلى هذا التحول الفاجىء فى موقف صفوق من الحـكم العثمانى سوى ما ذكره لوريمر Lorimer[٤] من أن صفوق طالب « على رضا باشا » بامتيازات لم تلق القبول منه[٥] . وأغلب الظن أن هذا السبب يمثل واحداً من أسباب عديدة أخرى هيأت الظروف لثورة

---

(١) نهر فى شمال العراق .

(٢) عابدين محفظة ٢٣١ وثيقة ٢٨ فى ١٢ ذى القعدة ١٢٤٧هـ / ١٤ أبريل ١٨٣٢

(٣) عابدين محفظة ٢٤٦ وثيقة ١٧٨ ، ١٧٩ « غير مؤرختان » .

(٤) أحد موظفى حكومة الهند المسئولين عن جمع المعلومات عن العراق والخليج العربى وهو صاحب الموسوعة الانجليزية عن الخليج العربى Gazetteer of the Persian Gulf.

(٥) Lorimer : op. cit., vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

صفوق على الحكم العثمانى ، وبعض هذه الأسباب يتعلق بالموقف فى العراق نفسه وبعضها الآخر يتعلق بالموقف فى المشرق العربى على وجه العموم .

فقد قامت فى بغداد ثورة كبيرة ضد على باشا رضا[١] ، وأعلن يحي باشا الجليلى (والى الموصل السابق) أنه عاد إلى حكم ولايته لا ليتولاها من قبل السلطان العثمانى ، وإنما عاد ليحكمها من قبل الحكومة المصرية . وفى أقصى جنوب العراق كان الموقف حرجاً أمام « على باشا رضا » لوجود حزب قوى فى البصرة يناصر المصريين ضد العثمانيين[٢] وبذلك يكون العراق كله عرضة لأن يخرج على العثمانيين . خاصة عندما انتشرت فيه أنباء سقوط عكا فى يد القوات المصرية . ويبدو أن القوى المناهضة للحكم العثمانى فى العراق عزمت على انتهاز هذه الفرصة لإحراز مكاسب جديدة أو للتخلص من التدخل التركى فى شئونها . ومن ذلك أن محمد بك — أمير راوندوز — سعى إلى السيطرة على معظم كردستان ، ولكن الأخطر من هذا وذاك هو ما ذكره الميجور روبرت تيلر — الوكيل السياسى الإنجليزى فى بغداد Major Robert Taylor من أنه كان هناك تحالفاً بين محمد بك (أمير راوندوز)[٣] ويحي الجليلى (حاكم الموصل) وصفوق (شيخ عشائر شمر الجربا)[٤] .

وسواء أكان هناك تحالف متفق عليه أم أن الأمر لا يعدو أن يكون اتجاهاً عاماً لدى القوى المناهضة للحكم التركى فى العراق . فإن مجرد ظهور مثل هذه القوى بمظهر التحدى العلنى للحكم التركى العثمانى كان كافياً لتشجيع العناصر الأخرى المعادية للأتراك على الخروج إلى مجال العمل الإيجابى ضدهم . ومن ذلك تعاون بقايا

---

(١) Intelligence from Bagdad contained in Report from Wood, 2 August 1832, F.O. 78/210.

(٢) Robert Taylor to Secret Committee, July 29, 1833 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 49, pp. 541-543).

(٣) إمارة فى شمال العراق فى قلب ديار الكرد .

(٤) R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673).

المماليك مع تلك القوى ضد العثمانيين[١] ، وانضمام سليمان بابان (حاكم السليمانية)[٢] إليها ، وكانت تلك القوى تمثل خطراً شديداً على الوجود العثمانى فى العراق .

فقد ثبت فعلا أن يحي الجليلى كان قد نسق عملياته العسكرية مع صفوق[٣] ، كذلك يحدثنا الميجور « روبرت تيلر » عن أنه كان لدى صفوق مستشارين مصريين[٤] . ومن ثم كان الزحف المفاجىء الذى قام به صفوق صوب بغداد — الثائرة ضد « على باشا رضا » — يمثل ذروة الخطر الذى تعرض له والى العراق حينذاك ، حيث أن قوات صفوق استطاعت أن تسيطر على الطرق المؤدية إلى بغداد وأن يضرب الحصار عليها الأمر الذى جعل « على رضا » بين نار ثورة داخليه ونار قوات صفوق من خارج بغداد .

ورغم تلك الأخطار المتعددة استطاع على باشا رضا أن يتغلب على تلك القوى المعادية له . فقد قضى والى بغداد على ثورة بغداد بضرب المدينة بالمدفعية ، فأصبح من المتعذر على صفوق أن يقتحم المدينة لا لأن الثورة فى داخلها كانت قد أخمدت فحسب بل كذلك لأن القوات العشائرية البدوية لا تستطيع أن تقيم الحصار على مدينة مسورة لمدة طويلة . وكان هناك عامل آخر قوى أرغم صفوق على رفع الحصار عن بغداد وهو مقدم جموع كبيرة من عشائر عنزه .

فقد كان من سياسة ولاة بغـداد أن يضربوا العشائر العربية بعضها ببعض ، ولهذا حرض « على رضا » عشائر عنزة ضد « شمر الجربا » واتفق مع عنزه على أن تحصل على أراضى شمر الوفيرة المرعى فى حالة انتصارها عليها . وكان هذا وعـداً

---

(١) R. Taylor to Secret Committee (Ind. Office Rec., Fact. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 541-543 and vol. 47, pp. 354-359).

(٢) R. Taylor to Secret Committee, Oct. 24, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, pp. 784-791).

(٣) R. Taylor to Secret Committee, September 5, 1833 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 49, p. 673).

(٤) R. Taylor to Secret Committee, Oct. 26, 1833 (Ibid., pp. 785-792).

مغرياً كل الإغراء جعل عشائر عنزه تبذل كل ما لديها من قوة من أجل الانتصار على شمر (١) .

وخلال هذا كان على رضا قد أعلن عن عزل صفوق عن مشيخة عشيرته ، وأسندها إلى « شلاش » ، إلا أن الأخير كان ضعيف الشخصية الأمر الذى جعل معظم العشائر الشمرية منضوية تحت زعامة صفوق . ومع هذا فضل صفوق أن ينسحب بعشائره موغلا صوب الشمال وبذلك لم يعد صفوق خطراً على بغداد ولهذا سحب على رضا وعوده لعشائر عنزة .

وعندما وجدت عشائر عنزه أن « على باشا رضا » قد سحب وعده أقدمت على خطوات إرهابية بأن فرضت حصاراً جزئياً على بغداد وأصبح على « على رضا » أن يجهز حملة كبيرة ضد « عنزة » وكان من المعروف أن التغلب على « عنزة » يتطلب تعاون عشائر شمر بالذات معه . وكان « شلاش » مستعداً كل الاستعداد ليضع ما تحت يده من رجال تحت قيادة « على باشا رضا » . وفى هذه الأثناء علم صفوق بهذه التطورات وأدرك أن القضية ليست قضية والى بغداد وشلاش وحدهما بل هى جزء لا يتجزأ من الصراع التقليدى بين شمر وعنزة ، ورأى أن الظروف تحتم عليه أن يتناسى أسباب النزاع ، وأن يضع يده فى يد شلاش ضد عنزة . وأغلب الظن أن صفوق أدرك أن قوات « على باشا رضا » وقوات شلاش غير قادرة على التغلب على « عنزة » ولعل هـذا هو الذى أدى إلى عودة التفاهم بين على باشا رضا وشلاش من جهة وصفوق من جهة أخرى . وفعلا بعث صفوق بألفى رجل للاشتراك فى الحملة ضد « عنزة » وبعث صفوق إلى شلاش يقول له :

« أنا وأنت متخاصمان ويمكننا أن نسوى النزاع بيننا . . . . . ولكن شرف العشيرة فى الوقت الحاضر قد تعرض للخطر ، ولا أستطيع السكوت عن ذلك ما لم أقدم معونتى المحافظة عليه »(٢) .

ويبدو أن صفوق كان يعتقد أن عنزة لن تلقى بكل قواتها فى المعركة ، أو ربما

---

(١) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf. vol. I, Part I, pp. 1315-1316.

(٢) فريزر : رحلة فريزر ، ص ١٣٤ .

كان يعتقد أن اشتراك قوات الحكومة بما لديها من مدفعية كفيل بأن يرهب عشائر عنزة ، فلا توسع فى نطاق القتال وتنسحب إلى مراعيها . ولعل هذه هى العوامل التى جعلت صفوق يقتصر على إرسال ألفى مقاتل فقط من رجاله . ولكن الحقيقة هى أن عنزة كانت مستعدة لخوض المعركة بخمسة وثلاثين ألف مقاتل . ويرى الرحالة السياسى الانجليزى فريزر Fraser أن هذه المساعدة من جانب صفوق لشلاش فى هذه الظروف لم تكن مجدية حيث أن جموع شمر الجربا لم تكن بقادرة على مواجهة جموع عنزة التى كانت متفوقة من حيث العدد بمراحل كبيرة .

وعلى أى حال قامت قوات شلاش وصفوق وعلى رضا بحملة مشتركة ضد عنزة التى تصدت لهذه القوات ، وبعد أن دارت المعركة بدا واضحاً أن كفة عنزة هى الراجحة . فقد اندحرت بسرعة قوات على باشا رضا ووقعت المدافع فى يد رجال عنزة . وسقط شلاش صريعاً ، وتحولت المعركة إلى مذبحة للقوات الشمرية . والملاحظ أن قوات عنزة آثرت أن تلقى بثقتها على رجال شمر مخلية سبيل القوات النظامية التابعة لوالى بغداد . وكانت صيحة عنزة فى تلك المعركة :

« خل النظام واقتل الجربا »[1].

ولا شك أن هذه الهزيمة الكبيرة التى منيت بها عشائر شمر الجربا هزت مكانتها حينذاك ، بينما كان عدم تشكيل عشائر عنزة بالقوات النظامية سبباً فى أن يبقى الباب مفتوحاً للتفاهم بينها وبين على باشا رضا [2] . كما نلاحظ أن « على رضا » شرع فى تضييق الخناق على صفوق وحلفائه مرة أخرى وبوجه خاص على « يحيى الجليلى » فى الموصل . وكانت هناك فى الحقيقة ضرورة ملحة لذلك حيث أن وجود « يحيى الجليلى » (المتعاون مع القيادة المصرية فى الشام) فى الموصل كان يمثل خطراً كبيراً على الوجود العثمانى فى العراق .

وكان تدهور مكانه « شمر الجربا » بعد هزيمتها أمام عنزة من العوامل التى

---

(١) فريزر ، ص ١٣٤ .

(٢) يتضح هذا من أن عشائر عنزه سرعان مارفعت حصارها عن بغداد رغم انتصارها فى تلك المعركة انظر :
Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, pp. 1317-1318.

مكنت القيادة العثمانية من توجيه ضربات قاصمة إلى الحليفين الكبيرين «يحيي الجليلي» وإلى الموصل الميال إلى المصريين ، وصفوق المتعاون معهم كذلك (١) .

وكان طرد « يحيي الجليلي » من الموصل وطرد القوى العراقية الميالة إلى المصريين أو اتهمت بالميل إليهم من أمثال أمير راوندوز (محمد بك) فى شمال العراق يتطلب التخلص من صفوق أولا . وكانت فكرة التخلص من هذه الزعامات تدرس بعناية وعلى أعلى المستويات . فقد كانت السلطات الإنجليزية الدبلوماسية وغير الدبلوماسية تبذل جهوداً واسعة لتقوية جانب الحكومة العثمانية فى العراق ، وللقضاء على القوى المؤيدة للمصريين .

وكان هناك طريقان للتخلص من صفوق :

١ — إرسال حملة كبيرة ضد عشائر شمر الجربا وإنزال الضربات المتتالية بها حتى ترغم على الخضوع لأوامر الحكومة وحتى تضطر إلى تسليم صفوق إلى والى بغداد تمهيداً لإسناد المشيخة لزعيم متفاهم مع الحكومة .

٢ — تدبير مؤامرة توقع بصفوق فى قبضة رجال الحكومة .

لقد كان الطريق الأول وعراً وغير معروف النتائج حيث أن الحكومة منذ زمن بعيد فشلت فى السيطرة عسكرياً على أية عشيرة بدوية ، وكانت الحملات الحكومية ضد العشائر الكبرى لا تنتهى إلى إنتصار حاسم وغالباً ما كانت تنتهى بتفاهم بين الطرفين على أساس أن يتنازل كل طرف عن بعض إدعاءاته أو مطالبه . ولكن هذه الظروف الجديدة لم تكن تجدى معها الحلول الوسط ، حيث أن وجود صفوق على رأس عشائر شمر الجربا كان كفيلا بأن يجعل حكومة بغداد فى انزعاج دائم من وقوع تعاون بين صفوق والقيادة المصرية فى الشام ضد القوات العثمانية فى العراق .

لقد كان « على رضا » يدرك أنه من الضرورى أن يتلخص من صفوق بالذات على اعتبار أن غيره من آل محمد (مشايخ شمر الجربا) ليس على كفاءته أو قدرته

---

(١) Taylor to Secret Committee, September 5, 1834, 1st November 1834 (India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf, vol. 51, pp. 1-3, 420, 547-555).

فى التفاهم مع القيادة المصرية فى الشام . وحيث أن طريق القوة كان لا يحقق أهداف على رضا فقد عمد إلى أسلوب الخديعة والتآمر . وهو أسلوب مهر فيه على رضا إلى حد كبير ، واستطاع بواسطته أن يحقق نتائج هامة ما كانت الدولة تستطيع أن تحققها إلا بنفقات مالية كبيرة وإلا بإسالة دماء غزيرة .

كان القبض على كل من « صفوق الفارس » و « محمد بك » صورتين من صور تلك المؤامرات الناجحة التى دبرها « على رضا » ضد القوى الوطنية . فقد أعلن « على باشا رضا » أنه سيخلع على صفوق فى حفلة تقام خصيصاً لذلك . وكان صفوق فى موقف لا يحسد عليه وفى حاجة إلى أن يتعاون مع حكومة بغداد إذا أراد أن يستعيد مكانته وأن يداوى جراح عشيرته وأن يعيد إلى العشيرة تماسكها . فقبل صفوق الدعوة ، وما أن ذهب إلى مقر الحفلة حتى ألقى القبض عليه (١) .

لقد كان القبض على صفوق حلقة من سلسلة من المؤامرات التى دبرها « على رضا » ضد الزعامات العراقية المناوئة له . حيث دبر مؤامرات عديده مشابهة أدت إلى القبض على محمد بك (أمير راوندوز) وعلى عدد من الزعماء الأكراد . وأرسل هؤلاء جميعاً إلى خربوط تحت حراسة مشددة ١٨٣٤ (٢) . وبعد وقت قصير نفذ حكم الإعدام فى محمد باشا ، بينما نقل صفوق إلى الآستانة وعاش فيها منفياً هو وابنه فرحان وهنا يجدر بنا أن نتساءل : هل كان للانجليز يد فى تلك المؤامرة التى أدت إلى القبض على صفوق ؟

إن السبب الذى جعلنا نلق بهذا التساؤل هو أنه كانت للدبلوماسى الإنجليزى النشط ريتشارد وود Richard Wood دور كبير فى إقناع محمد بك بالإستسلام للعثمانيين وبعدم التمادى فى الثورة ضد السلطان العثمانى (٣) . وكان هدف الإنجليز من وراء ذلك هو تقوية قبضة الحكومة العثمانية على ماتحت يدها حتى تستطيع

---

(١) H. Layard : Nineveh and its Remains, London, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Werry to Ponsonby : December 3, 1836 (India Office Records, Factory Records, Persia and Pesian Gulf, vol. 54, pp. 833-854).

(٣) Ponsonby to Palmerston, October 12, 1836 (Ind. Office Rec., Fac. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 54, pp. 675-678).

أن تركز جهودها بعد ذلك ضد الوجود المصرى فى الشام وشبه الجزيرة العربية وحتى يصبح ظهرها آمنا عندما يشتبك الجيش العثمانى مع الجيش المصرى فى الشام فى الجولة التالية المنتظرة .

ولقد كانت لدى الإنجليز مصلحة كبرى فى شد أزر الدولة العثمانية ضد الوجود المصرى فى الشام أو فى شبه الجزيرة العربية ولهذا كانت السلطات البريطانية معنية كل العناية بأن يكون ظهر الجيش العثمانى آمناً عندما يخوض المعركة المقبلة ضد المصريين فى الشام ، هذا فضلا عن أن تقوية قبضة الحكومة على عشائر شمر الجربا بالذات يعين الإنجليز على تنفيذ مشروعهم الكبير بشأن استخدام العراق كطريق قصير للمواصلات بين الشرق والغرب بواسطة تشغيل خط بواخر بين الموانى الإنجليزية والساحل السورى ، وبين أعالى نهر الفرات والخليج العربى والهند .

والملاحظ أن الإنجليز ركزوا فى ذلك الوقت عنايتهم بشدة على طريق العراق بين الشرق والغرب . واتجهت الحكومة الإنجليزية إلى إدخال مشروعهم إلى حيز التنفيذ فى أعقاب التوسع المصرى فى الشام ، حيث أن هذا التوسع قد أدى إلى أن أصبح طريقاً المواصلات بين الشرق والغرب عبر كل من العراق ومصر تحت سيطرة حكومة القاهرة ومن ناحية أخرى كان المشروع الإنجليزى لربط الشرق بالغرب — بواسطة خط بواخر يعمل فى نهر الفرات — لا يخدم هذه الأهداف فقط بل كذلك كان يمكن الإنجليز من التصدى لأية قوة مصرية تحاول عبور نهر الفرات إلى العراق حيث أن البواخر التى كانت معدة للعمل فى نهر الفرات كانت بواخر مسلحة(١) .

وكان تنفيذ كل تلك المشروعات والأهداف الإنجليزية يتطلب الوصول إلى تفاهم مع العشائر الكبرى المسيطرة على الطريق بين الساحل السورى ونهر الفرات ، حيث وضعت الخطة على أساس إرسال بواخر مفككة من إنجلترا إلى الساحل السورى ومنه إلى نهر الفرات . وهذه العملية لا يمكن لها أن تتم بنجاح إلا بعد الوصول إلى تفاهم مع عشائر شمر ، وكذلك مع عشائر عنزة .

---

(١) درسنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابنا « المصالح البريطانية فى أنهار العراق ١٦٠٠ — ١٩١٤ » ، دراسة وثائقية للتطورات التى أدت الى احتكار بريطانيا الملاحة فى العراق ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨ .

ولهذا ، عندما اقترب موعد إرسال الباخرتين — المدّتين للعمل فى نهر الفرات — إلى العراق ، أرسلت السلطات الانجليزية إلى العراق اثنين من رجالها العارفين بطبائع العشائر وهما كريستيان رسام C. Rassam (١) ، والمستر إليوت Eliot الذى قال عنه قائد البعثة المكلفة باستخدام الباخرتين فى نهر الفرات أنه ينحدر من سلالة عربية (٢) .

كل هذه الإستعدادات تؤكد لنا أن الانجليز كانوا يفضلون وجود شيخ ضعيف فى مشيخة شمر الجربا ، ومن ثم كان القبض على صفوق على هوى الانجليز لأنه يزيح عن طريقهم زعيما صعب الراس قادراً على تهديد مشروعاتهم بخطورة . فقد كان الانجليز فى حاجة إلى تفاهم أكيد أيضاً مع عشائر عنزه حيث أن الهدوء بين هذه العشائر من جهة وعشائر شمر الجربا من جهة أخرى كان أمراً ضرورياً كل الضرورة لنجاح المشروعات الملاحية الانجليزية فى الفرات .

فهل كان من الممكن للانجليز أن يتوصلوا إلى إتفاق ترضى عنه هاتين العشيرتين المتعاديتين ؟

لقد كان ذلك عسيراً ، وكان وجود صفوق فى المشيخة يجعل هذا الأمر أكثر تعقيداً وصعوبة . أما وجود شيخ آخر مكانه ، يكون أقل شهرة منه ويكون أكثر ليونة ، فانه يمهد الطرق بسهولة أمام الانجليز . ولقد كان المرشح الجديد لمشيخة شمر على هذه الصفات التى أرادها الانجليز ، ولعل هذا يفسر لنا نجاح المفاوضات التى دارت بين المسئولين الانجليز وشيخ شمر الجديد بشأن عقد صلح دائم بين شمر وعنزة فتحدثنا الوثائق الانجليزية عن أن الانجليز توصلوا إلى اتفاق يكفل لهم التنقل بين الساحل السورى ونهر الفرات دون أن يتعرضوا لأية هجمات من جانب العشائر(٣).

حقيقة أدى إبعاد صفوق عن العراق إلى تقوية السيطرة العثمانية عن ذى قبل

---

(١) مسيحى عراقى سيصبح بعد ذلك وكيلا سياسياً للانجليز فى الموصل من ١٨٣٩ — ١٨٧٢ .

(٢) F.R. Chesney : Narrative of the Euphrates Expedition, London, 1856, pp. 239-241.

(٣) Palmerston to Ponsinby, July 28, 1936, No. 63, F.O. 195/130.

فى منطقة الجزيرة العراقية وإلى تحويل الموصل — بعد طرد يحيى الجليلى منها — إلى قاعدة عثمانية هجومية ضد الوجود المصرى فى الشام . ولكن ذلك الأسلوب الذى اتبع فى القبض على صفوق كان ممقوتاً جداً لدى أهل العراق . علاوة عن أنه أسلوب مكروه بصفة عامة .

فما لاشك فيه أن تلك الأساليب التآمرية فى القبض على الزعامات الوطنية كانت تعطى الحكومة العثمانية سيطرة مؤقتة ونصراً مظهرياً . فالملاحظ أنه عندما تقع أزمة بين الناس والحكومة سرعان ماتستعيد ذاكرة الناس تلك الأساليب التآمرية التى اتبعتها الحكومة العثمانية ويكون ذلك مبرراً للتمرد والثورة واستخدام أساليب مماثلة ضد الحكومة نفسها .

وبالنسبة للعشائر العربية بالذات كان القبض على شيخها بمثل هذه الأساليب التآمرية يعتبر سقطة للحكومة لايمكن أن تغتفر ، ولا يمكن أن تكسب — حكومة هذه أساليبها — ثقة وإحترام العشائر . وهذا يفسر لنا موقف عشائر شمر الجربا بعد إعتقال صفوق . فقد ظلت عشائره ثائرة على الحكومة ، ولم يستطع الشيخ (١) — الذى عينه « على رضا » خلفاً لصفوق — أن يثبت أقدامه فى المشيخة ، بل لقد أصبح صفوق بطلا من أبطال العرب الذى لايعرف الخداع ويشق طريقه بحد السيف بينما أصبح الأتراك العثمانيون مجرد شرذمة من الحكام الأتراك المستبدين الذين لايرعون الدين أو الخلق أو العهد . فكانت هذه الأمور عاملا هاماً فى توسيع الشقة بين الأتراك والعرب(٢).

ولكن نلاحظ أنه بينما صدر حكم الأعدام ضد محمد بك (أمير راوندوز) ونفذ فيه بسرعه(٣) ، نجد صفوق يرسل هو وابنه فرحان إلى الآستانة ليعيشا هناك

---

(١) لم نستطع تحديد اسمه لعدم وروده فى المراجع ولقصر فترة حكمه وطغيان تاريخ صفوق عليه .

(٢) Ainsworth : A Personal Narrative of the Euphrates Expedition, vol. II, p. 319.

(٣) محفظة عابدين ، ٢٥٦ — ٢ فى ٣ محرم ١٢٥٤/٣١ مارس ١٨٣٨ ، محفظة ٢٥٦ عابدين ٢٥٦ — ٢ فى ٢١ محرم ١٢٥٤/١٨ أبريل ١٨٣٨ .

Wood to Ponsonby, September 3, 1836 (Ind. Office Rec., Fact. Rec., Per. and Per. Gulf, vol. 54, pp. 679-695).

فى المنفى زهاء ثلاث سنوات . حقيقة كانت إقامتهما محددة إلا أنهما كانا يتمتعان برعاية خاصة من جانب المسئولين هناك .

ولا شك أن هذا الاختلاف فى المعاملة ، كانت تتحكم فيها ظروف ذلك الوقت . وكانت ظروف جد عصيبة سواء بالنسبة للعثمانيين أو العشائر العربية أو العشائر الكردية . فقد أصبحت لدى العثمانيين حساسية شديدة ضد كل زعيم يتهم بالتعاون مع القيادة المصرية فى الشام . ولكنهم إلى جانب هذا كانوا فى حاجة ماسة إلى كل من يقدم معونة لهم ضد الوجود المصرى فى الشام . وفى هذا المجال اختلفت مكانة صفوق لدى العثمانيين عن مكانة محمد بك لديهم .

حقيقة كان محمد بك أميراً قوى الشكيمة حتى لقد كاد أن يسيطر على شمال العراق خلال العشرينات من القرن التاسع ، إلا أن فرص إتصاله بالقيادة المصرية فى الشام أصبحت قليلة جداً بعد أن أصبحت الموصل قاعدة عثمانية بعد طرد يحي الجليلى منها ، ومن ثم كان إعدام محمد بك يعنى أن أقوى شخصية فى ديار الكرد قد سقطت وأنه على بقية الأمراء والزعماء الأكراد الآخرين أن يخضعوا للسلطان العثمانى . ولقد كان فى استطاعة العثمانيين أن يسيطروا على الأمارات الكردية إذا ماوضعوا أيديهم على مقر الإمارة الكردية .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى الحكومة العثمانية نية إستخدام القوات الكردية ضد المصريين فى الشام ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة ماسة إلى وجود زعيم قوى كردى ليتولى قيادة قوانه الى الشام[1].

أما بالنسبة لعشائر شمر الجربا فالموقف كان يختلف . فقد كانت الحكومة العثمانية فى حاجة ماسة إلى القوات العشائرية الشمرية ، ومن ثم كان على العثمانيين أن يعملوا على كسبها إلى جانبهم ، ولو حدث أن أعدموا شيخها صفوق فان ذلك سيؤدى إلى عداء مستحكم يمنع من قيام تعاون قوى بينها وبين الحكومة . أما إذا أبقى على حياته ، وأعيد إلى منصبه فالآمال فى أن يخدم السلطان تصبح محتملة التحقيق .

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الأكراد لم يكونوا متحمسين للانتقال إلى ميادين حرب بعيدة عن مواطنهم .

وترجع قيمة عشائر شمر الجربا أيضاً إلى أن اتصالاتها بالقيادة المصرية يمكن أن تكون مباشرة حيث أن الجزيرة العراقية تربط بين العراق والشام . ومن ثم كان على العثمانيين ألا يثيروا حفيظة هذه العشائر فى هذه الظروف حتى لاتنضم عشائر شمر بأسرها إلى المصريين . وحيث أنه كان من المتعذر على الحكومة العثمانية أن توجه ضربة حاسمة إلى شمر الجربا — على شاكلة تلك الضربة التى وجهتها إلى محمد بك أمير راوندوز — فان إعدام صفوق كان سيعود بالمشكلات المعقدة وبالتالى يكون تجنب إعدامه خير للحكومة العثمانية من تنفيذه فيه .

ومن ناحية أخرى كان صفوق أكثر إدراكا لمشكلات المنطقة من غيره من شيوخ العشائر ، ومن ثم كان كسبه إلى جانب السلطان يعطى الحكومة العثمانية إمكانات كبيرة سواء من حيث الدفاع عن العراق أو الهجوم على الشام .

وإذا ما نجح العثمانيون فى كسبه إلى جانبهم ، وفى خوض المعركة المقبلة فى صف الجيش العثمانى ، فان النفقات التى ستدفقها عليه الحكومة ستكون قليلة حيث أن العشائر تتكفل بنفقات تحركاتها خاصة وأن ميدان المعركة المتوقعة ليس ببعيد جداً عن الجزيرة العراقية .

وكان المسئولون العثمانيون يعتقدون أن إقامة صفوق فترة مناسبة فى العاصمة العثمانية (الآستانة) ومشاهدته لروائعها ، وزيارته للسراى السلطانى الفخم سيغير من نظرته نحو الأتراك العثمانيين ولهذا كان من الأمور التى عنى بها المسئولون الأتراك أن يرى صفوق مايجعله يحترم الدولة العثمانية ويشعره بعظمتها واتساع ثرائها وقدراتها ، وأن يلقوا فى قلبه الخضوع المطلق للسلطان العثمانى . ولقد كان من بين الجهات التى قام صفوق بزيارتها السراى السلطانى نفسه . وعندما ذهب صفوق إلى هناك بهرته الرياش ومظاهر العظمة والملك وكان يتلفت يميناً ويساراً على عادة البدوى عندما يؤخذ بمثل هذه المظاهر ، وكان ذلك من دواعى اشمئزاز كبار رجال السراى . ولكنهم أخفوا امتعاضهم ، لأنهم كانوا يسعون إلى كسب ثقته .

ويبدو أن مناقشات عديدة دارت بين صفوق والمسئولين العثمانيين بشأن موقفه فى المستقبل من الصراع العثمانى المصرى . فقد أفرج عنه العثمانيون قبيل وقوع معركة

نوفمبر ١٨٣٩ . وأعادوا إليه المشيخة . وقام هو من جانبه بإعداد رجاله للمشاركة في المعركة المقبلة .

والمعروف أنه في أوائل ١٨٣٩ كان الجيش العثماني قد أخذ يتحرش بالقوات المصرية في شمال الشام حتى عبرت القوات العثمانية نهر الفرات ، وأصبح من الضروري خوض معركة حاسمة بين الطرفين . فكان من الطبيعي أن تراقب القيادة المصرية كل تلك التحركات وغيرها من التحركات التي قد تهدد الجيش المصري في الشام . وكان التهديد الموجهة إلى المصريين من جانب العراق قوياً . فقد كان والي الموصل العثماني (محمد اينجه بيرقدار) على رأس بعض الكتائب التي عبرت نهر الفرات إلى ضفته الغربية ، كما كانت هناك الشائعات القوية التي تردد أن « على باشا رضا » سيقود قوة كبيرة ليشترك بها مع الجيش العثماني الرئيسي الذي كان بقيادة حافظ باشا .

وجاءت الأنباء إلى القيادة المصرية أيضاً بأن عشائر شمر الجربا بقيادة صفوق ستنتشر على طول المنطقة الممتدة بين حماه ودير الزور . ولو ألقينا نظرة سريعة على هذه المنطقة — التي قيل إن صفوق سيتولى أمرها — لوجدناها تلائم حرب الصحراء التي كانت تتقنها تلك العشائر العربية . وأغلب الظن أن الخطة العثمانية وضعت على أساس أن تعمل العشائر العربية وراء خطوط مواصلات الجيش المصري منطلقة من قواعدها الصحراوية(١) .

ويبدو أن القيادة العثمانية كانت قد عولت كثيراً على ما سيقدمه صفوق من مجهودات عسكرية ، حيث أن حافظ باشا — القائد العام للجيش العثماني — بعث ابنه ليكون مع صفوق في تلك الجهات(٢) .

وتشير التقارير العديدة التي تلقيها القيادة المصرية عن تحركات قوات شمر إلى أن هذه القيادة كانت قد أولت عناية كبيرة جداً لتحركات هذه العشائر . وهذا يرجع إلى أن عيون المصريين في العراق كتبوا يقولون أن هذه القوات الشمرية هي أخطر ما في العراق من القوات الضاربة ، وأن ما لدى « على باشا رضا » والي بغداد

---

(١) Werry to Ponsonby : May 4, 1839, F.O. 78/371.

(٢) Ibid.

من قوات ليست سوى قوات من المرتزقة (الباشيبورق) . أما عشائر شمر الجربا فكانت كثيرة العدد سريعة الحركة قادرة على إنزال خسائر كبيرة بالقوات المصرية في وسط الشام ، في الوقت الذى يكون فيه الجيش المصرى منشغلا فى المعركة وقد وصفت القيادة المصرية خطورة التحركات الشمرية بشكل دقيق عندما قالت أن تلك الشائر لو انطلقت من نهر الفرات صوب الشام فانها ستحول المنطقة الممتدة « من المعرة إلى الشام خراباً بلقعاً »(١) .

ولقد كان انتقال القوات الشمرية من الجزيرة العراقية إلى ضفاف نهر الفرات أمراً يسيراً حيث أنها كانت تسير فى طرق صحراوية اعتادت على مثيلاتها . ولكن لكى تنتقل هذه القوات إلى الضفة الغربية عبر نهر الفرات كان لابد لها من استخدام عدد من السفن . فطلب صفوق من حافظ باشا — قائد عام القوات العثمانية — أن يزوده بالسفن اللازمة لنقل قواته . ولكن اعتذر له حافظ باشا بأن جميع السفن التى كانت تحت يده منهمكة فى نقل الجيش الرئيسى من ضفة نهر الفرات الشرقية إلى ضفته الغربية . فاضطر صفوق إلى الانتظار بعض الوقت حتى يتمكن من تعدية قواته (١) .

كان على القيادة المصرية فى الشام أن تواجه قوات شمر الجربا بقوة كافية لردها إذا هاجمت منطقة حماه . وكان فى حماة حينذاك الآلاين من الفرسان . وبسبب توقع هجوم شمرى على حماة فقد تقرر عدم اشتراك هذين الآلايين فى المعركة المقبلة . بل صدرت إليهما الأوامر بعدم التحرك من حماه والدفاع عنها .

وبعد دراسة أخرى للامكانيات الدفاعية المصرية ضد القوات العشائرية الشمرية وجد القائد العام للجيش المصرى (ابراهيم باشا) أن هذين الآلايين لا يكفيان لصد هجوم كبير شمرى . فطلب إبراهيم باشا من أخيه « عباس باشا » أن يبعث إليه من

---

(١) من ابراهيم الى عباس ١٥ صفر ١٢٥٥/١٨٣٩م ، محفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة تركية — ١ .

(٢) من محمد بجونى فى ٢٠ صفر ١١٥٥ هـ ، محفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة — ١ .
من محمد بجونى فى ٢٧ صفر ١٢٥٥هـ ، محفظة ٢٥٧ عابدين ، وثيقة .
من محمد بجونى فى ١٢ ربيع الأول ١٢٥٥ ، محفظة ٢٥٧ عابدين — ١ .

مصر بالآلايين الرابع والعشرين والحادى والثلاثين وبطاريق مدافع وبعض القوات العشائرية . ويبدو أن إبراهيم كان يرى أن الدفاع عن حماه يجب أن يكون بالقوات النظامية . وإما قتال شمر فى الصحراء أو مطاردتها ليس فى مقدور هذه القوات النظامية وإنما يجب أن تقوم به قوات بدوية مهدت فى حرب الصحراء على شاكلة شمر الجربا نفسها .

ولكن تبين أن سحب هذين الآلايين من مصر يعنى تجريدها من قوة دفاعية لازمة لمواجهة الطوارىء . ولاشك أن تجريد مصر من قوة عسكرية دفاعية منظمة يعنى تعريض قلب البلاد المصرية لخطر داهم لو حدث ونزلت قوات معادية إليها ، ومع هذا وجد « ابراهيم » أن ظروف المعركة المقبلة ، وتهديد شمر لحماة يقتضى إرسال هذين الآلايين وبطاريق مدافع إلى الشام على أن تدبر حكومة القاهرة قوات جديدة للدفاع عن مصر عند الحاجة إلى ذلك . ولهذا اقترح ابراهيم تسليح عمال الورش بالبنادق وتدريبهم على الأعمال العسكرية(١) .

وحيث أن التقارير الواردة إلى القيادة المصرية عن تحركات « شمر الجربا » كانت مضطربة ، وكانت هناك إشاعات عن أن صفوق قد لا يشترك فى المعركة المقبلة فإن المسئولين فى القاهرة تباطأوا فى إرسال القوات التى طلبها ابراهيم . ولكن لم تلبث التقارير أن أكدت أن صفوق عبر نهر الفرات بقواته صوب نزيب . وأصبح على المسئولين فى القاهرة تدارك الأمر بسرعة ، فأرسلوا على جناح السرعة الآلاى (الحادى والثلاثين) إلى الشام ومعه بطاريق مدافع وقوات عشائرية مصرية(٢) .

وعلى أى حال ، كانت عشائر شمر الجربا أداة من أدوات تشتيت المجهودات الحربية المصرية . ولكن المعركة الحاسمة التى كانت ستقرر مصير المنطقة هى تلك التى كان يستعد لها الجيشان المصرى والعثمانى بالقرب من نزيب . ولقد دارت المعركة فعلا فى ٩ يونيو ١٨٣٩ وانتهت المعركة باندحار شامل للجيش العثمانى .

---

(١) من ابراهيم إلى عباس : ١٥ صفر ١٢٥٥/١٨٣٩ ؛ محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة — ١ .

(٢) محفظة ٢٥٧ عابدين وثيقة — ١٢ ؛ من المعية إلى السر عسكر فى ١٩ ربيع الأول ١٢٥٥ هـ دفتر ٦ عابدين وثيقة ١٠٩ .

وخلال هذه المعركة كانت عشائر « شمر الجربا » قد أصبحت على مقربة منها. وشاهد رجال شمر كيف نزلت الهزيمة الحاسمة بالعثمانيين . وأغلب الظن أن صفوق لم يلق بقواته فى المعركة ولكن موقفه بعدها أصبح حرجاً ، فهو من وجهة نظر القيادة المصرية المنتصرة كان مع جيش العدو . ومن ثم فيجب مطاردته هو الآخر . وفعلا وجهت القيادة المصرية ضد شمر قوة من العشائر التى جاءت مصر لغرض مقاتلة العشائر الموالية للعثمانيين . وكان صفوق قد أدرك أن لا قبل له بالتصدى للجيش المصرى المنتصر ، فانسحب بقواته مسرعاً تاركا دواب عشيرته لدى بعض العشائر المخلصة له(١). ولما لم تجد القوات المصرية أثراً لعشائر شمر الجربا أنزلت العقاب بالعشائر التى أخفت دواب شمر لديها(٢) . وكان طبيعياً أن تكون المطاردة محدودة الأهداف حيث أن الحكومة المصرية كانت لا تفكر فى مد سيطرتها على العراق .

وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٨٣٩ — ١٨٤٢ فترة تحول خطيرة فى تاريخ المشرق العربى . فقد أدت هزيمة العثمانيين فى نزيب إلى إقناع الحكومة العثمانية بأنها لن تستطيع التغلب على المصريين إلا بالتعاون مع القوى الأوربية الكبرى . وكانت انجلترا مستعدة للتدخل لصالح السلطان العثمانى وضد مصالح مصر الفتية حتى تضمن انجلترا لنفسها اليد العليا فى المشرق العربى . وفعلا تدخلت الدول الكبرى — بتوجيه من انجلترا — وفرضت على مصر الإنسحاب من الشام ومن شبه الجزيرة العربية .

وترتب عن إنسحاب المصريين من المشرق العربى أن تفرغت الحكومة العثمانية — إلى حد كبير لتحقيق سيطرتها على ولاياتها العربية عن طريق القضاء على العصبيات المحلية فيها . وقد تولى تنفيذ هذه السياسة فى العراق نجيب باشا والى بغداد الذى خلف على باشا رضا فى عام ١٨٤٢ م. واستمر فى منصبه حتى عام ١٨٤٧ .

---

(١) من محمد معجونى إلى إبراهيم باشا ٢٩ جمادى الثانية ١٢٥٥هـ/٩ سبتمبر ١٨٣٩ ، محفظة ٢٥٨ عابدين ص ١ .

(٢) إبراهيم إلى محمد معجون : ٧ رجب ١٢٥٥ / ١٧ سبتمبر ١٨٣٩ ، محفظة ٢٥٨ عابدين ص ١٤ .

ولقد كانت الظروف تضع كلا من نجيب وصفوق على طرفى نقيض . فقد كان نجيب باشا يسعى إلى القضاء على العصبيات المحلية بينما كان صفوق — منذ هزيمة العثمانيين فى نزيب — يستخف بهم ثائراً عليهم[١] . وكان من المنتظر أن يوجه نجيب باشا جهده ضد صفوق ولكن نجده على العكس من ذلك . ففى الوقت الذى أقدم فيه نجيب باشا على إعدام سليمان الغنام — شيخ عشائر العقيل[٢] — نجده يحاول أن يحسن من علاقاته مع صفوق . ويبدو أن نجيب باشا كان قد أضمر فى نفسه القضاء على صفوق ولكنه آثر أن يخفى أهدافه هذه إلى أن تحين الفرصة ولهذا أعاد صفوق إلى مشيخة الجربا وخلع عليه[٣] .

ويبدو أن صفوق أعتقد أنه يستطيع الحصول على إمتيازات جديدة من نجيب باشا فى مثل هذه الظروف . وفعلا طالب صفوق ذلك منه . ولكنه وسط الوكيل السياسى الإنجليزى فى بغداد الميجور روبرت تيلر . . . . R. Taylor لدى نجيب باشا من أجل الحصول على طلباته[٤] .

ومع أننا لاندرى هل نجح روبرت تيلر فى وساطته أم لا ، فإنه مما لا شك فيه أن هذه الوساطة أساءت إلى صفوق ، فقد كان الولاة العثمانيون سيئو الظن بتلك العلاقات الودية التى كانت بين الدبلوماسيين الإنجليز والزعامات المحلية[٥] .

---

(١) A.H. Layard : Nineveh and its Remains, London, 1848, vol. I, pp. 93-97.

(٢) Taylor to Secret Committee, November 24, 1842 (Political and Secret Department Records, Letters from Agent at Bagdad, vol. 13, pp. 115-117.

(٣) Taylor to Secret Committee, August 22, 1842 (Ibid., pp. 81-85).

(٤) Taylor to Secret Committee, October 18, 1834 (Pol. and Sec. Dep. Recs., Lets. fr. Pol. Ag. at Bag., vol. 13, pp. 231-235).

(٥) زادت هذه الظاهرة بوضوح فى القرن التاسع عشر. ومن ذلك أن ناصر السعدون — شيخ عشائر المنتفق — أن يقبل دعوة نامق باشا له إلا بعد أن حصل على تأكيد بسلامته من القنصل الانجليزى فى بغداد . كذلك وسط « مطلق آل كريدى » — شيخ عشائر =

ويبدو أن نجيب باشا كان يدبر المتاعب لصفوق ومن جهة أخرى كانت أحوال صفوق نفسه فى تدهور مستمر منذ مجىء نجيب باشا إلى العراق . فقد ظهر منافس خطير لصفوق فى شخص « نجريس » المطالب بالمشيخة . وكثيراً ما واجه صفوق مثل هذه المواقف ، ولكنه فى هذه المرة كان يبدو ضعيف الجانب أمام خصمه « نجريس » الذى استطاع أن يكسب إلى صفه قسما كبيراً من العشائر .

وخلال هذه الأزمة بدا واضحاً أن صفوق فى حاجة إلى قوة تشد أزره لكى يستعيد سيطرته الكاملة على عشائره . ويبدو أن صفوق وجد أنه لو قدم خدمات لنجيب باشا ربما استطاع أن يستعيد قوته وانفرد بالمشيخة . ولهذا أبدى صفوق استعداده لمساعدة نجيب باشا فى صد عشائر عنزة التى هبطت الجزيرة العراقية غازية ناهبة . ولكن نجيب باشا فضل أن يواجه عنزة بإمكانياته هو وبقوة العشائر البدوية الموالية له حتى لا يمكن صفوق من استعادة تفوقه وقوته(١) .

ولقد زاد موقف صفوق بعد ذلك تدهوراً بسبب بعض الأمور التى كانت خارج إرادته . فقد ضنت الطبيعة على مراعى شمر بالأمطار لمدة عامين متتاليين حتى لقد أصبح صفوق نفسه فى عوز شديد لدرجة أنه اضطر إلى بيع «خلخال» زوجته(٢) فى الموصل ليشترى به قمحاً (٣) .

ووجد نجيب باشا فى هذه الظروف فرصة مواتية لإرهاق آل محمد (البيت الحاكم فى شمر الجربا) إرهاقاً قد يمهد للقضاء على صفوق . فقد كان المعتاد أو يتخذ

= الخزاعل ـ القنصل العام الفرنسى فى بغداد ليشرح قضيته ليصلح المشاكل بينه وبين والى بغداد انظر :

Kemball to Erskine, February 24, 1864, No. 4, Précis of Turkish Arabia, Paragraph No. 142, F.O. 195/803, A. and Rawlinson to Secret Committee, December 26, 1843 (Political and Secret Department Records, Letters from the Persian Gulf, vol. 13, pp. 243-254).

(١) Rawlinson to Canning, June 10, 1842 (Pol. and Sec. Rec. Dept., Sec., Lets. fr. Ag. at Bagdad, vol. 14, pp. 55-63).

(٢) من عادة فتيات وسيدات العراق لبس الخلخال الذهبى ويسمى فى العراق (حجل ، حجول) .

(٣) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 93-97.

الوالي جانب أحد المتنافسين على المشيخة ، ولـكن نجيب باشا لم ياخذ جانب صفوق ولاجانب نجريس وإنما أسند مشيخة شمر الجربا إلى فرحان بين صفوق ، وأخذ نجد يحث فرحان على أن يثبت مقدرته على الوقوف على قدميه فى مواجهة كل من أبيه صفوق ، وعمه نجريس . ولـكن « فرحان » لم يسر فى هذا الطريق الذى رسمه نجيب باشا له . وظل مخلصاً لأبيه ولفـكرة وحدة العشيرة تحت زعامة صفوق . بل لقد حاول «فرحان» أن يصفى المشاكل التى كانت بين صفوق « ونجريس » حفاظاً على كيان البيت الحاكم وعلى كيان العشائر الشمرية ويبدو أن صفوق وجد فى هذا المسعى الجيد فرصة لتحقيق أهدافه :

فقد وجه « صفوق » دعوة « نجريس » لعقد اجتماع كبير لشيوخ عشائر شمر لتصفية الضغائن ولـكن نجريس رفض قبول الدعوة لأنه كان يدرك أن « صفوق » مستعد لأن يقدم على أى عمل طائش فى سبيل استعادة انفراده بالمشيخة . ولـكن صفوق أصر على أن يكرر الدعوة إليه ، وبعث بابنه فرحان ليطمئنه وليزيل ما لديه من مخاوف .

ولقد كان « فرحان » يخشى أن يحنث أبوه بوعود ، وأن يغدر « بنجريس » فيحمله وزر هذه الوساطة . ولذلك أخذ « فرحان » العهود على أبيه بألا يصيب نجريس بأى أذى إذا ما حضر الأخير فى صحبته . وعلى هذا الأساس ذهب «نجريس» مع فرحان إلى الاجتماع ، ودخل خيمة صفوق ، وجاس الرجلان كل بجانب الآخر . وبعد فترة وجيزة استل صفوق سيفه وقتل نجريس رغم توسلات فرحان(١) .

لقد كان صفوق يعتقد أنه بقتل نجريس — مهما كانت الوسيلة — يستطيع أن يستعيد السيطرة الـكاملة على عشائر شمر الجربا . ولـكن ذلك الغدر لم يكن مقبولا لدى العشائر البدوية الأمر الذى أدى إلى زيادة ضعف مكانة صفوق عن ذى قبل . وأخذت العشائر الشمرية تنحاز إلى مطالب جديدة بالمشيخة هو « عيوضة » الذى ثبت أقدامه فى نواحى سنجار وشمال العراق .

---

(١) Kemball to Cowley, September 29, 1847, F.O. 195/272.

(٢) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114.

Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, pp. 111-114.

وعندما علم نجيب باشا — والى بغداد — بما أقدم عليه صفوق نحو نجريس لم يلق اللوم على صفوق ، وقبل من صفوق أعذاره ومبرراته ، بل وثبته فى المشيخة ، وأردف ذلك بأن أرسل إليه قوة عسكرية حكومية تحت قيادة « إبراهيم أغا » .

لقد كان نجيب باشا يلعب لعبة كبيرة . واختياره إبراهيم أغا بالذات ليتولى قيادة القوات الحكومية الذاهبة لصفوق كان الخطوة الأولى فى تنفيذ مؤامرة مدروسة ضد صفوق(١) . فقد كان «إبراهيم أغا» هذا ضابطاً من ضباط (الهايتا) . وكان « إبراهيم أغا » شركسياً مسيحياً ثم أسلم . واشتهر بتنفيذ مؤامرات ناجحة ضد الزعماء الوطنيين الثائرين على السلطان العثمانى . وكان الرجل ماهراً فى التخلص من هؤلاء الزعماء بطريقته الخاصة . فكان يحتال بطريقة أو بأخرى لكى يصل إلى مجلس الأمير الثائر ، ثم ينقض عليه فيصرعه بضربة من سيفه تقضى عليه أو بإطلاق الرصاص عليه فينتهى أمره فى سرعة خاطفة ، ثم يعلن أن ذلك كان بأمر السلطان العثمانى ، ويأخذ رأس الضحية وينصرف بها إلى المسئولين العثمانيين الذين كانوا ينتظرون نجاح مهمته . وهذا ما فعله مع شيخ « زاخو »(٢) .

تلك كانت مهارات « إبراهيم أغا » ، وذلك كان تاريخه ، ويبدو أن صفوق لم يكن يعرف عنه شيئاً حيث أنه قد عزم على الاعتماد عليه فى بعض العمليات العسكرية بينما كان « إبراهيم » خلال وجوده لدى صفوق يتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ المؤامرة .

وجاءت هذه الفرصة عندما اشتبكت قوات صفوق — بقيادة إبنه فرحان — مع عشيرة ثائرة . وعند ما ابتعد فرحان بقواته ، انقض « إبراهيم أغا » على صفوق فصرعه وقطع رأسه وأخذها معه إلى بغداد . وهكذا كانت نهاية « سلطان البر »(٣) .

ويجدر بنا هنا أن نقيم أعمال صفوق : هل كانت كل تلك الحركات الكبرى التى قام بها صفوق من أجله هو فقط ومن أجل مصلحته الشخصية أم أنها كانت

---

(١) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114

(٢) أصبحت زاخو (فى شمال العراق) منذ ذلك الوقت تحت الحكم المباشر العثمانى .

(٣) Layard : Nineveh and its Remains, vol. I, p. 114

أيضاً من أجل عشيرته ورفع شأنها بين مختلف العشائر ؟ كما نتساءل أيضاً : ألم يكن صفوق أبعد هدفاً وأعمق فكرة عندما دافع عن العراق ضد الفرس ، وعندما تعاون مع القيادة المصرية فى الشام ضد الحكم العثمانى فى العراق .

لا شك أن صفوق كان — رغم بداوته — من معدن فريد بين شيوخ العشائر . وأنه كان واسع الأفق إذا ما قورن بغيره من شيوخ العشائر الآخرين وذلك لطول احتكاكه بالقوى العديدة التى كانت فى داخل العراق وخارجه . ولا شك أن صفوق شعر بقيمة العراق له ، وبقيمته للعراق ، وبأنه شخصية بذلت الكثير من أجل العراق فيحق لها أن تشارك فى أموره وتوجيه سياسته .

ولكن سيطرة الفكر البدوى عليه ، وعدم قدرته على الارتفاع — بسبب ذلك — إلى مستويات الدبلوماسية العالية حينذاك كان يحول دون وصوله إلى مركز كبير فى مجالات الحكم والإدارة . ثم إنه كشيخ عشيرة بدوية كان ينظر إليه من جانب أهل المدن بعين الغدر والريبة ، لأن البدو بالنسبة لأهل المدن — كانوا خطراً داهماً لا يجب أن تفتح المدينة لهم أبوابها وإلا استباحوها .

ولقد كان لصفوق عمليات قاسية ضد بعض المدن العراقية مثل بغداد وتكريت ، حتى أن أهل تكريت اضطروا إلى أن يحفروا خندقاً للدفاع عن المدينة ضد هجماته(١) .

ومن ثم لم يكن صفوق يمتلك مقومات الزعيم الوطنى القادر على أن يحل محل الحكم العثمانى . إلا أن مصرعه على تلك الصورة كان عاملا هاماً جعل صفوق أسطورة البادية ، كما أنها عمقت الهوة بين الأتراك وآل محمد (شيوخ شمر الجربا)(٢).

وبعد مصرع صفوق أسند نجيب باشا مشيخة عشائر شمر الجربا إلى عيوضة الذى كان أقوى من نافس صفوق . بينما كان فرحان بن صفوق قد فر من وجه الحكومة حتى لا يلقى نفس مصير أبيه . ولكن سرعان ما غير نجيب باشا رأيه وعزل عيوضة وأسند المشيخة إلى فرحان(٣) . وأغلب الظن أن نجيب باشا لم يفعل

---

(١) Jones, J.F. : Selections from the Records of the Bombay Government No. XLIII. Memoirs Bombay, 1857, p. 23.

(٢) Rawlinson to Cowely : October 27, 1847. F.O. 195/272.

(٣) Saldanha : Precis of Turkish Arabia, August 25, 1849, Nos. 25-26 ; Kemball to Cowely : September 29, 1947, F.O. 195/272.

هذا إلا ليستعيد ثقة عشائر شمر الجربا التى كانت متملقة بصفوق وبأمجاده رغم أخطائه فى أواخر أيامه . ثم أن فرحان نفسه كان صاحب تجارب وخبرات وصفات تجعله جديراً بالمشيخة سواء لدى الحكومة العثمانية أو لدى أهل العشائر أنفسهم .

ففرحان هو أحد أبناء صفوق من زوجته الحضرية . وقد شارك أباه سنوات النفى فى الآستانة (١٨٣٤ — ٨) . ويبدو أن مظاهر الأبهة والعظمة التى شاهدها فى العاصمة العثمانية جعلته يعتقد أن الدولة العثمانية لا تقهر . ومن ناحية أخرى أعتقد فى ضرورة إيجاد أسس قوية للتفاهم بين الحكومة العثمانية فى العراق والعشائر البدوية .

والحق ، إن أفكار الشيوخ العشائريين فى القرن التاسع عشر كان قد أصابها تغير واضح عنها فى القرون العثمانية السابقة . فلقد هبت على العراق فى القرن التاسع عشر تيارات عديدة قوية كانت تهز أفكار الناس هزاً ، وكانت الأزمات الكبرى التى تقع فيها الدولة العثمانية تصل بعض أنبائها إلى العراق ، وكان ظهور القوى الأوربية بوضوح فى الخليج العربى والشام من الأمور التى جعلت الزعامة الوطنية فى المشرق العربى تعيد النظر فى بعض أفكارها وإتجاهها . وكانت الدولة العثمانية نفسها تحاول أن تغير من طريقة حكمها ومن أساليب الإدارة لعلها تستطيع أن تصل إلى مستوى العصر .

ولا شك أن التغييرات التى طرأت على الدولة بسبب الإصلاحات والتنظيمات قد أثرت فى أفكار شيوخ العشائر فجعلتهم يختلفون إلى حد ما عن أسلافهم فى القرون العثمانية السابقة ويمثل فرحان نموذجاً لهذا النوع الجديد من الشيوخ الذين حاولوا التفاهم مع الحكومة وأن يحافظوا على كيان عشائرهم فى آن واحد . فكان طبيعياً أن يجد نفسه فى كثير من الأحوال يعيش فى متناقضات شديدة ويعانى من إتجاهات متعارضة كل التعارض .

ولقد كان فرحان مخلصاً فى أن يأخذ ببعض سياسات الحكومة وخاصة السياسة الهادفة إلى إستقرار العشائر فى أرض محددة تقوم فيها بالأعمال الزراعية ، فتكف العشائر بالتالى عن عمليات الغزو ، وتصبح مصدر إنتاج وعاملا من عوامل الهدوء فى المنطقة . ولقد أدى ذلك إلى أن يزداد التفاهم بين فرحان والحكومة حتى لقد

أقدمت الأخيرة على خطوات هامة فى هذا الصدد فقد اتفقت الحكومة معه على أن يحصل على مرتب شهرى ينفق منه على نفسه وعلى أسرته فى مقابل عدم الأقدام على أية تحركات عسكرية ضد العشائر المجاورة وضمان الهدوء فى ديرته[١] . ولقد سار هذا التفاهم بين فرحان والحكومة إلى ددجات بعيدة . فقد شارك فرحان الحكومة فى الضغط على عشيرة حمود — وهى عشيرة شمرية -- لإرغامها فى رد ماسلبته من أموال الحكومة[٢].

ومن ناحية أخرى طلبت سلطات الآستانة — فى محاولاتها للتفاهم مع القوى العشائرية — من والى الموصل أن يبعث ثلاثة من أولاد الأعيان ومن أسرة الجربا الحاكمة ليقيموا فى الآستانة وليلحقوا بمدرسة العشائر التى كان الهدف منها ربط شيوخ المستقبل بالولاء للسلطان العثمانى .

ولكن المشكلة العويصة هى : هل كانت العشائر الشمرية على استعداد لقبول تلك الاتجاهات التى كانت تعتبر تقدمية إلى درجة كبيرة حينذاك .

والحق ، كانت هناك عدة عوامل تحول دون نجاح فرحان فى إقناع كل عشائره بالسير فى تلك الاتجاهات . وأولى هذه العوامل أن عشائر شمر الجربا كانت كبيرة العدد ، ومراعيها المترامية فى الصحراء لا تدخل ضمن الوادى المزروع . والمعروف أن العشائر البدوية عرضة فى كل وقت لانفصال بعض أجزائها عنها الأمر الذى يجعل موقف شيخ العشيرة حرجا ، حيث أنه يظل مسئولا عن أعمال تلك العشائر رغم انفصالها عن بيت الرئاسة .

ومثل هذه الظروف كفيلة بأن تخلق الزعيم الذى ينافس فرحان ويتطلع إلى المشيخة . ولقد تعرض فرحان لأزمات شديدة من هذا القبيل . فقد اتخذ أخوه نايف طريقاً خاصاً به على رأس بعض العشائر الشمرية مثيراً الفوضى والأزمات

---

(١) Kemball to Bulwer : No. 27, Sept. 25, 1861, F.O. 195/676.

(٢) Ross : Letters from the East, p. 61 ; Walpole : vol. I, pp. 339-340 ; Layard : Discoveries, pp. 268-269.
Rassam to Canning : No. 8, April 25, 1852, F.S. 195/394.

(٣) Rassam to Bulwer : Sept. 28, 1863, F.O. 195/752.

ليثبت للحكومة أن فرحان عاجز عن القيام بواجبه كشيخ لعشائر شمر الجربا لعل ذلك يؤدى إلى صدور قرار بعزله . ولكن يبدو أن نايف كان غير قادر على التغلب على فرحان ولا بالقادر على أن يفرض نفسه على الحكومة ، فلم تلبث تمرداته إن هدأت بعد وقت قصير(١) .

وإذا كانت تمردات « نايف » قليلة الخطر على فرحان أو على تماسك عشيرة شمر الجربا ، فإن تمردات أخيه الثانى « عبد الكريم » كانت على جانب كبير من الخطورة ، حيث أن التنافس بين « فرحان » و « عبد الكريم » لم يكن تنافساً على المشيخة فقط — مثلما كان عليه الحال من قبل — وإنما كان يقوم على أساس اختلاف وجهات النظر بالنسبة لمستقبل العشيرة ، وقد برزت هذه الخلافات بصورة خطيرة عندما تولى مدحت باشا ـ المصلح التركى المشهور ـ حكم بغداد ، ١٨٦٩(٢) .

فقد عقد مدحت باشا العزم على أن ينفذ سياسة تؤدى إلى استقرار العشائر فى الزراعة . ولهذا عرض على « فرحان » مساحة مناسبة من الأراضى الزراعية لتستقر فيها عشيرته بالقرب من نهر دجلة . وقد قبل فرحان هذا العرض الأمر الذى شجع مدحت على المضى فى مشروعه . ولكن قسماً كبيراً من العشائر الشمرية لم يقبل هذه السياسة . فكان ذلك فرصة سانحة لظهور زعامة جديدة تدافع عن وجهة نظر هذه العشائر . وكان عبد الكريم — أخو فرحان — معترضاً على تلك الاتجاهات

---

(١) Kemball to Bulwer : No. 2, January 30. 1861, F.O. 195/676.

وتجدر الإشارة إلى أن عشائر شمر كانت تتعرض من وقت لآخر لضغط عنيف من جانب عشائر عنزه عدوتها التقليدية ولقد تعرضت شمر الجربا لتعديات عنيفة من جانب عشائر عنزه فى ١٨٥٨ فى نواحى الموصل . ويبدو أن فرحان طلب من والى بغداد أن يعبر بعشائره إلى ماوراء بغداد ، ولكن الوالى رفض لأنه كان يخشى من الفوضى التى ستترتب عن انتقال شمر إلى تلك الجهات ، وهذا يدلنا عن أن عشائر شمر الجربا تحت قيادة فرحان كانت أضعف شوكة منها عندما كانت تحت قيادة صفوق .

انظر :

Kemball to Bulwer : No. 2, January 30, 1861, F.O. 195/676.
Kemball to Alison : No. 5, February 8, 1858, F.O. 195/577.
Kemball to Lyons : No. 41, October 17, 1866 (Précis of Turkish Arabia. pp. 72-73). Kemball to Bulwer, January 30, 1861, No. 2, F.O. 195/676.

(٢) حكم حتى ١٨٧٢ .

الحكومية . فتزعم عبد الكريم ثورة كبيرة ، ونادى فى العرب أن مشروعات مدحت باشا لا تهدف إلا إلى القضاء على تقاليدهم البدوية — التى هى خير من أية تقاليد أخرى من وجهة نظره . كما دعا العرب إلى أنه قد آن الأوان لأن يقف العرب وقفة رجل واحد ضد الحكومة التركية . ولقيت نداءاته هذه آذاناً مصغية لدى العشائر التى تمسكت ببداوتها(١) .

وكانت العلاقات الاجتماعية ذات أثر كبير فى تصاعد الحركة الثورية التى قام بها عبد الكريم . فقد كان عبد الكريم معتزاً بأن أمه هى عمشة العربية الأصيلة ، بينما كان فرحان من زوجة أخرى لصفوق كانت حضرية . وكان عبد الكريم يفخر بأنه لم يذهب إلى الآستانة ولم يتطبع بطبائع الأتراك . وكان المعروف عن فرحان أنه قد تقلد الرتب العثمانية ، كما كان عبد الكريم ينعى على أخيه فرحان أنه كان يأخذ مرتباً شهرياً من الحكومة(٢) . ومثل هذه الدعايات تستطيع أن تجذب إليها الأسماع فى ذلك المجتمع العشائرى حينذاك . ولكنها من ناحية أخرى لا تستطيع أن تكسب كل القلوب ، حيث أن الفترة كانت فترة انتقال . وكان الناس يريدون التطور والتقدم وهم عاجزون عنه ، وخائفون على تقاليدهم من ذلك التطور والتقدم كانوا معتزين بأنفسهم ويرغبون رغبة صادقة فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . ولكنهم أضعف من أن يفرضوا ذلك على الحكومة العثمانية ذات الإمكانات العسكرية الواسعة . ولهذا انقسمت العشائر الشمرية بشدة على أنفسها ولكن فى تردد واضطراب ، فلا استطاع فرحان أن يقنع عبد الكريم بخطىء مسعاه ، ولا استطاع عبد الكريم أن يقنع فرحان بفكرته . وظل كل منهما متمسكاً بقضيته .

وهناك أسباب أخرى قيل أنها أدت إلى ثورة عبد الكريم ومنها ما ذكره القنصل البريطانى فى بغداد هربرت فقد قال إنه كان من المتعارف عليه أن يدفع العقيل — أدلة القوافل العاملة بين العراق والشام — مبلغاً من المال إلى شيوخ شمر لضمان سلامة القوافل أثناء مسيرتها فى أراضى شمر . ولكن يبدو أن «العقيل» قدموا المبالغ السنوية لفرحان وليس لعبد الكريم . فانقض عبد الكريم على إحدى

---

(١) Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

(٢) Herbert to Elliot : August 2, 1871, No. 36, F.O. 195/949.

القوافل وتهبها بادئاً بذلك ثورته(١).

وقد كان مدحت باشا شديد الحساسية لأى تهديد لطرق المواصلات التجارية بين العراق والشام حيث أنه كان معنياً كل العناية بتأمين هذه المواصلات البرية والنهرية عاملا على رفع العراق إلى المستوى الذى يستطيع به أن ينافس قناة السويس طريق المواصلات العالمية. فلقد أدى افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩ إلى حث الحكومة العثمانية ومدحت باشا إلى العمل على تنشيط التجارة العالمية عبر العراق(٢) وهذا لا يتأتى إلا باستتباب الأمن فى الطرق العامة للمواصلات عبر العراق. ومن ثم كانت تحركات عبد الكريم تثير الاضطراب فى المشروعات العثمانية.

ومن ناحية أخرى وقعت ثورة عبد الكريم فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية قد تحركت من العراق للسيطرة على الإحساء(٣) فأعلن مدحت أن عبد الكريم أصبح خارجاً على القانون وأعد العدة لتوجيه ضربة قوية له (١٨٧١/٧/١٧)، وأعلن عن مكافأة قدرها عشرة آلاف قرش لمن يأتيه بعبد الكريم حياً، وبنصف هذه المكافأة لمن يأتيه به ميتاً(٤).

ويبدو أن الخطوات التى اتخذها مدحت ضد عبد الكريم كانت سريعة المفعول فقد أخذت العشائر تنفض عنه حتى أصبح من الواضح أنه لا يستطيع الصمود طويلا أمام قوات الحكومة. ومن ناحية أخرى كان مدحت متمسكا كل التمسك بتطبيق القانون على عبد الكريم ليكون ذلك عبرة لغيره من الشيوخ الذين يفكرون فى التمرد على الحكومة العثمانية.

وبعد وقت قصير وجد عبد الكريم أن بقاءه فى العراق يعرضه لخطر داهم

---

(١) Herbert to Elliot : July 17, 1871, F.O. 195/949.

(٢) حيدر مدحت : تبصره عبرت، ٩٨، يعقوب سركيس، مباحث عراقية ج ٢، نبذة ٢٧٧.

(٣) انظر تفاصيل هذه الحملة فى F.O. 195/949. ومجموعة كبيرة من الوثائق المتعلقة الحملة موجودة بمكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس على ميكروفيلم. وانظر الفصل الحادى عشر من كتابنا «تاريخ العراق الحديث».

(٤) Herbert to Elliot, No. 32, July 17, 1871 ; No. 36, August 2. 1871, F.O. 195/949.

فعزم على الرحيل إلى جبل شمر ـ الموطن الأصلى لعشيرته ـ وكان جبل شمر حينذاك تحت حكم آل رشيد . وكان آل رشيد يقدرون تماماً أن الدولة العثمانية عازمة على أن تفرض سيطرتها بقوة على العراق وما جاوره ، ويشاهدون عن كثب تدفق القوات العثمانية على الإحساء (١٨٧١)(١) ، وكذلك مساعى مدحت لإقصاء البيت السعودى عن الحكم فى الإحساء ونجد . ومن ثم كان وقوف آل رشيد بجانب ثورة عبد الكريم أو إيوائهم له قد يعرضهم لنقمة مدحت .

لقد سارع مدحت منذ البداية إلى توجيه تحذير شديد اللهجة إلى آل رشيد طالباً منهم عدم إيواء عبد الكريم إن قدم عليهم . وبهذه الخطوة يكون مدحت قد أحكم الحلقة حول عبد الكريم . ومن سوء حظ عبد الكريم أنه أصيب بجرح أضعف من قدراته على الحركة وأخيراً وقع فى يد ناصر السعدون ـ شيخ عشائر المنتفق ـ الذى لم يتوان عن تسليمه إلى مدحت باشا(٢) .

وتلقى آن بلنت A. Blunt لوماً شديداً على ناصر السعدون لأنه سلم عبد الكريم إلى رجال الحكومة(٣) . والواقع أن عبد الكريم — من وجهة نظر الحكومة — كان مجرد ثائر خطر عليها ، فمن يعاونه أو يخفيه كان سيعرض نفسه للعقوبات الجنائية التى كان مدحت حريصاً على تطبيقها فى مثل هذه الظروف . ولقد كان ناصر السعدون مسئولا عن الأمن فى منطقة المنتفق ، ومسئولا عن التعاون مع الحكومة . ومن ثم فإن ناصر السعدون قام بواجبه فى هذا الصدد . ولكن للموضوع وجه آخر . وهو أن العرب اشتهروا بحماية بنى جلدتهم من رجال الحكومة الأتراك . والحق ، لقد كان الوقت عبارة عن فترة انتقال من الولاء للفكر العثمانى إلى الولاء للفكر العربى . وفترات الانتقال تكون عادة مليئة بالمتناقضات . فلقد كان ناصر السعدون بين نارين : هل يحكم العاطفة ورابطة الدم أم القانون التركى ؟

---

(١) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, vol. I, Part I, p. 1129.

(٢) A. Blunt : Bedouin Tribes, vol. I, pp. 122-123.

(٣) Ibid

وكان قراره هو تسليم عبد الكريم إلى الحكومة لأنه كان مسئولا أمامها ، وقد يعرض عشائر المنتفق لمتاعب قاسية إن هو عارض سياسة الحكومة .

بعد أن تسلمت الحكومة فى بغداد عبد الكريم عقدت له محاكمة رسمية وأجريت مراسيمها تحت إشراف وتوجيه مدحت حتى صدر حكم الإعدام على عبد الكريم . ثم تقرر ترحيله إلى الآستانة ولكنه ما أن وصل إلى الموصل حتى جاء التصديق بإعدامه شنقاً ، فنفذ فيه الحكم قرب الموصل فى نفس المنطقة التى بدأ منها ثورته(١) .

وإذا كان أمر عبد الكريم قد انتهى على هذه الصورة الدرامية ، فإن أمه عمشة آلت على نفسها أن يستمر أبناؤها فى التطلع إلى منصب المشيخة ، وأن يظلوا مخلصين لتقاليد البدو والبـــادية . وهذا ليس بمستغرب على سيدة — مثل عمشة عاشت معظم حياتها فى كفاح متواصل إلى جانب صفوق ثم إلى جانب إبنها عبد الكريم — أن لا تكف عن الكفاح من أجل رفع أحد أبناء صفوق إلى منصب الولاية ولا شك أن فقدها لزوجها صفوق على تلك الصورة الغادرة ثم إعدام إبنها عبد الكريم جعلها أكثر صلابة فى مقاومة الترك عن ذى قبل . فقد أخذت أولاد عبد الكريم وكذلك إبنها فارس إلى جبل شمر . وهناك ربتهم تربية بدوية أصيلة وأرضعتهم لبان الكراهية للترك ولفرحان شيخ العشائر .

ولما أصبح فارس بن صفوق فتى من فتيان العرب دفعت به إلى معترك السياسة مطالباً بمشاركة فرحان المشيخة . واستطاع فارس أن يكسب إلى جانبه عدداً من العشائر وبدا كأن جولة جديدة من الصراع الأسرى بين آل محمد على وشك الوقوع. ولكن الحكومة عملت على الوصول إلى تسوية أرضت الطرفين . فقد اتفقت مع « فارس » على إعطائه مرتباً شهرياً فى مقابل هدوء العشائر التى تحت يده . وهكذا أخذت أمور العشيرة فى الاستقرار . حقيقة وقعت بعض الأحداث إلا أن هذه الأحداث لم ترتفع إلى المستويات العالية التى مرت بنا أيام « مطلق بن محمد » ،

---

(١) حيدر مدحت ، تبصرة عبرت ومرآة حيرت ، استانبول ص ١١٠ـ١١٣ .

و « صفوق » ، « فرحان » . « وعبد الكريم » ثم أن العراق كان قد دخل في مرحلة جديدة تتسم بالعمل السياسي القائم على الفكر العربي المتطور .

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر أصبحت الزعامات العربية العراقية مركزة في جماعات المثقفين من أهل المدن الذين كانوا في نفس الوقت يستمدون كثيراً من قوتهم ضد عشائرهم . وهذه مرحلة من أهم مراحل التاريخ العراقي الحديث .

المراجع

أولا — وثائق غير منشورة

١ — دار الوثائق الأهلية فى عابدين

محفظة ٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ .

٢ — Commonwealth Relations Library :

a) India Office Records, Factory Records, Persia and the Persian Gulf, vols. 47, 49, 51, 54.

b) Political and Secret Department Records : Letters from Agents at Bagdad, vol. 13-14.

٣ — Public Record Office :

a) F.O. 78 : 210, 371, 394.

b) F.O. 195 : 803A, 272, 577, 676, 752, 949.

ثانيا — المؤلفات العربية والتركية

١ — جودت باشا :

تاريخ جودت ، ج ٧ ، مطبعة عثمانية د ، طبع المصدر ، ١٣٠٢ هـ .

٢ — سركيس (يعقوب) :

مباحث عراقية . جزءان ١٩٤٨ .

٣ — سند (عثمان) :

مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالى داود . اختصره أمين بن حسن الحلوانى ، طبع بمبى ١٣٠٤ هـ .

٤ — العزاوى (عباس) :

(ا) تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ، ج ٥ (١٩٥٣) ، ج ٦ (١٩٥٤) .

(ب) عشائر العراق ، ج ١ ، بغداد ١٩٣٧ .

٥ — فائق (سليمان) :

تاريخ بغداد ، بغداد ١٩٦٥ .

٦ — فريزر (جيمس بيلي) :

رحلة فريزر ، ترجمة جعفر الخياط ، الطبعة الأولى ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٤ .

٧ — قرالي (بولس) :

فخر الدين المعنى الثانى ودولة تسكانيا ١٦٠٥ — ١٦٣٥ .

روميه ، مجمع العلوم والفنون الملكى الإيطالى ١٩٣٨ ، الجزء الثانى .

٨ — الكركوكى (رسول)

دوحة الوزراء فى تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، نقله عن التركية موسى كاظم نورس . دار الكاتب العربى بيروت .

٩ — لونكريك (هـ) :

أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، الطبعة الثالثة بغداد ١٩٦٢ .

١٠ — مدحت (حيدر)

تبصره عبرت ومرآة حيرت . استنبول

١١ — نوار (عبد العزيز)

(أ) تاريخ العراق الحديث . دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ (المكتبة العربية) .

(ب) داود باشا وإلى بغداد : دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ (المكتبة العربية) .

ثالثا — المؤلفات الأوربية

1. Ainsworth, W.F. :
A Personal Narrative of the Euphrates Expedition (2 vols.), London, 1888.

2. Blunt, Ann :
Bedouin Tribes of the Euphrates, 2 vols., London, 1879.

3. Chesney, F.R. :
Narrative of the Euphrates Expedition, Carried on By Order of the British Government during the Years 1835, 1836, 1837, London, 1868.

4. Groves, A.N. :
Journal of a Residence at Bagdad during the years 1830-1831, London, 1832.

5. Hoskins, H.L. :
British Routes to India, London, 1928.

6. Jones, J.F. :
Selections from the Records of the Bombay Government, No. XLIII, Memoirs, Bombay, 1857.

7. Layard, H. :
a) Nineveh and its Remains. With an Account of a Visit to Chaldaean Christians of Kurdistan, London, 1849, 2 vols.
b) Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, London, 1853.

8. Lorimer J.G. :
Gazetteer of the Persian Gulf, vol. 1, Parts 1-11, Culcutta, Superintendent Government Printing, India, 1908.

9. Ross, H.J. :
Letters from the East 1837-1857. Edited by his wife, London, 1902.

10. Saldanha, J. :
Precis of Turkish Arabia, 1904, (India Office Library).

11. Walpole, R.N. :
The Ansayri or Assassins. Travels in the further East in 1850-1851. Including a Visit to Nineveh, London, 1851.

فاشودة الصغيرة

١٨٩٩ — ١٩٠٦

للدكتور يونان لبيب رزق

ترك سقوط الحكم المصرى فى السودان فى أوائل الثمانينات من القرن الماضى فراغاً سياسياً وعسكرياً ضخماً فى تلك البلاد .

وإذا كانت « الدولة المهدية » قد إستطاعت سد جانب من هذا الفراغ فى شمال السودان أمام تحديات هائلة من إحتمالات الغزو الخارجى والثورات الداخلية إلا أنها بالقطع لم تستطع أن تقوم بهذا الدور كاملا فى جنوبه للأسباب الآتية :

١ — صعوبة المواصلات البالغة بين الشمال والجنوب .

٢ — عدم قبول قبائل تلك الجهات للحكم المهدى ، ويروى تاريخ المهدية كثيراً من قصص ثورات هذه القبائل على « الأنصار » .

٣ — ضعف إمكانيات المهدية المادية عن تمويل حكم قوى يكفل سيطرة معقولة على تلك الجهات .

٤ — تعاظم الأطماع الامبريالية الأوربية فى أفريقيا عامة فى تلك الحقبة ، ولاشك أن جنوب السودان بوضعه هذا كان هدفاً مرغوباً لقوى الاستعمار النامية فى تلك الجهات .

ومن هنا أتى تسابق تلك القوى المرير نحو السيطرة على ما كان يشكل مديريات جنوب السودان المصرى .

وقد أدى هذا السباق إلى صدامات دبلوماسية عنيفة كادت تتحول فى بعض مراحلها إلى تشابك بالسلاح ، وقد حدث هذا مرتين :

الأولى : فى الصدام العسكرى الذى كاد ينشب بين أكبر قوتين استعماريتين فى العالم وقتذاك — بريطانيا وفرنسا — فيما عرف « بأزمة فاشودة » والتى إنتهت بتراجع الفرنسيين وبصدور « تصريح ٢١ مارس ١٨٩٩ » بتسوية الأزمة .

الثانية : فى الصدام العسكرى الذى كاد يحدث أكثر من مرة بين القوات « الكونغو — بلچيكية » وبين القوات « الأنجلو — مصرية » فيما نتفق على تسميته « بأزمة فاشودة الصغيرة » .

« وفاشودة الصغيرة » لها نفس ملامح « فاشودة الكبيرة » وإن لم يكن لها نفس حظها من الشهرة السياسية أو التاريخية ، ويعود ذلك فى الغالب إلى أن الأخيرة كادت تؤدى إلى حرب أوربية عامة أما الأولى فلم يكن من المنتظر أن تؤدى فى أسوأ الظروف إلى أكثر من صدام عسكرى محدود فى تلك الجهات النائية من القارة الافريقية .

ولكن ذلك — على وجه التأكيد — لا يسلب تلك الأزمة السياسية حقها فى التسجيل والتحليل التاريخيين وهو ما نحاول أن نفعله هنا .

الوجود الكنغولى فى جنوب السودان قبل ١٨٩٩

يعترف الملك « ليوبولد الثانى » ملك بلجيكا وصاحب الكنغو عام ١٨٩٤ أن « الجنرال غوردن » كان أول من وجه أنظاره إلى المديريات الجنوبية فى السودان قبل ذلك بعشر سنوات — ١٨٨٤ — وذلك أثناء وجود الأخير فى بروكسل خلال تلك السنة(١) .

---

(١) F.O. 10/416 Plunkett to Kimberley, April 29, 1894 quoted from : Gray, R., A History of the Southern Sudan, 1839-1889.

ومن المعروف أنه عندما استدعى غوردن لتنفيذ « سياسة الإخلاء » تضمن مشروعه لتنفيذ هذه السياسة اقتراحاً ببقاء القوات الموجودة فى مديريات بحر الغزال وخط الإستواء والتى يقودها « لبتون » و « أمين » بأسلحتها فى مراكزها مع إلحاق هذه المديريات بالكنغو تحت حماية ملك البلجيك[١] .

ولكن أدى مقتل غوردن إلى فشل هذه الخطة وإلى أن يولى ليوبولد وجهه شطر مشروع آخر ، ففى عام ١٨٨٧ رأى الملك أن يكلف أمين باشا بالدور الذى لم يستطع غوردن أن يلعبه ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ، وعلى ذلك فقد قدم له عن طريق « ستانلى » — الذى كان قد تقرر أن يقود حملة لإنقاذ أمين باشا ومن معه — مركز الحاكم الكنغولى للمديرية الإستوائية[١]. ولكن رفض أمين باشا هذا الاقتراح ولم يحاول ستانلى أن يضغط عليه حتى يقبله[٢] .

وفيما بين عامى ١٨٨٧ ، ١٨٩٠ وصل المكتشفون الأوربيون إلى منابع النهر المختلفة عند خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو ، وقد صاحب عمليات الكشف تلك جهود دبلوماسية أدت إلى إبرام « معاهدة ماكينون » فى ٢٤ مايو ١٨٩٠ بين دولة الكونغو الحرة و « شركة شرق أفريقيا البريطانية الإمبراطورية Imperial British East Africa Co. » ، وقد وافقت الشركة المذكورة بمقتضى هذه المعاهدة على ألا تقوم بأى عمل سياسى على الشاطىء الأيسر للنيل شمالا حتى اللادو ، واعترفت لدولة الكونغو « بحقوق السيادة » على الأراضى المذكورة.

ومن ناحية أخرى أجرت الكونغو إلى الشركة شريطاً من الأراضى يمتد من بحيرة ألبرت إلى الطرف الشمالى من بحيرة تنجانيقا .

---

(١) Pensa, H., L'Egypte et le Soudan Egyptien, p. 322.

(٢) Sanderson, G.N., England, Europe and the Upper Nile, p. 35.

(٣) Langer, W., The Diplomacy of Imperialism, p. 114.

وبالرغم من أن « معاهدة ماكينون » لم تقدم رسمياً إلى الحكومة البريطانية إلا أن « سولسبرى » وزير الخارجية البريطانية وافق عليها « بصفة شخصية » ، وأدى هذا إلى تزايد الشعور فى بروكسل بأن ليوبولد قد نجح أخيراً فى تنظيف الطريق — ديبلوماسياً — نحو التقدم إلى النيل[١] .

وإلى جانب النجاح الديبلوماسى فلا شك أن الأوضاع التى ترتبت على تحطيم الحكم المصرى فى جنوب السودان قد شجعت « سيد الكونغو » على إنفاذ قواته إلى تلك الجهات آملا أن يفرض سيطرته عليها بمعونة بقايا القوات العسكرية التى كانت تخدم تحت العلم المصرى ، وتجمعت قوة كونغولية بقيادة « فان كركهوفن Van Kerkhoven » قرب أواخر عام ١٨٦٠ وتقدمت إلى المديريتين « الاستوائية » و « بحر الغزال » ، ورغم وفاة قائد الحملة فى سبتمبر ١٨٩٢ إلا أن ضباطه قد استطاعوا رفع الأعلام الكونغولية على عدة مراكز فى المديرية الاستوائية (كيرى وموجى ، ولابوريه ، ودوفيله) وفى بحر الغزال (حفرة النحاس ، وكاتواكا وليفى وديم الزبير)[٢] .

كما نجحت الحملة الكونغولية فى كسب بقايا القوة المصرية فى المديرية الاستوائية التى كان يقودها « فضل المولى » .

ولكن ما لبث المهديون أن عصفوا بقوة فضل المولى وأبادوها عن آخرها[٣] ، ثم ما لبثوا أن أخذوا فى التقدم نحو خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو لمواجهة القوات الكونغولية الموجوده فى تلك الجهات . وقد صاحب هذا التقدم المهدى انتشار الثورة فى « الدولة الحرة » إبتداء من فبراير عام ١٨٨٤ ، وفى ظل هذه الظروف القاسية تقدمت قوة مهدية بقيادة « على عبد الرحمن » إلى « موندو » وكانت مركز

---

(١) Collins, Robert O., Anglo-Congolaise Négociations, 1900-1906, Zaire — Revue congolaise, vol. XII, part 5, p. 480.

(٢) Wauters, L'Etat indépendant du Congo, pp. 93-94.

(٣) Slatin, R., Fire and Sward in the Sudan, pp. 93-94.

قيادة القوات الكونغولية في بحر الغزال ، ونتج عن القتال العنيف الذي دار حول هذا المركز انسحاب الضباط البلجيك بقواتهم في النهاية من « موندو » ، ثم ما لبثوا أن انسحبوا من عدة مراكز أخرى في بحر الغزال خلال ابريل من نفس العام[١].

ومع تلك الانتكاسة العسكرية كان على ليوبولد أن يواجه الانتكاسة السياسية فاعتقاده بالرضاء البريطاني عن « معاهدة ماكينون » بدأ يهتز بشدة ، ففي أول مارس عام ١٨٩٢ طالب السفير البريطاني في بروكسل دولة الكونغو بتأكيدات بأنها لن تتقدم وراء حدودها التي أعلنت في « تصريح ١٨٨٥ » وألا تحاول الدخول إلى منطقة النفوذ البريطانية المحددة في الإتفاقية الانجليزية — الألمانية المعقودة في أول يولية عام ١٨٩٠ .

وقد فوجيء ليوبولد بهذا الطلب وأشار إلى موافقة اللورد سولسبرى على معاهدة ماكينون فأجابت الحكومة البريطانية بأنها لا ترى أى قيمة لهذه الموافقة ، على أساس أن اللورد سولسبرى قد عبر عن رأيه الشخصي وليس عن قرار اتخذ من جانب الحكومة البريطانيـــة ، كما أنه ليس « لشركة شرق أفريقيا البريطانية الإمبراطورية » أى سلطة للتنازل عن حقوق سياسية ، يضاف إلى ذلك أن الشرط الخاص بتأجير شريط تنجانيقا الوارد في المعاهدة لم ينفذ على الإطلاق .

وكان على ملك بلجيكا أن يكافح من جديد ، ففي أول يوليه عام ١٨٩٢ اقترح ليوبولد على البريطانيين أن تحصل دولة الكونغو على إيجار منطقة في أعالي النيل ولكن لم توافق لندن على الاقتراح وانتهت المفاوضات التي جرت بشأنه دون نتيجة في أغسطس ١٨٩٣ . وعندئذ توجه ليوبولد إلى باريس حيث أجرى أيضاً مفاوضات لا نتيجة لها .

وفي ربيع عام ١٨٩٤ سنحت الفرصة « لصاحب الكونغو » حين تم تقاربه فرنسي — ألماني في الميدان الأفريقي ضد انجلترا ، فمعاهدة الكمرون الفرنسية — الألمانية التي تم إبرامها في ٤ فبراير ١٨٩٤ قد تركت لفرنسا حرية التقدم شمالا وشرقاً

(١) Collins, R.O., The Southern Sudan, 1883-1898, pp. 119-121.

حتى النيل . وأثرت هذه المعاهدة تأثيراً فعالا على دوائر وزارة الخارجية البريطانية لا سيما بعد أن وصلتها التقارير بأن « قوة فرنسية يقودها مونتى Monteil تنوى التقدم إلى اللادو أو فاشودة » . وأدى ذلك إلى إرسال مبعوث بريطانى هو « رينل رود » إلى بروكسل يحمل تعليمات محددة بالتفاوض حيث وضعت أسس اتفاق نهائى ما لبث أن ظهر فى صورة المعاهدة التى وقعت فى لندن فى ١٢ مايو عام ١٨٩٤(١) .

وكان أهم ما فى هذه المعاهدة المادة الثانية التى استأجر الملك ليوبولد بمقتضاها منطقة ضخمة غربى بحر الغزال(٢) ، واستهدفت بريطانيا من وراء ذلك خلق « حاجز بلجيكى » أمام التقدم الفرنسى المتوقع .

ولكن لم يتحقق الأمل البريطانى فسرعان ما انهار ليوبولد تحت وطأة ضغط الفرنسيين ، واضطر إلى أن يوقع معهم معاهدة ١٤ أغسطس ١٨٩٤ التى تنازل فى مادتها الرابعة عن أغلب ما منحته له معاهدة ١٢ مايو مع البريطانيين ، وقنع بتلك المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم « حاجز اللادو »(٣) . وانفتح بذلك الطريق أمام الفرنسيين نحو النيل مما مهد لوصول « مارشان » إلى فاشودة وانتهى إلى الصدام البريطانى — الفرنسى فى الأزمة المشهورة باسم تلك البقعة .

ونتج عن معاهدة أغسطس أن اقتصر النشاط الكونغولى بعد عام ١٨٩٤ على منطقة الحاجز تلك ، فعندما تقرر أواخر عام ١٨٩٥ إرسال « دهانيس » على رأس حملة إلى تلك الجهات حددت التعليمات التى صدرت إليه مدى نشاطه باحتلال حاجز اللادو « الذى سيصبح نهاية لحدود الدولة الحرة ولن تعمل على تجاوزه »(٤) .

وهكذا تجمد النشاط الكونغولى فى إطار الحاجز حتى عام ١٨٩٨ إلى أن تم إنهاء الحكم المهدى للسودان وما ترتب على هذا الإنهاء من المواجهة البريطانية —

---

(١) Collins, Anglo-Congolaise Negociations, part 5, pp. 482-483.

(٢) Hertslett, The Map of Africa by Treaty, vol. II, pp. 579-580.

(٣) Ibid., p. 570.

(٤) Wauters, op. cit., p. 78.

الفرنسية فى فاشودة فى نفس العام واستسلام فرنسا وخروجها من ميدان التنافس فى أعالى النيل بمقتضى تصريح ٢١ مارس ١٨٩٩ .

وقد نظرت كل من بروكسل ولندن إلى نهاية الأزمة البريطانية — الفرنسية نظرة مختلفة ، ففى الوقت الذى رأى فيه ليوبولد أن الإنسحاب الفرنسى يعنى سقوط معاهدة أغسطس ١٨٩٤ التى كبله الفرنسيون بمقتضاها داخل حدود الحاجز ، وتصور بناء على ذلك أن عليه الإنطلاق للحصول على كافة ما منحته له معاهدة ١٢ مايو ، رأى البريطانيون أن دور الكونغو الذى كان قد تقرر فى المعاهدة المذكورة والذى فشل فى تحقيقه قد انتهى ، ولم تتردد الحكومة البريطانية فى إبلاغ بروكسل بهذا الرأى ، ففى ١٥ مايو عام ١٨٦٩ قام السفير البريطانى فى العاصمة البلجيكية بإبلاغ ممثلى دولة الكونغو أنه كنتيجة لموقعة أم درمان فان حقوق مصر التى تم الاتفاق عليها فى الخطابات الملحقة بمعاهدة ١٨٨٤ قد تم إحياؤها[١] ، وأن نتائجاً خطيرة ستترتب على محاولة الملك التقدم فيما وراء منطقة النفوذ التى اعترفت له بها الاتفاقية الفرنسية — الكونغولية فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ — أى حاجز اللادو — وقال بلانكت : « لا تحاولوا أن تواجهونا بالأمر الواقع فقد حاول الفرنسيون ذلك وأخفقوا »[٢] .

كما حرص البريطانيون على إبلاغ هذا الرأى إلى القائد البلجيكى فى اللادو ، ففى أواخر عام ١٨٩٩ أرسلت قوة أنجلو — مصرية إلى تلك الجهات ومعها تعليمات محددة بابلاغ البلجيك أن الحكومة البريطانية « لا تعترف للملك البلجيك بأى حقوق للملكية دائمة لأى جزء من وادى النيل »[٣] ، وقام الضابط البريطانى بمهمته ،

---

(١) فقد ألحق بهذه المعاهدة خطابان متبادلان بين وزيرى الخارجية البريطانية والكونغولية وقد وافق الأخير على الاعتراف بحقوق مصر فى الجهات المؤجرة فى الوقت الذى يستطيع فيه المصريون ممارسة هذه الحقوق .

(٢) Sanderson, G.N. Leopold II and The Nile Valley — The Sudan Historical Association Proceedings, vol. I, part VII, p. 56.

(٣) C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 67. Director of Intelligence Dep. to Officer Commanding Expedition to Open White Nile, Dec. 16, 1899.

وحصل على وعد من « القومندان هنرى » القائد البلجيكى بأنه لن يرفع أعلام الدولة الحرة على أى مركز خارج الحاجز(١) .

ولكن هذا الوعد من جانب السلطات المحلية الكنغولية لم يعن استسلاماً بلجيكياً للرأى البريطانى « بعودة إحياء الحقوق المصرية » ، بالعكس فقد شهدت السنوات السبع التالية صراعاً عنيفاً تراوح بين مقارعة الحجج واحتمالات قرقعة السلاح ! !

مرحلة المفاوضات وفشلها ١٨٩٩ — ١٩٠٣ :

إذا كانت الديبلوماسية البريطانية قد أبعدت دولة الكنغو من بحر الغزال بالإشارة إلى الخطابات الملحقة بمعاهدة مايو ١٨٩٤ فإن ليوبولد أراد بنفس شروط تلك المعاهدة أن يؤكد حقوقه فى الأرض المؤجرة له بمقتضاها .

ولما لم يكن الملك البلجيكى على إستعداد لمغامرة الإحتلال العسكرى للأرض المؤجرة — وكان هذا مستحيلا عام ١٨٩٩ وتجربة فرنسا فى فاشودة لا زالت ماثلة أمام كافة الساسة الأوربيين — ومن ثم فقد لجأ إلى أسلوب آخر وذلك بتأكيد حقوقه بإحياء بعض الإمتيازات التجارية .

فنى عام ١٨٩٤ وبعد توقيع المعاهدة الإنجليزية — الكونغولية بفترة قصيرة كون ليوبولد شركة باسم "Société Générale Africaine" حصلت على إمتياز غير محدود لإستغلال وتنمية الأراضى المؤجرة . وقد تنازلت هذه الشركة عن حقوقها فى تلك الأراضى بعد أن قسمتها إلى قسمين إلى شركتين بريطانيتين هما « شركة أفريقيا البريطانية الإستوائية .The British Tropical Africa Co » و « شركة أفريقيا الإنجلو — بلجيكية .The Anglo-Belgian Africa Co » ، وكان يرأس مجلس إدارة الشركتين « السير ليبل جريفن Griffin » وإن كان ممولها الرئيسى صاحب السفن اللندنى والمالى المشهور « سير جون ويليامسون جونستون »(٢) .

---

(١) Ibid., Officer to Director, Jan. 22, 1900.

(٢) Sanderson, G.N. Leopold II and The Nile Valley, p. 57.

وكانت هذه الأراضى التى حصلت عليها الشركتان قد نزعت من الكونغوليين بمقتضى معاهدة أغسطس ١٨٩٤ مع فرنسا . وكان من الواضح وقتذاك أنه ليس لدى ليوبولد أو شركاته أى أمل فى ممارسة نشاطهم فى تلك الأراضى ، ولكن فى ظل الظروف الجديدة التى تمخضت عن خروج الفرنسيين من ميدان الصراع عاد ليوبولد يسعى إلى إحياء هذه الإمتيازات .

ففى ٢ مايو عام ١٨٩٩ أبلغ « المسيو دى كوفليه De Cuvelier » ممثل دولة الكونغو السفير البريطانى فى بروكسل رسمياً بوجود هذه الإمتيازات ، ودخل هذا الإبلاغ إلى حيز التنفيذ خلال العام التالى ففى ٢٩ يونية عام ١٩٠٠ طلبت كل من « شركة أفريقيا الإنجلو — بلجيكية » و « شركة أفريقيا البريطانية الإستوائية » من وزارة الخارجية البريطانية تأمين سفر موظفيهما عبر السودان إلى بحر الغزال . وقد تساءلت الوزارة فى ٩ يولية عن مدى الإمتيازات الممنوحة للشركتين وعن الطرق التى سيسلكها موظفوها لبلوغ مقاصدهم . ووصل رد الشركتين فى أول أغسطس وقد أكدتا فيه أنهما لن يمارسا أى سلطات سياسية وإن هدفهما الوحيد يتركز فى العمل على التطوير التجارى لأعالى النيل .

وكان إعتراف الحكومة البريطانية بمطالب الشركتين يعنى اعترافها بحقوق ليوبولد فى الأراضى المؤجرة له بمقتضى المادة الثانية من معاهدة ١٨٩٤ ، ومثل هذا الإعتراف كان مستحيلا من الناحية السياسية ، فالإعتراف بادعاءات ملك البلجيك سلما بعد القضاء على ما كسبه الفرنسيون بالتهديد بالحرب لن يضايق الفرنسيين فحسب بل سيؤدى إلى إحباط المحاولات القائمة لتحسين العلاقات البريطانية — الفرنسية . يضاف إلى ذلك إن حدة مزاج الرأى العام البريطانى الناتجة عن النكسات التى أصابت بريطانيا فى جنوب أفريقيا لم تكن لتسمح باستسلام سلمى لليوبولد فى بحر الغزال ، وكما كتب « سيسل رودس » فى خطاب له إلى أمير ويلز فى تلك الأيام « أنى متأكد أن الشعب الإنجليزى لن يسمح بتسليم بحر الغزال إلى البلجيك بعد مثل هذا الصراع مع فرنسا » (١) .

---

(١) Collins, R.O., Anglo-Congolaise Negôciations, part 5, p. 490.

ولكن إذا كانت ظروف ليوبولد لم تسمح له خلال عام ١٨٩٩ أو العام الذى يليه بتحقيق إدعاءاته فى بحر الغزال بالقوة أو بفرض الأمر الواقع كما أشرنا فإن ظروف إنجلترا بدورها لم تكن لتسمح لها باستعمال أسلوب القهر مع ملك البلجيك وذلك لعدم رغبتها فى الحصول على مزيد من الأعداء أثناء إنغماسها فى الحرب فى جنوب أفريقيا ، لذا فقد رسم الساسة البريطانيون خطتهم على أساس عدم السماح لليوبولد بتحقيق إدعاءاته ولكن بالوسائل التى لا تخلق جفوة أو احتمالات للصدام بين الجانبين فى تلك البقعة من أفريقيا .

وقد طبقت هذه الخطة على الصعيدين المحلى والدولى بمهارة فائقة حتى خرجت بريطانيا عن العزلة التى سببتها لها مغامرتها مع البوير وأصبحت فى وضع يمكنها من استعمال العنف أو التلويح به .

فعلى الصعيد المحلى اتجهت الخطة البريطانية إلى نشر المراكز الأنجلو ـ مصرية فى مناطق بحر الغزال ـ والتى كانت مؤجرة للكونغو بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ ، وقد تقرر أن تصل هذه المراكز إلى أقصى المناطق التى لا يوجد فيها كنغوليون ، وبالفعل تقرر خلال صيف عام ١٩٠٠ إنشاء مركز شمال « كيرو » بخمسة أميال وهى أبعد نقطة يحتلها البلجيك نحو الشمال وتقع على خط ٥°٤٠َ شمالا وهو الخط الذى حددته الإتفاقية الفرنسية ـ الكونغولية فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ لمنطقة النفوذ الكنغولية فى أعالى النيل(١) .

وقد تضمنت التعليمات التى صدرت إلى قائد هذا المركز جانبين هامين يوضحان نوعية السياسة البريطانية المحلية :

الأول : بذل أقصى جهد ممكن لإقامة علاقات ودية مع البلجيك وإزالة أى سبب من أسباب سوء التفاهم يمكن أن يحدث بين الطرفين مع عدم الدخول فى أى محادثات ذات طبيعة سياسية « وأن يجيب إذا ما حاولوا محادثته فى هذا الموضوع بأنه ليس مخول لبحث هذه المسائل التى تعتبر من اختصاص لندن وبروكسل » .

---

(١) Gorres, part IV, No. 60, Sir Reneil Rodd to Salisbury, Aug. 20, 1900.

الثانى : القيام بتعريف الأهالى أن بلادهم واقعة تحت نفوذ حكومة السودان لا نفوذ حكومة الـكونغو الحرة أو أى حكومة أخرى[1] .

ويتضح من هذا خطة السياسة البريطانية فى اتباع أسلوب « المسالمة » على الجبهة المحلية على ألا يخل هـذا الأسلوب بهيكل الخطة العام بعدم الاعتراف بالادعاءات الـكونغولية فى المنطقة والعمل على سبق منافسيهم إلى الجهات محل هذه الإدعاءات .

أما على الصعيد الدولى فقد كان على وزارة الخارجية البريطانية أن تبت فى البداية فى طلب شركتى « أفريقيا البريطانية الاستوائية » و « أفريقيا الأنجلو — بلجيكية » ، والواقع أن الخطابات التى تبودلت بين الحـكومة البريطانية والشركتين المذكورتين كانت فى حقيقتها عملية جس نبض من جانب ليوپولد لتحديد موقفه . . هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى كانت مقدمة للمفاوضات الطويلة بينه وبين البريطانيين إذ أنه من المؤكد أن ليوپولد كان وراء هذه الشركات مع الحـكومة البريطانية .

وقد رد سولسبرى برفض طلب الشركتين فى ١١ أغسطس عام ١٩٠٠ متذرعاً فى رفضه بعدم جدية هذه الامتيازات . وقد أبدى وزير الخارجية البريطانية فى هذا الرد آراءه فى أن سيادة دولة الـكونغو فى تلك الجهات مستمدة من المعاهدة الفرنسية — الـكونغولية المنعقدة فى ١٤ أغسطس ١٨٩٤ والتى اتفق فيها على ألا يكون للـكونغو أى نفوذ خارج حدود اللادو وخرج من ذلك بأنه ليس للدولة الحرة أى امتيازات فى الأراضى محل طلب الشركة . وأضاف أن حقوق مصر وتركيا فى تلك الأراضى لم ينص عليها فحسب فى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ بل أحياها أيضاً نصر أم درمان ، وأنه لما كانت مصر لم تستشر أوتبلغ بهذه الامتيازات فهى لاتستطيع الاعتراف بها .

---

(١) Ibid., Enclosures 1 and 2 in No. 193, Cromer to Lansdowne, Dec. 6, 1900.

وبعد التشاور مع ليوبولد كتبت الشركتان فى أوائل الشهر التالى — سبتمبر ١٩٠٠ — إلى وزارة الخارجية تدافعان عن حقوقهما على الأسس التالية :

١ — أن حصولها على الامتيازات كان فى أول أغسطس ١٨٩٤ أى قبل توقيع المعاهدة الفرنسية الكونغولية فى ١٤ من نفس الشهر .

٢ — أن الامتيازات تجارية وليست سياسية .

٣ — أن معاهدة مايو ١٨٩٤ لازالت محل التطبيق لأن الحكومة البريطانية لم تنكرها فى أى وقت(١) .

* * *

مضى أكثر من شهرين وقد أهملت الحكومة البريطانية مذكرة الشركتين الأخيرة تماما مما دعا ليوبولد إلى أن يسفر عن وجهه ويقرر الاتصال مباشرة بلندن دون الاختفاء وراء الشركتين المذكورتين ، ومن ثم استدعى المسيو «دى كوڤليه» ممثل دولة الكونغو فى بروكسل السفير البريطانى فيها فى نوفمبر عام ١٩٠٠ وسلمه مذكرة طويلة تتناول وضع بحر الغزال بالنسبة لدولة الكونغو .

وقد سعت المذكرة الكونغولية إلى تأكيد مبدأين بالنسبة لهذا الوضع :

(ا) أن معاهدة مايو ١٨٩٤ الإنجليزية — الكونغولية لازالت فى كامل فاعليتها ، وأن معاهدة أغسطس من نفس العام (الفرنسية — الكونغولية) لا يمكن أن تؤثر على الحقوق والواجبات التى حصلت عليها دولة الكونغو بمقتضى معاهدة مايو وإذا مارغب الكونغوليون إحياء حقوقهم فمن له الحق فى الاعتراض فرنسا لا بريطانيا .

يضاف إلى ذلك أن بريطانيا لم تلغ أبداً معاهدة ١٨٩٤ البريطانية - الكونغولية وظلت تتصرف على أساس أن هذه المعاهدة لازالت سارية ، ففى ٢٨ مارس عام ١٨٩٥ أشار سير إدوارد جراى فى مجلس العموم إلى ذلك بوضوح تام عندما قال

---

(١) Collins, R.O., Anglo-Congolaise Negociations, part 5, p. 491.

« إن دولة الكونغو قد اعترفت بمنطقة النفوذ البريطانية » ، وبعد ذلك بعامين وفى ١٠ يونيه ١٨٩٧ أبلغ السفير البريطانى فى بروكسل حكومته أن القوات الكونغولية التى عبرت إلى الشاطىء الشرقى من النيل سوف تنسحب قريباً وذلك حسب اتفاقية مايو عام ١٨٩٤ ، وأخيراً — وفى نفس العام — نشر مرسوم فى المجلة الرسمية لدولة الكونغو بتطبيق القوانين المدنية الكونغولية على الأراضى المؤجرة بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ ولم تبد الحكومة الإنجليزية أى اعتراض على ذلك .

وتستطرد المذكرة أنه بعد النصر البريطانى — المصرى فى أم درمان (١٨٩٨ — ١٨٩٩) تضمنت التعليمات الصادرة للميجور مارتير Martyr — الذى قاد حملة عسكرية تقدمت من أوغندة للانضمام إلى القوات الأنجلو — مصرية القادمة من الخرطوم — الأمر باحترام المعاهدة التى تم الاتفاق عليها مع دولة الكونغو ١٨٩٤ .

ويضاف إلى كل ذلك ماقدمه سولسبرى نفسه فى محاولته لتدحيض إدعاءات السفير الفرنسى إبان أزمة فاشودة قال الأخير أن للفرنسيين نفس حق الكونغوليين فى البقاء على النيل فرد سولسبرى أن الوضع مختلف فالكونغوليون حصلوا على مركزهم على النيل بمقتضى معاهدة مع بريطانيا ، والتى قال عنها سولسبرى بأنها فى كامل فاعليتها .

(ب) بالنسبة لمسألة إعادة إحياء الحقوق المصرية فإن مصر تملك فقط من الحقوق ماتسمح به بريطانيا ، وأن حقوق مصر فى بحر الغزال يمكن الموافقة عليها فيما لو جلت بريطانيا عن مصر ، وحتى يتم هذا فان مركز بريطانيا فى مصر يمنحها حق التأجير[1] .

* * *

ومضى شهران آخران دون أن تبدى لندن رأيها فى المذكرة الكونغولية مما

(١) Collins, op. cit., part 5, pp. 492-494.

دعا الملك ليوبولد إلى تدبير لقاء مع السفير البريطانى فى بروكسل فى أواخر يناير عام ١٩٠١ تساءل فيه عن « أى حق يمكن أن يجعل المؤجر يمنع المستأجر من حرية ممارسة حقوقه فى المكان المؤجر » ؟

واستطرد الملك البلجيكى مفنداً الحجة البريطانية بأن معاهدة أغسطس ١٨٩٤ مع فرنسا قد ألغت معاهدة مايو من نفس العام مع الإنجليز بأن الحكومة البريطانية تركته وقتها وحيداً أمام الإدعاءات الفرنسية ومن ثم لم يكن أمامه من سبيل سوى الإذعان للقوة الفرنسية . أى أنه ألقى بمسئولية المعاهدة الكونغولية — الفرنسية على الموقف البريطانى نحوه وقت إبرامها .

وبناء على كل ذلك طلب ليوبولد موافقة الحكومة البريطانية على السماح له بممارسة حقوقه فى أقرب وقت ودون أى تعويق (١) .

وخلال نفس الوقت الذى أخذت فيه بروكسل تبذل جهودها الدبلوماسية كانت تحاول ممارسة إدعاءاتها على بحر الغزال بصورة أكثر عملية ، ففى أوائل عام ١٩٠١ طالبت بإلحاح بالسماح لجماعات الرعاة من الأهالى بالإنتقال من حاجز اللادو إلى الأراضى الواقعة شماليه ومنها ، ورفضت القاهرة والخرطوم هذا الطلب بشدة (٢) مما دعا الحكومة البريطانية بدورها إلى الإعتذار عن قبوله لا سيما أن هذا القبول كان يتضمن إيماءات سياسية معينة بقبول إحياء معاهدة مايو عام ١٨٩٤ لأن حرية الانتقال بين هذه الأراضى كانت تعنى وحدتها الإدارية على الأقل (٣) .

* * *

ولم يكن أمام الحكومة البريطانية بعد كل ذلك سوى أن تسارع بالرد على ليوبولد فسلم السفير البريطانى فى بروكسل للبارون فان أتفيلد وزير الكونغو فى العاصمة البلجيكية فى ٨ فبراير عام ١٩٠١ مذكرة تضمنت آراء الحكومة البريطانية فى رفض المذكرة الكونغولية المؤرخة فى نوفمبر ١٩٠٠ وقد أكدت المذكرة البريطانية أنه بالرغم من أقوال سولسبرى الرسمية فإن المعاهدة الأنجلو — كونغولية ملغاة فى الحقيقة

---

(١) Corres, part V, No. 41, Phipps to Lansdowne, Jan. 26, 1901.

(٢) Ibid., No. 24, Cromer to Lansdowne, Jan. 17, 1901.

(٣) Ibid,. No. 25, Lansdowne to Phipps, Jan. 17, 1901.

لأن مواردها لم توضع أبداً موضع التنفيذ من أى من الجانبين . وقد أشير إشارة خاصة إلى عدم تنفيذ تأجير شريط تنجانيقا أبداً .

وختمت الحكومة البريطانية مذكرتها باعلان تمسكها باحياء الحقوق المصرية ولكنها اقترحت — حلا للموقف — إمكان تطوير معاهدة ١٨٩٤ إلى معاهدة أخرى يمكن تطبيقها(١) .

وأمسك ليوبولد بهذا الاقتراح ليسارع بتقديم آراءه عن مشروع المعاهدة الجديدة ، وفى ٢١ فبراير قدم « فان أتفيلد » لفيبس المقترحات التالية كأساس للمعاهدة الجديدة :

(ا) أن يتنازل الملك ليوبولد عن كل حقوقه السياسية شمال خط عرض ٢٠َ ٥° (أى شمال اللادو) .

(ب) أن تحصل دولة الكونغو على تعويض مناسب .

(ج) أن يسمح لدولة الكونغو « بالحصول على التسهيلات اللازمة لإقامة خط حديدى إلى النيل مع حرية العبور إلى أعالى النيل »(٢) .

وكان أسوأ مافى مقترحات ليوبولد — من وجهة النظر البريطانية — الاقتراح الثالث ، فقد رأى المتمد البريطانى فى القاهرة أنه من الأمور البالغة الأهمية أن يبقى كل مجرى النيل فى أيدى البريطانيين والمصريين لما لذلك من ضرورة حيوية بالنسبة للمشاريع التى سيتحتم إقامتها على النيل كذا بالنسبة للتحكم فى مياه النيل . وعلى هذا أوصى كرومر بالتمسك بالمواد التى تضمن لبريطانيا أو مصر استرجاع الأراضى المؤجرة على الشاطىء الأيسر من النيل حال وفاة الملك ليوبولد(٣) .

ورأى المتمد البريطانى فى القاهرة أن التمسك بهذه المواد لن يمنح الكونغو أى حقوق على النيل إذ أنه فى الماهدات المختلفة التى عقدتها مصر مع دول أوربية

---

(١) Sanderson, op. cit., pp. 59-60.

(٢) C.R.O.S. Mongalla 1/7/48, Cecil to Findlay, Sept. 25, 1905.,

(٣) Corres, part V, No. 128, Cromer to Lansdowne, March 23, 1901.

احتفظت دائماً لنفسها بالسيطرة على الملاحة فى مياهها الداخلية . ونصح الحكومة البريطانية بعدم السماح على الإطلاق لحكومة الكونغو بحرية الملاحة فى أعالى النيل .

وبناء على هذه النصائح ، وبعد عرضها على المخابرات العسكرية البريطانية رأى مديرها « السير جون أردث » أن تقوم حكومة السودان باحتكار الخزن والإمداد بالوقود على شواطىء النهر لقطع الطريق على طلب ليوبولد بحرية الملاحة فى أعالى النيل ، وبالفعل أصدرت سلطات الخرطوم أوامرها بذلك فى نهاية أبريل ١٩٠١[١] .

* * *

بينما كانت الحكومة البريطانية تدبر الخطط المناسبة لإبعاد نفوذ ليوبولد عن مياه النيل كان الملك يستشير عدداً من كبار رجال القانون الدولى فى قيمة حقوقه فى بحر الغزال ، وكانت آراؤهم جميعاً فى صالحه . وقد كتب أشهر هؤلاء « الهر فون مورتيتز Von Mortitz » أستاذ القانون الدولى بجامعة برلين مذكرة فى ٢٠ أبريل ١٩٠١ بأنه ليس من حق ليوبولد إحياء حقوقه السياسية فحسب بل من حقه الحصول على الامتيازات التجارية أيضاً[٢] .

وقد تأثر سير المفاوضات بين الطرفين بعد ذلك بهذين الموقفين . . موقف الحكومة البريطانية بالتصميم على إبعاد الكونغو عن السيطرة على أى قسم من النيل وإن حاولت منح ليوبولد التعويض المناسب بعيداً عن النهر حتى لاتضطر إلى اللجوء للتحكيم الذى عارضته أشد المعارضة خوفاً من أن تبدى هيئة التحكيم تأييداً للآراء القانونية أكثر مما تعترف بالوضع السياسى القائم . وموقف ليوبولد المتشدد على اعتبار أن مالا يستطيع الحصول عليه بالمفاوضة يستطيع الحصول على أكثر منه « بالتحكيم » .

ومن هذا الفهم نستطيع أن نتتبع سير هذه المفاوضات منذ صيف عام ١٩٠١ حتى قرر البريطانيون قطعها فى أواخر عام ١٩٠٣ .

* * *

(١) Corres, part V, No. 169, Cromer to Lansdowne, April 30, 1901.

(٢) Collins, op. cit., part 5, p. 496.

فى ٦ أغسطس عام ١٩٠١ أبلغ السير فيبس وزير خارجية الكونغو أنه بالرغم من أن الحكومة البريطانية ترغب فى الوصول إلى معاهدة جديدة إلا أن مقترحات ٢١ فبراير غير مقبولة منها وسلم الوزير الكونغولى المقترحات البريطانية المضادة التالية :

(ا) أن تسير الحدود المصرية ـ الكنغولية مع نهر سمليكى شمال بحيرة ألبرت على طول خط تقسيم مياه النيل ـ الكونغو حتى خط طول ٣٠° شرقاً ثم شمالاً حتى خط عرض ٣٠َ ٥° ، ومن ثم غرباً إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو .

(ب) ضمان تسهيلات تجارية لدولة الكونغو فى بحر الجبل .

(جـ) منح دولة الكونغو حرية الملاحة فى أعالى النيل (لاالسيطرة على مياهه) .

(د) إذا ماتم مد خط حديدى من حوض الكونغو إلى النيل فى المستقبل تمنح أفضلية بناء الخط لشركة أنجلو ـ بلجيكية .

ورد ليوبولد على ذلك بأن أرسل فان اتفيلد إلى لندن فى ٢١ من نفس الشهر حيث قابل وزير الخارجية البريطانية مقابلة طويلة اعترض فيها الوزير الكونغولى على المقترحات البريطانية وأكد فى نهاية المقابلة أن المعاهدة الإنجليزية ـ الكونغولية المعقودة ١٨٩٤ ستبقى صالحة للعمل وطالب بجلاء القوات الأنجلو ـ مصرية من بحر الغزال[1] .

وبعد بضعة شهور أخرى من المفاوضات حاول البريطانيون إرضاء ليوبولد بتقديم بعض التنازلات له ، فى مذكرة مقدمة إليه منهم فى ٢٥ يناير ١٩٠٢ اقترحوا استبدال « حاجز اللادو » بأراضى بحر الغزال الواقعة غرب نهر « ى Yei » وجنوب خط عرض ٣٠َ ٦° شمالا . وكان هذا التعويض المقترح أكبر كثيراً من « حاجز اللادو » وكانت شروط الاقتراح أكثر كرما ، فان حاجز اللادو كان سيبقى تحت سيطرة ليوبولد فى عهد سيادته على دولة الكونغو الحرة فقط أما المنطقة الجديدة فقد كانت مؤجرة بصفة نهائية .

---

(١) Collins, op. cit., part 5, pp. 497-498.

والواقع أن الهدف الأساسى وراء هذا الكرم البريطانى كان إبعاد الكونغوليين عن مجرى النيل فالاقتراح الأخير استهدف زحزحة الحدود الشرقية لدولة الكونغو على بعد مالايقل عن ٤٠ ميلا من النيل .

ولكن اقتراح المبادلة لم يرض ليوبولد ففى ٦ فبراير ١٩٠٢ طلب أن تضم الأراضى المقترحة كل حوض نهر «يى» . وقد أشير على الملك بضرورة هذا المطلب حيث الالتزامات التى يفرضها البريطانيون عادة على الأهالى أخف كثيراً من تلك التى يفرضها الكونغوليون ، وفى حالة تقسيم نهر «يى» فسوف تحدث هجرة ضخمة من الأراضى الكونغولية إلى الأراضى البريطانية ، ولكن إذا ماحصلت الكونغو على كل حوض النهر فلن يكون أمام سكانه سوى البقاء إذ أن الأراضى المحيطة غير صالحة للزراعة .

كما طلب الملك أن تمتد الأراضى المقترحة فى اتجاه شمالى غربى على طول الحدود بين مناطق النفوذ الفرنسية والأنجلو — مصرية حتى حدود دارفور فى منطقة « حفرة النحاس » . وكان ليوبولد راغبا فى الحصول على هذه المنطقة لاعتقاده بثرائها المعدنى الضخم(١) .

ولكن الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة لتأجير كل وادى نهر « يى » إلى ليوبولد لأن ذلك سينتج عنه إحداق حدود الدولة الحرة بالنيل وكان كل ما وافق البريطانيون على تعديله فى اقتراحهم الجديد الذى قدموه فى ٦ يونيه عام ١٩٠٢ أن يسير خط الحدود مع شاطىء النهر الأيمن بدلا من شاطئه الأيسر ، ولم يوافقوا أبداً على منح الكونغو أى امتيازات خارج الأراضى المذكورة ، وأن يتم بناء الخط الحديدى بواسطة شركة انجليزية ـ بلجيكية .

ولم يرضى هذا التعديل ليوبولد لأن معناه تخليه عن الامتيازات التى عول عليها أهمية كبيرة فقد كان الملك متأثراً بما تواتر من أخبار ثراء «حفرة النحاس» الطبيعى . ولكن لسوء الحظ فإن وقوع حفرة النحاس فى أقصى الركن الجنوبى الغربى من الأراضى المؤجرة أجبر ليوبولد أن يطلب اعترافاً بالامتيازات فى كل الأراضى المؤجرة

---

(١) Sanderson, G.N., op. cit., pp. 60-61.

له بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ وليس فقط الأراضى الجديدة التى قدمها البريطانيون فى مقترحاتهم الأخيرة(١) .

ومما زاد فى شكوك ليوبولد فى قيمه « حفرة النحاس » المدنية أنه أعد خلال ربيع عام ١٩٠٣ حملة يقودها كل من « لاندهام » و «رويو» لتتقدم من الحاجز إلى تلك البقعة لفحص قيمة خاماتها المدنية ولكن اضطرت السلطات الكونغولية إلى وقف كل أعمال هذه الحملة فى ٦ أبريل تحت وطأة الاحتجاجات البريطانية الشديدة وإن كانت قد أكدت أنها حملة خاصة وذات طبيعة علمية(٢) .

وإلى جانب الخلاف على الأراضى كان هناك خلاف حول الخط الحديدى المزمع بناءه فإن ليوبولد كان مهتما إهتماما عظيما بهذا الموضوع فإن نقل البضائع من خط تقسيم النيل ـ الكونغو إلى أوربا عن طريق المحيط الأطلنطى كان يستلزم ثلاثة شهور وتكاليف مضاعفة بينما كان يحتاج إلى ٣٧ يوماً فقط عن طريق النيل .

ولم يكن طول المفاوضات فى صالح مؤيدى بناء هذا الخط ، ففى ٩ أبريل عام ١٩٠٣ كتب كرومر تقريراً مطولا اعترض فيه على الاقتراحات المتعلقة بالخط الحديدى الكونغولى متذرعاً بإنه من غير الممكن تدبير المال اللازم لمده ، كما اعترض على أن تحصل شركة يساهم فيها رأس المال البلجيكى بمقدار النصف على حقوق فى السكك الحديدية السودانية ، بل إنه اعترض ـ نظراً لما هو معروف من سوء إدارة أصحاب الامتيازات الكونغولية ـ على أن يكون لهؤلاء أى امتيازات فى بحر الغزال إطلاقاً . كما رأى عدم الربط بين مسألة ادعاءات الملك ليوبولد على أراضى أعالى النيل وبين فكرة الخط الحديدى وإن أكد استعداد الحكومة المصرية التام لتيسير طرق التجارة بين الكنغو وأعالى النيل(٣).

وفى خلال تلك الأيام التقى اللورد لانسدون بفان اتفيلد فى لندن وأبلغه بقرار

---

(١) Collins, R.O., op. cit., part 5, pp. 502-504.

(٢) Corres, LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, April 10, 1903, Tel. No. 42.

(٣) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Cromer to Sir T. Sanderson, April 9, 1903.

الحكومة البريطانية بشأن الخط الحديدى وبأنه من المستحيل أن توافق على منح أى امتيازات لشركة السكك الحديدية المقترحة شمال خط عرض ٣٠َ ٦° ، وكان هذا المطلب أساسياً فى الاقتراح الكونغولى(١).

* * *

ولما تعثرت احتمالات الاتفاق بهذه الصورة قدم البارون ڤان اتفيلد فى ٢١ أبريل ١٩٠٣ إلى وزارة الخارجية البريطانية مذكرة ضافية بشأن اقتراح الخط الحديدى ومسألة الأراضى المتنازع عليها عموماً .

بالنسبة للخط الحديدى اقترح إما أن يقرر الملك ليوبولد مدى الحقوق التى ستمنح لشركة السكك الحديدية داخل الأراضى المؤجرة له وإما عودة المفاوضات المتعلقة ببناء الخط الحديدى من الكونغو إلى النيل من البداية .

أما فيما يتعلق بالاقتراحات البريطانية التى قدمت بشأن الأراضى المتنازع عليها فقد ذكر أن حكومة الكونغو تنتظر تقرير المسيو لميراندر تحرر رساله لمسح الأراضى التى وافق البريطانيون على تأجيرها .

كما اقترح أن تحدد لجنة مشتركة مركز بحيرة ألبرت المتنازع عليها وأبدى ارتياحه لإبداء الحكومة البريطانية لنيتها بقبول مبدأ تعويض الكونغو عن الأراضى التى قد يفقدها نتيجة لتعديل الحدود وأعلن أنه ليس من الضرورى أن يتم هذا التعويض فى وادى النيل .

ومع هذه الاقتراحات البديلة عادت المذكرة تؤكد أن معاهدة ١٨٩٤ لم تلغ أبداً وأنها يجب أن تبقى فى كامل فاعليتها طالما لم يتم تغييرها بموافقة الطرفين المتعاقدين ، ولكن أسوأ ما كان فيها — من وجهة النظر البريطانية — إبداء استعداد الحكومة الكونغولية لإحالة الأمر كله إلى التحكيم أو الوساطة طبقاً لشروط معاهدة برلين(٢).

(١) Corres, Part LXIII, Lansdowne to Phipps, April 7, 1903, Tel. No. 32.

(٢) Ibid., Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, April 24, 1903, Desp. No. 49, including Memorandum from Baron Van Etvelde.

وقد سارع اللورد لانسدون هذه المرة بالإجابة على المذكرة الكونغولية السابقة بمذكرة طويلة مؤرخة فى ٢٠ يونية ١٩٠٣ حدد فيها آراء الحكومة البريطانية فيما يلى :

١ — بالنسبة لمسألة الخط الحديدى رفض الاقتراح الأول على أساس أن حكومة السودان لا يمكن أن توافق على منح منطقة واسعة من الأرض من أجل بناء هذا الخط الحديدى . أما عن الاقتراح الثانى فقد أبدى استعداده لاستشارة الحكومة المصرية فيه . وأعرب عن أمله أن مصر سوف تعاون فى اقامة اتصال تجارى سهل بين «مهاجى» ومناطق أعالى النيل الصالحة للملاحة ومد خط حديدى من الكنغو إلى مهاجى ، ولكن الوصول الى تفاهم فى هذا الشأن يجب أن يكون ضمن اتفاق عام يقوم على أساس الجلاء عن الحاجز خلال مدة قصيرة .

٢ — وبالنسبة للتعديل المقترح للحدود عند بحيرة ألبرت فقد رأى وزير الخارجية البريطانية تناوله بمفرده طالما أنه لا يؤثر فى مصر أو السودان .

ثم عاد لانسدون ليفند قيمة تأكيد الادعاءات الكونغولية بواسطة معاهدة ١٨٩٤ فأكد أن بريطانيا لم تعترف أبداً بأن دولة الكونغو قد حصلت على حقوق سياسية فى حوض النيل قبل معاهدة ١٨٩٤ ، كما أنه لا يمكن اعتبار تلك النواحى قبل هذه المعاهدة أيضاً أرضاً لا مالك لها res nullius كما أن عدم حصول بريطانيا على ما تقرر لها فى هذه المعاهدة من ناحية ومنح فرنسا القسم الأكبر من الحقوق التى منحت للكونغو من ناحية أخرى جعل من غير الضرورى الاعتراف بهذا القسم من المعاهدة . كما أن حقوق مصر وتركيا ثم تأكيدها وقت توقيع المعاهدة ووافقت حكومة الكونغو على ذلك ، وأن هذه الحقوق قد تم إحياؤها الآن . كما حدد بوضوح موقف حكومته من التحكيم إذ أكد أنها لا توافق على دعوة مصر لقبول قرار تحكيم بشأن معاهدة لم تكن هى أحد أطرافها لا سيما إذا كان لهذا القرار تأثير خطير على مصالحها .

وقد حضت المذكرة البريطانية الكونغوليين على قبول المقترحات الأخيرة على أساس أن الحكومتين البريطانية والمصرية قدمتا أساس اتفاق معقول للغاية ، وختم

لانسدون مذكرته بتحذير واضح بأنه إذا لم يتم إقرار المسألة على ضوء العرض الذى تم تقديمه فى يونيه عام ١٩٠٢ فى ميعاد غايته أول نوفمبر عام ١٩٠٣ فسوف يتم سحب هذا العرض[١].

وقبل أن يتم تقديم المذكرة الأخيرة للملك ليوبولد كان قد ترامى إلى أسماعه أن الحكومة البريطانية سو تقدم إنذاراً رداً على المذكرة الكونغولية المؤرخة فى ٢١ أبريل مما دعاه الى أن يكتب لفان اتفيلد يبلغه أن المقترحات التى قدمتها الحكومة البريطانية مسيئة ومهينة له ، وأنه إذا بقيت الكونغو مصدر متاعب له فهو يفضل أن يتنازل عنها وإلا ستصبح هذه البلاد مصدر ضعف لبلجيكا ، ثم رأى وضع أسس معينة لمواجهة الموقف متمثلة فيما يلى :

١ — ألا يتم تقرير أى أمر بشأن بحر الغزال بدون استشارة فرنسا .

٢ — أن تبقى شروط معاهدة برلين المتعلقة بالتحكيم قيد النظر[٢] .

وفى خلال يوليه اتصل الملك ليوبولد بالحكومة الفرنسية بشأن هذه المفاوضات ولكنه لم يستطيع أن يحصل منها على رأى محدد فى الموقف[٣] ، وانتهى الصيف على ذلك !!

* * *

فى خريف عام ١٩٠٣ حاول ليوبولد أن يجرب اللعبة الدبلوماسية التى كان البريطانيون بحق يعتبرون أساتذة لها ألا وهى لعبة الموافقة على شروط منافسيه « مع بعض التحفظات » ، ولكن لم تجز هذه اللعبة على لندن ... بالعكس فقد كانت اللعبة خطرة إذ دمرت المفاوضات لتدخل بعدها الأزمة فى مرحلة حادة كانت احتمالات الصدام فيها أقوى من أى احتمالات أخرى .

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, June 20, 1903, Desp. No. 57.

(٢) Ibid., Phipps to Lansdowne, June 30, 1903, Desp. No. 80.

(٣) Ibid., Phipps to Lansdowne, Sept. 19, 1903, Tel. No. 109.

ففى ٢١ سبتمبر قدم البارون ڤان أتفيلد مذكرة للحكومة البريطانية أعلن فيها أن حكومة الكونغو — بعد أن لم تلاق أى اعتراض من فرنسا — على استعداد لقبول مقترحات يونيه البريطانية متمثلة فى :

١ — يتم تثبيت خط الحدود ابتداء من خط عرض ١° جنوباً وخط طول ٣٠° شرقاً كما هو حتى يصل إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو كما جاء فى اقتراح المذكرة المؤرخة فى ٢٠ يونيه ١٩٠٢ .

٢ — ومن ثم يتجه هذا الخط نحو الشمال حتى يصل إلى أقرب نقطة لمنابع نهر «يى» ، ثم يتبع مجرى هذا النهر حتى يتقاطع مع خط عرض ٣٠َ ٦° شمالاً ثم يتجه غرباً ليتبع الخط المحدد فى مذكرة يونيه ١٩٠٢ (أى يسير مع خط عرض ٣٠َ ٦° حتى خط المياه الفاصل بين حوض النيل والكونغو) . ولن يقترب خط الحدود بهذا إلى الشاطىء الأيسر من النيل أكثر من ٥٠ ميلاً .

٣ — أن يكون نصف مديرى الخط الحديدى المقترح من الانجليز ، والنصف الآخر من البلجيكيين .

ولكن مع « القبول » تضمنت المذكرة الكونغولية « تحفظات معينة » دارت كلها حول المطالبة بضرورة « التحكيم » فى المطالب الكونغولية ، أما هذه التحفظات فهى :

١ — أن تبحث كافة الأطراف المعنية ما إذا كانت المزايا التى قدمتها انجلترا تعتبر تعويضاً عادلا للحقوق المختلفة التى سلمت بها بريطانيا لدولة الكونغو وصاحبها خاصة الامتيازات التى منحت للملك فى الأراضى المؤجرة .

٢ — وإذا رأى من سيتم تحكيمه فى هذه المسألة ، أن هذا التعويض غير مناسب فعلى انجلترا تعويض الكونغو عما تنازل عنه — حتى ولو خارج الأراضى السودانية .

٣ — يتم الجلاء عن مراكز حاجز اللادو بعد أن يصدر الحكم قراره إذا لم يقرر منح مزيد من التعويض أما إذا قرر ذلك فيتم هذا الجلاء بعد الاتفاق على التعويض .

وقد أرفقت هذه المذكرة الكونغولية بمذكرة تفسيرية لتدعيم إدعاءات ليوبولد من ناحية ولشرح أسباب التحفظات التى أبدتها المذكرة الأولى من ناحية أخرى ، وقد جاء فيها :

١ — أن بريطانيا قد اعترفت بالحقوق السياسية لدولة الكونغو حتى قبل عام ١٨٩٤ .

٢ — أنه لم يحافظ قط على الحقوق المصرية عندما تصرفت انجلترا فى تلك الأراضى عام ١٨٩٤ ، فقد تصرفت فى هذا الوقت على أساس سيادتها لها أو على اعتبار أنها تقع فى مناطق نفوذها . وعلى أى الحالين فإنها فى هذا التصرف قد استبعدت الحقوق المصرية ، وإذا تحججت الآن بأنها أرض مصرية : فهذا يعنى أنه لم يكن من حقها أصلا التصرف فيها .

وشكت حكومة الكونغو فى هذه المذكرة من أنه رغم كل هذه الأسباب التى تؤكد أحقية الكونغو فى الأراضى الخاضعة لها فإن بريطانيا أجابت بطلب الجلاء عن الحاجز دون تقديم أى تعويض كما أنها رفضت الاعتراف بالامتيازات التى منحتها الكونغو فى الأراضى المؤجرة لها .

وتلت ذلك بشكوى أخرى من أن الحكومة البريطانية قد تقدمت باقتراح نهائى كأساس المفاوضات بإلغاء معاهدة ١٨٩٤ دون تعويض لدولة الكونغو سوى رقعة من الأرض لا تزيد عن $\frac{1}{8}$ الأراضى الأصلية المؤجرة فى هذه المعاهدة وأنه قد تم قبول هـذا الاقتراح فقط على أساس أن يمهد لتنظيم آخر لا باعتباره تسوية أو تعويض نهائيين(١) .

ونتج عن كل ذلك أن بادرت الحكومة البريطانية بتحديد موقفها ، ففى ١٦ أكتوبر أجاب اللورد لانسدون على المذكرة الكونغولية بأنه يرى إمكان الموافقة على شروطها الثلاثة الأولى ، أما بقية الشروط بما فيها من أن قبول الاقتراح سيتم

---

(١) Corres, part XIII, Phipps to Lansdowne, Sept. 19, 1909, Desp. No. 109.

فقط على أساس أنه مجرد تمهيد لتنظيم آخر فان هذا يخالف تماماً وجهة النظر البريطانية التى ترغب فى حل المسألة حلا نهائياً « كما أن الحكومة البريطانية ترى أنه سيكون من الصعب للغاية أن تحصل على موافقة البرلمان على تأجير أى أراضى لدولة الكونغو بسبب ما أثير أخيراً حول وسائل إدارة هذه الدولة لأراضيها » .

وقد خرجت حكومة لندن من ذلك بنتيجة محددة أبلغتها للبلجيك فى نفس المذكرة وهى أن الخلاف فى وجهات النظر بينها وبين حكومة الكونغو مما لا يمكن تسويته ، وعلى ذلك فقد قررت قطع المفاوضات الجارية (٢) .

ووقع القرار البريطانى موقع الدهشة لدى أوساط حكومة الكونغو مما دعا « ڤان أتفيلد » أن يتساءل فى مذكرة دفعها إلى السفير البريطانى فى بروكسل فى أوائل ديسمبر عن الأسباب التى دعت الحكومة البريطانية إلى قطع المفاوضات ، وأشار فى مذكرته إلى :

١ — أن موافقة البرلمان غير ضرورية على مثل هذه المعاهدة .

٢ — أن الحكومة البريطانية لم تسأل قط عن التعويض الذى يمكن أن تقبله الكونغو مقابل التسليم بكامل حقوقها .

٣ — أنه أعقاب عقد معاهدة للتحكيم مع فرنسا رفضت الحكومة البريطانية قبول اقتراح التحكيم من حكومة الكونغو رغم أن هذا التحكيم لا يشمل المسألة برمتها وإنما يشمل فقط قدر التعويض المقترح .

واستطردت المذكرة أنه طالما أن الحكومة البريطانية قد وقفت هذا الموقف فإن حكومة الكونغو لا ترغب فى تعديل شروط معاهدة ١٨٩٤ وإن كانت قد فعلت كل ما فى استطاعتها لترضى الرغبات البريطانية . وعلى ذلك فهى تصر على أن هذه المعاهدة فى كامل فاعليتها ، ومن ثم فهى لا توافق على تعيين اللورد لانسدون لحدود السودان بالحد الشمالى للحاجز وخط المياه الفاصل بين النيل والكونغو .

ورأى ڤان أتفيلد بناء على ذلك أن أى منع للموظفين الكونغوليين من دخوله

---

(١) Corres, part XIII, Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, Oct. 16, 1903, Desp. No. 107.

أراضيهم هو انتهاك لحقوق دولة الكونغو يمكن أن يؤدى إلى اصطدامات خطيرة ، ولم ينس الوزير الكونغولى أن يلوح بأنه إذا ما تم — ولو بطريق الخطأ — احتلال أى جزء من أراضى الكونغو التى تخضع لشروط معاهدة برلين فإن الحكومة الكونغولية سوف تطلب وساطة دولة أو أكثر من الدول الصديقة طبقاً لشروط هذه المعاهدة(١) .

وبهذا « التهديد الكونغولى » انتهت مرحلة هامة من مراحل المشكلة لتبدأ مرحلة أهم استمرت لما يقرب من ثلاث سنوات .

حافة الصدام ١٩٠٣ — ١٩٠٦ :

أدى فشل المفاوضات الإنجليزية — الكونغولية فى نهاية عام ١٩٠٣ إلى نهاية محاولات إقرار المشكلة بالوسائل السلمية ، وبدأ كل من ملك البلجيك والحكومة البريطانية يسعيان إلى تثبيت مطالبهما بحق « الإحتلال الأول » وفرض « الأمر الواقع » .

ويرتبط تغير أساليب علاج الخلاف البريطانى — الكونغولى وانتقالها من على موائد المفاوضات وأروقة وزارات الخارجية إلى أحراش بحر الغزال بالأوضاع الأوربية عامة وأوضاع طرفى النزاع على وجه الخصوص ، فبريطانيا تحسن موقفها السياسى والعسكرى كثيراً بعد نهاية حرب البوير فى مايو عام ١٩٠٢ ، كما أنه أصبح واضحاً منذ أواخر عام ١٩٠٣ أن هناك إتفاقاً فى الطريق مع فرنسا وهو الذى تم فعلا فيما عرف بإسم « الوفاق الودى » فى أبريل من العام التالى ، وعلى ضوء هذه التطورات أحس الساسة البريطانيون أن فى إمكانهم إتخاذ موقف أكثر تشدداً نحو المشكلة .

أما ليوبولد فقد تأكد إبان سنى المفاوضات من قانونية حقوقه التى يطالب بها بمقتضى معاهدة مايو ١٨٩٤ ، ولهذا كان تواقاً إلى « تحكيم » يكفل له الحصول على بغيته . ولما كانت الحكومة البريطانية قد رفضت إطلاقاً فكرة « التحكيم »

---

(١) Ibid., Phipps to Lansdowne, Dec. 4, 1903, Desp. No. 140.

هذه فقد أراد أن يفرضها عليها ولو كان الطريق إليها صداماً عسكرياً محدوداً فى تلك النواحى الأفريقية .

وقد بدأت محاولات فرض « الأمر الواقع » عندما وافقت الحكومة البريطانية على إقتراح قدمه حاكم عام السودان أواخر نوفمبر عام ١٩٠٣ لتقوية سلطة الحكومة على قبائل « النيام نيام » فى بحر الغزال خاصة على رؤساء « تمبورا » و « يمبيو » فصدرت الأوامر قبيل نهاية العام إلى حملة قوية بالتقدم من « واو » إلى بلاد النيام نيام أو الزاندى لفرض سلطة الحكومة عليها (١) .

ولم يكن البلجيكيون أقل نشاطاً فى خلال نفس الشهر إستمر ورود التقارير عن النشاط الكونغولى فى الحاجز . والواقع إن أخبار هذا النشاط كانت قد بدأت تترامى إلى أسماع لندن منذ سبتمبر خاصة ما تعلق منها بمد خط حديد مهاجى بأسرع ما يمكن (٢).

وبدا أن هدف هذا النشاط تحقيق خطة جريئة ، ولم تلبث أن تحققت مخاوف لندن ففى ١٤ يناير عام ١٩٠٤ وصلت برقية إلى القاهرة من الخرطوم تبلغ عن وصول ١٣٠ من الجنود والضباط الكونغوليين بقيادة « المسيو لمير » إلى « مقولو » ولما تصدى له مدير بحر الغزال أعلن أن حملته ذات أهداف علمية وأن كان قد اعترف بأنه يقوم بمسح الأراضى المقترح تبادلها مع حاجز اللادو ، وقد أعلن عن نيته على التقدم نحو « رومبك » ، وقد قام المدير بتحذيره بأنه لا يمكن السماح بدخول حملته للأراضى السودانية دون تصريح وأنه لابد من انسحابه (٣).

وأوصى اللورد كرومر بتقديم الإحتجاج لبروكسل لمنع مثل هذه الانتهاكات (٤).

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Findlay to Lansdowne, Nov. 28, 1903, Tel. No. 42.

(٢) Ibid., Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, Sept. 21, 1903, Tel. No. 102.

(٣) Corres, part X, Inc. in No. 8, Wingate to Cromer, Jan. 9, 1904.

(٤) Ibid., No. 8, Cromer to 'Lansdowne, Jan. 14, 1904, Desp. No. 4.

وانقضى ما يقرب من الأسبوعين قبل أن تحصل لندن فى ٢٥ يناير على صورة كاملة للموقف ، وقد علم منها أن المسيو لمير ومعه ٣ من الضباط البيض و١٣٠ من الجنود الوطنيين و٢٠٠ حمال قد وصلوا إلى مقولو وتقع على خط عرض ٦ َ٩ ْ٥ شمالا وخط طول ٥٨ َ ٢٩ ْ شرقاً فى ٢٥ نوفمبر قادمين رأساً من ليوبولد ڤيل . وقد سارع أحد المشايخ المحليين بإبلاغ مفتش المنطقة بأن جماعة من الفرنسيين والبلجيك قد وصلوا الى جهاته مما دعا « المستر بول » الى الإسراع الى مقولو للقاء لمير الذى أعلن أن أهدافه علمية تماماً ، ولما أبلغ أنه ليس له الحق فى الدخول الى بحر الغزال أجاب على ذلك بأنه فى الأرض التى قدمتها الحكومة الانجلو ـ مصرية بدلا من الحاجز وأنه أرسل لمسحها وأنه يأمل فى التقدم الى رومبك فى ١٩ ديسمبر . فأبلغه المفتش أنه لن يسمح له بذلك وأحال الأمر للمدير الذى طلب من المسيو لمير الإمتناع عن التقدم إنتظاراً للتعليمات . وبينما أخذت الجماعة الكونغولية فى تدعيم قوتها فى مقولو تقدم لمير نفسه إلى «مهل Mehl » وهى تبعد بضعة أميال شمال مقولو فى الطريق إلى رومبك ، ولما منع من الإستمرار قدم فى ٢٤ ديسمبر احتجاجاً شديداً بسبب عدم السماح له بالتقدم نحو رومبك .

وفى اليوم التالى ـ ٢٥ ديسمبر ـ وصل ممثل المدير الى « مهل » حيث قابل المسيو لمير وأبلغه شفوياً وكتابة أن عليه أن ينسحب من السودان . وقد اعترف لمير أن حكومة الكونغو قد أرسلت بعثته بأمر من الملك ليوبولد وأن التعليمات التى لديه هى القيام بمسح خط المياه الفاصل بين النيل والكونغو ، وأنه حتى يقوم بذلك فانه مضطر إلى تتبع مجارى المياه بين الحوضين . وظل يؤكد أن حملته ذات طبيعة علمية لا سياسية . ورغم أنه وافق على التراجع إلى أراضى الكونغو كما طلب منه إلا أنه أبلغ ممثل المدير فى ٢٩ ديسمبر أن نقص وسائل النقل منعه من هذا التراجع وكتب له أنه ينتظر قرار حكومته الذى كان ـ من الوجهة العملية ـ صعب الوصول [١] .

* * *

فى ظل هذه الظروف الجديدة التى خلقها وجود القوات الكونغولية فى الأراضى

---

(١) Corres, part X, No. 25, Lansdowne to Phipps, Feb. 22, 1904, Desp. No. 13.

السودانية كان على وزارة الخارجية البريطانية أن تتحرك ، وقد تحركت لندن فى ثلاثة إتجاهات :

١ — بدأت بالإسراع بتوضيح موقفها من الإقتراحات الكونغولية التى قدمت إليها فى مذكرة ڤان اتفيلد المؤرخة فى ٤ ديسمبر ١٩٠٣ والتى كانت المفاوضات قد قطعت على أثرها ، وقد رؤى أن توضيح هذا الموقف لن يدع للكونغوليين فرصة للادعاء بأن وجودهم فى بحر الغزال إنما حدث بناء على الاقتراح البريطانى بمنحهم أراضى معينة فى تلك الجهات كتعويض عن الأراضى المتنازل عنها ، وبالفعل أرسل « لانسدون » مذكرة طويلة فى ٢٢ فبراير إلى بروكسل لتوضيح هذا الموقف .

تحدث وزير الخارجية البريطانية فى مذكرته أولا عن إشارة ڤان اتفيلد بعدم ضرورة الحصول على موافقة البرلمان على المسألة محل البحث فذكر أن نتائج هامة للغاية ستترتب على قيام الحكومة البريطانية بالتصرف فى الأراضى السودانية مما يلاقى إعتراضاً حاداً من البرلمان البريطانى .

كما أنكر أن هناك أى تغير فى موقف الحكومة البريطانية من مسألة التحكيم وذكر أن أهم أسباب رفض التحكيم أن المسائل محل هذا التحكيم ستؤثر فى مصالح طرف ثالث هو مصر التى تم إحياء حقوقها كاملة بعد نصر أم درمان وأن معاهدة التحكيم التى يرغب ڤان اتفيلد فى تطبيقها تستبعد المسائل التى تمس مصالح الطرف الثالث .

وأن الحكومة البريطانية قد قدمت عرضا تحصل بمقتضاه الكونغو على منطقة كبيرة من الأراضى السودانية مؤجرة تأجيراً نهائيا فى مقابل أن تستأنف مصر ملكيتها لحاجز اللادو . وأنه بعد عامين من المباحثات قبلت حكومة الكونغو الاقتراح ولكنها لم ترغب فى تنفيذه قبل بحث مسألة كفاية التعويض بطريق التحكيم ، ولا يمكن أن ينظر لمثل هذه الرغبة إلا أنها عودة لمسألة التحكيم التى رفضتها الحكومة البريطانية من قبل .

واستطرد لانسدون بأنه يرى أن السلطات السودانية تمارس حقوقها فى رفضها السماح لبعثة علمية خاصة يقودها مكتشف بلجيكى بعبور بحر الغزال وأنه لحكومة

السودان أن تقرر إذا كان من الممكن السماح لمثل هذه الحملات بالمجيء إلى أراضيها دون تعريض أمن المنطقة للخطر أو التدخل فى شئونها الإدارية .

وأن الحكومة البريطانية لاترى — فيما يتعلق بالوساطة — إمكان تطبيقها على الأراضى التى تقع خارج المنطقة المحدودة فى المادة الأولى من معاهدة برلين . وطالما أنه لم يحدث أى تدخل فى حقوق دولة الكونغو أو فى الأراضى المؤجرة لها جنوب خط عرض ٥° شمالا فإن شكوى الكونغو حتى إذا كان لها أساس لاتخضع لهذه المادة من المعاهدة المشار إليها . وعلى ذلك فإن اقتراح الوساطة مما لا تقبله الحكومة البريطانية فى ظل الظروف القائمة .

وإن مصر لم تدع — بناء على النصيحة البريطانية — العودة إلى احتلال الحاجز بالرغم من حفظ حقوقها فى معاهدة ١٨٩٤ ، ولكن من ناحية أخرى فان الحكومة البريطانية لايمكن أن تنصحها بقبول ادعاءات دولة الكونغو فى الأراضى التى تم إعادة تأكيد الحقوق المصرية فيها والتى لم تحتلها الحكومة الكونغولية قط .

وقد تم — بروح ودية تماماً — تقديم الاقتراح بأن تمتلك مصر منطقة صغيرة من الأراضى المحيطة بالنيل والتى ستؤول إليها على أى الأحوال فى نفس الوقت الذى تسلم فيه بمنطقة كبيرة من الأراضى بصفة دائمة . وقد تم تحذير حكومة الكونغو أنه لايمكن بقاء هذا الاقتراح مطروحا إلا لفترة محدودة بسبب ظروف القبائل المحلية ونتيجة لذلك فان الحكومة البريطانية لاتستطيع الاستمرار فى تقديم الاقتراحات بتأجير الأراضى شمال الحدود الحالية (١) .

والواقع أنه منذ منتصف يناير عام ١٩٠٤ كان المعتمد البريطانى فى القاهرة قد نصح حكومته بوجوب تحذير الملك ليوبولد بأن جلاء القوات السودانية عن أراضى بحر الغزال سيكون صعباً نتيجة للارتباطات التى تمت مع القبائل ، وأن هذه الارتباطات قد تم تجديدها مؤخراً نتيجة لعدم قبول المقترحات البريطانية ، وأنه بناء على ذلك لا يمكن تقديم أى اقتراح بتأجير أراضى شمال خط الحدود البلجيكى (٢).

---

(١) Corres, part X, No. 25, Lansdowne to Phipps, Feb. 22, 1904, Desp. No. 13.

(٢) Ibid., part LXIII, Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, Jan. 14, 1904, Desp. No. 5.

٢ ـــ الاحتجاج على الوجود الـكونغولى فى بحر الغزال ، فنى ٢٤ فبراير طلب اللورد لانسدون من السيرفيبس أن يرجو الحـكومة الـكونغولية بأن تطلب من المسيو لمير الانسحاب العاجل وأن تتخذ الخطوات المناسبة لمنع تـكرار مثل هذه الانتهاكات(١) .

وتقدم فيبس بالاحتجاج المذكور على الفور راجياً إصدار الأوامر المشددة لمنع مثل هذه الحملات من الدخول فى أراضى السودان فى المستقبل(٢) .

ولـكن لم يتفاءل السفير البريطانى فى بروكسل كثيراً من أثر هذه الاحتجاجات فقد رأى أنه لن يكون لها تأثير كبير إذ أعتقد أن حكومة الـكونغو ترغب فى صدام وذلك حتى يمكن اللجوء إلى التحكيم بمقتضى ميثاق برلين(٣) .

٣ ـــ الضغط على المسيو ليمير واحتواء قواته بطريقة لاتسمح له بحرية الحركة ، فنى ٢٩ فبراير أبرق اللورد كرومر إلى لندن بأن حاكم عام السودان قد اقترح أن تقوم الحملة التى أرسلت إلى النيام نيام أو الزاندى بطرد المسيو ليمير وقواته إذا كانت الحـكومة البريطانية راغبة فى ذلك أو تبقى هذه الحملة فى ضواحى مفولو حتى يتحسن الموقف وقد وافق كرومر على بقاء الحملة فى ضواحى مفولو وطلب عدم المبادأة بأى عمل عدوانى واقترح فقط قطع طريق مواصلات ليمير ومنع الإمدادات عنه حتى تدهمه هو وقواته المجاعة(٤) .

* * *

بدأت ردود فعل التحرك البريطانى فى اتجاهاته المتعددة تظهر من الجانب البلجيكى منذ أواخر فبراير ، فنى ٢٩ من هذا الشهر سلم البارون فان أتفيلد إلى السفير

---

(١) Corres, part LXIII, Lansdowne to Phipps, Feb. 24, 1904, Desp. No. 14.

(٢) Ibid., part X, Inc. in No. 31, Phipps to M. De Cuvelier, Feb. 25, 1904.

(٣) Ibid., No. 29, Phipps to Lansdowne, Feb. 26, 1904, Tel. No. 23.

(٤) Ibid., No. 32, Cromer to Lansdowne, Feb. 29, 1904, Tel. No. 15.

البريطانى فى بروكسل رده على مذكرة لانسدون وقد كرر فيها نفس الآراء التى أبداها من قبل وهى :

١ — أن الحكومة البريطانية تستعمل مسألة الحقوق المصرية بالطريقة التى تناسبها.

٢ — أن التحكيم هو الحل الوحيد السليم .

٣ — أن نبذ الحقوق السياسية الممنوحة ١٨٩٤ إنما تم فيما يتعلق بفرنسا وحدها .

٤ — أن معاهدة ١٨٩٤ لا زالت فى كامل فاعليتها .

وعندما تحدث السير فيبس عن مسألة حملة لبمير ، وأن هدفها الأساسى أصبح غير ذى موضوع ، وأنه فى منطقة مثل بحر الغزال تكون احتمالات واسعة للصدام ، أجاب البارون فان أتفيلد أن حكومته لا تخشى الصدامات المحلية أو نتائجها[١] .

ورغم ذلك أبلغ فان أتفيلد السير فيبس فى ٧ مارس أنه حالما أن تتم بعثة لبمير مهمتها فسوف تنسحب تلقائياً[٢] .

ولكن يبدو أن هذا الإبلاغ من جانب الوزير الكونغولى لم يكن سوى محاولة تخدير حتى يتمكن لبمير من كسب الوقت لتدعيم قواته ، ففى اليوم التالى لهذا الإبلاغ —٨ مارس — وصلت برقية إلى لندن من السودان عن طريق اللورد كرومر بأنه تم إرسال التعزيزات لحملة لبمير وأنها تقوم بتشييد مبان دائمة ، وقد أشار المعتمد البريطانى فى القاهرة لخطورة الموقف وطلب سؤال الملك عن حقيقة نياته لا سيما أن الوقت يمر وستؤدى الأمطار إلى استحالة الاتصال بتلك الجهات[٣] .

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, Feb. 29, 1904, Desp. No. 24.

(٢) Ibid., Phipps to Lansdowne, March 7, 1904, Desp. No. 29.

(٣) Ibid., part X, No. 42, Cromer to Lansdowne, March 8, 1904, Tel. No. 17.

ورد اللورد لانسدون متسائلا عما إذا كان يمكن قطع الإمدادات عن المسيو لمير[١] كما أبرق للسير فيبس يسأله عما إذا كان يرى ضرورة تقديم احتجاج آخر[٢] ورد السفير البريطانى فى بروكسل على ذلك بالإيجاب .

وفى ١٠ مارس أبلغ كرومر اللورد لانسدون عن امكان قطع الإمدادات عن لمير ولكنه لم يرحب بهذه الخطوة إلا كسهم أخير نتيجة لما يمكن أن تؤدى إليه من صدام . وقد ذكر اللورد لانسدون أنه فى ظل الموقف القائم فالظروف تمكن البلجيكيين من تجميع قواتهم فى بحر الغزال أكثر مما تمكن حكومة السودان[٣].

كما طلب وزير الخارجية فى نفس اليوم من السير فيبس تقديم احتجاج آخر على ضوء الأنباء التى تأكدت عن تدعيم القوة التى يقودها لمير وهدف هذا العمل الظاهر إلى تحويل « مفولو » إلى مركز دائم . وبالفعل ضغط السير فيبس فى نفس اليوم على حكومة الكونغو لتقدم الاجابة المنتظرة لمذكرة الاحتجاج التى كان قد قدمها فى ٢٠ فبراير[٤].

وقد أجابت حكومة الكونغو فى ١١ مارس على طلب السير فيبس بسحب حملة لمير بلفت نظره إلى معاهدة ١٨٩٤ التى كررت أنها فى كامل فاعليتها ، وعادت تكرر تأكيداتها أنها على استعداد للتفاوض فى الأمر .

وعندما طلب رأى كرومر فى الرد على الحكومة الكونغولية ـ فى ١٢ مارس ـ أجاب بأن أفضل طريق هو التمسك بالحقوق المصرية التى جاءت فى معاهدة ١٨٩٤ كما ذكر أن عدم تنفيذ المادة الثالثة من المعاهدة يبطلها برمتها (وهى المادة المتعلقة بتأجير شريط من الأرض بين بحيرتى ألبرت وتنجانيقا إلى بريطانيا) ، وأوصى باستمرار الضغط على الملك ليوبولد حتى يتم سحب حملة لمير[٥].

---

(١) Corres, part X, No. 43, Lansdowne to Cromer, March 9. 1904, Tel. No. 11.

(٢) Ibid., part LXIII, Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, March 9, 1904, Tel. No. 19.

(٣) Ibid., part X, No. 46, Cromer to Lansdowne, March 10, 1904, Tel. No. 18.

(٤) Ibid., No. 47, Lansdowne to Phipps, March 10, 1904, Desp. No. 1.

(٥) Ibid., No. 53, Cromer to Lansdowne, March 12, 1904, Tel. No. 21.

وفى خلال الشهر الذى امتد من منتصف مارس حتى منتصف أبريل بلغت لعبة الشد والجذب أقصاها ، فبينما أخذ ممثلو ليوبولد يقدمون وعوداً غامضة عن قرب الإنسحاب أخذ الضغط البريطانى يتزايد يوماً بعد آخر بطلب تنفيذ هذه الوعود حتى رضخ الكونغوليون أخيراً وتحولت الوعود الغامضة إلى تعهد كتابى صريح حصلت عليه السفارة البريطانية فى بروكسل فى ١٧ أبريل سنة ١٩٠٤ ، وتم تنفيذه خلال الشهر التالى .

وقد بدت أول استجابة من الجانب الكونغولى للانسحاب عندما أبلغ المسيو دى كوفليه السير فيبس فى ١٢ مارس أثناء المحادثات التى جرت حول إنسحاب لمير أن الصعوبة الوحيدة فى صدور أمر الإنسحاب أن مثل هذا الأمر سيحمل إعترافاً من الكونغو بأنه ليس لها حق فى الأراضى المؤجرة وطلب منه — بصورة غير رسمية — تأكيداً بأنه لن ينظر إلى المسألة مثل هذه النظرة ولكن رفض السير فيبس تقديم مثل هذا التأكيد(١) .

وفى لقاء بين الرجلين فى اليوم التالى — ١٣ مارس — بدأ الموقف يتضح أكثر ، فقد عاد الممثل الكونغولى يؤكد إنسحاب لمير حالما تستكمل بعثته عملها وإن كان لم يستطع أن يفسر الاستعدادات التى يقوم بها رجاله من أجل إقامة طويلة فى مفولو(٢) . كما أكد أن حكومته غير مستعدة أن تقدم تعهداً مكتوباً بعدم حدوث ذلك فى المستقبل(٣) .

* * *

ونتوقف هنا لبرهة نتلمس فيها تفسيراً لموقف ليوبولد باستعداده لسحب حملة لمير وسؤال يلح علينا عن ماهية الأسباب التى دعت إلى ذلك ؟

الواقع أن تفسيرين يتدافعان لدينا فى هذا الصدد :

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, March 12, 1904, Tel. No. 32.

(٢) Ibid., part X, No. 62, Phipps to Lansdowne, March 13, 1904, Desp. No. 4.

(٣) Ibid., No. 62A, Phipps to Lansdowne, March 13, 1904, Tel. No. 33A.

الأول : أن الحملة كما ادعى قائدها منذ البداية مجرد « بعثة طبوغرافية » لا تلبث أن تنسحب بعد إتمام مهمتها .

الثانى : وهو التفسير الأكثر منطقية والذى أكدته الأحداث فيما بعد بأن « صاحب الكونغو » رأى أن صداماً فى « مفولو » لن يكون له الأثر المطلوب باللجوء إلى التحكيم ، وذلك لوقوع هذه البقعة شمال خط عرض ٥° شمالا ، وهو الخط الذى حدده ميثاق برلين ١٨٨٥ لدولة الكونغو الحرة بأنه يجب « التحكيم » فى الخلافات التى تحدث وراءه وهوما أشارت إليه مذكرة اللورد لانسدون المؤرخة فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٠٤ .

ومما يؤكد هذا التفسير أن الكونغوليين بعد انسحابهم من « مفولو » ما لبثوا أن عادوا لاحتلال مراكز سودانية جنوب خط عرض ٥° شمالا فى مرحلة تالية من مراحل الصراع .

ومن ثم لم يكن أمام ليوبولد سوى الإنسحاب وإن كان قد حاول إحراز أى كسب قبل إتمامه فتارة يطلب من البريطانيين أن يعترفوا بأن هذا الانسحاب لا يعنى عدم أحقيته فى الأراضى موضع النزاع ، وتارة أخرى يرفض تقديم أى تعهد مكتوب بعدم حدوث ذلك فى المستقبل .

كما أن هذا الانسحاب تم بتباطؤ شديد بأمل فرصة فى إحداث ثغرة فى الحائط الانجليزى يحرز منه كسباً ، ويجذبنا هذا إلى العودة لتتبع المناقشات التى دارت حول الموقف وقتها إذ يظهر ذلك أن ليوبولد كاد يحقق بغيته .

فهذا التباطؤ دعا البريطانيين فى البداية الى التفكير فى عملية تجويع لحملة ليمير ، ولكن قائد القوة التى كانت تراقب ليمير كتب بأن مثل هذا الأسلوب سيستغرق وقتاً طويلا ونصح بطرده بالقـــوة . ورأى اللورد كرومر أن يحدد البلجيكيون موعداً لانسحابهم وحذر من النتائج الخطيرة التى ستترتب على تأخير هذا الانسحاب .

وبناء على ذلك أبلغ اللورد لانسدون السير فيبس فى ٦ أبريل أن الموقف لم يتغير فى « مفولو » وأن عليه إبلاغ المسيو كوفليه بأنه إذا كانت التعليمات لم تصل

إلى لمير بالانسحاب فعلى سلطات الكونغو أن تحدد أقصى موعد يمكن أن تصل فيه هذه التعليمات . كما طلب من السير فيبس أن يؤكد أن الموقف سيصبح خطيراً للغاية إذا لم يتم انسحاب سريع(١) . .

ولما نفذ « فيبس » التعليمات المرسلة اليه وأبلغ دى كوفليه بها رد عليه هذا مؤكداً أن الحملة تنسحب جنوباً وان كان قد ذكر أنه سيعود للملك فيما يتعلق بتحديد ميعاد لخروج لمير من أراضى السودان(٢) .

واستمر التباطؤ الكونغولى وتزايد الإلحاح البريطانى ففى ١١ أبريل أرسل اللورد كرومر برقية من حاكم عام السودان يلح فيها بأن تسارع سلطات بروكسل بإرسال تعليماتها برقياً عن طريق النيل حيث يزداد تعقيداً(٣) .

وبناء على طلب كرومر هذا قدم السير فيبس مذكرة فى اليوم التالى — ١٣ أبريل — للحكومة الكونغولية أشار فيها إلى أنه رغم التأكيدات التى صدرت له إلا أن لمير لم ينسحب بعد ، وأنه بناء على ذلك يعتقد أن المسيو لمير قد عدّل فى التعليمات الصادرة له ومن ثم فهو يطلب إعادة صدور هذه التعليمات حفاظاً على سلامة الحملة ، وأيضاً سلامة المديرية . وقد أعادت المذكرة ما كان قد تم بين الحكومتين فى الموضوع وأشارت إلى أخطار الموقف وسألت الإبراق بالتعليمات رأساً إلى المسيو لمير عن طريق النيل(٤) .

ولما لم تحصل الخارجية البريطانية على رد سريع لمذكرة فيبس الأخيرة أبرق لانسدون إلى كرومر فى ١٥ أبريل يطلب منه رأيه فى الخطوة التالية إذا رفضت الحكومة الكونغولية سحب لمير ، ونبهه إلى أنه لا جدوى من التهديد إذا لم يكن هناك نية لتنفيذه ، ولما رأى أنه من الضرورى التأكد من التفوق العسكرى الذى

---

(١) Corres, part X, No. 73, Lansdowne to Phipps, April 6, 1904, Tel. No. 29.

(٢) Ibid., part LXIII, Inc. No. 160, Phipps to Lansdowne, April 11, 1904, Tel. No. 38.

(٣) Corres, part X, No. 79, Cromer to Lansdowne, April 12, 1904, Tel. No. 42.

(٤) Ibid., part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, April 13, 1904, Tel. No. 39.

سيحتاج إلى مزيد من الإمدادات وتكون النتيجة صداماً لن يمكن معه تجنب التحكيم كما رأى أن هناك حلاً آخر طويل الأجل بالاستمرار فى تجويع لمبير مع ممارسة الضغط السياسى فى نفس الوقت(١) .

وبينما كان المعتمد البريطانى فى القاهرة يعد رأيه فى مذكرة لانسدون الأخيرة التقى السفير البريطانى فى بروكسل بالمسيو دى كوفليه فى ١٨ أبريل ، وقد اتسم رد الأخير « بالبرود » فمع تأكيده قرب إنسحاب لمبير كتابة ، إلا أنه أضاف أن الملك لن يصدر تعليمات جديدة(٢) .

وتزايدت الشكوك أكثر وأكثر حول موقف الكونغوليين ففى تلك الأثناء أرسل وينجت مراسلتين إلى كرومر عن الموقف فى بحر الغزال جاء فى الأولى أنه قد حصل على كتاب مرسل إلى المسيو لمبير من حكومة الكونغو عن طريق حاكم اللادو جاء فيه ما يعنى أن عليه – أى لمبير – البقاء حيث هو . ورأى حاكم عام السودان بناء على هذا تزايد احتمالات الصدام وطالب بمزيد من الضغط بهدف سحب لمبير .

أما الكتاب الثانى فقد أرفق به السير وينجت تقرير قائد القوة التى تراقب لمبير والذى ذكر أن البلجيكيين لا يبدون أى علامة تدل على نية انسحابهم ، بالعكس فقد تم تعزيز قواتهم وجمعوا كميات كبيرة من الإمدادات كما أنهم نجحوا فى التقرب إلى الأهالى بشراء حاجياتهم بأثمان مرتفعة(٣) .

وفى ظل هذا الجو أجاب كرومر على اللورد لانسدون فى ١٩ أبريل فذكر أنه استشار السردار ، وأنه يرى أولا انتظار رد الملك ، أما إذا كان هذا الرد غير مرض فعلى الحكومة البريطانية أن تقرر الموافقة أو عدم الموافقة على التحكيم ، وقد رأى أن البديل الوحيد للتحكيم هو القوة التى قد تؤدى إلى شن حرب فى حاجز

---

(١) Corres, part X, No. 85, Lansdowne to Cromer, April 15, 1904, Tel. No. 31.

(٢) Ibid., No. 90, Phipps to Lansdowne, April 18, 1904, Desp. No. 7.

(٣) Ibid., No. 99, Cromer to Lansdowne, April 16, 1904, Desp. No. 41.

اللادو وإلى استدعاء الاحتياطى المصرى وإلى زيادة الحامية البريطانية . أما مسألة قطع الإمدادات عن لمبير فهى مسألة طويلة المدى . وإن كان قد رأى أنه لا يمكن البدء فى أى عمليات عسكرية قبل أكتوبر وأنه فى تلك الفترة ستعسكر قوة بين مفولو والحدود لتحفظ الحقوق المصرية ولكنها لن تقطع الإمدادات . وحذر المعتمد البريطانى فى القاهرة من أن « مركزنا فى السودان سيتعرض للحرج الشديد إذا فشلنا فى إخراج لمبير بسبب التحكيم ، أو أى سبب آخر»[١] .

وهكذا نرى أن تباطؤ سحب لمبير قد أدى إلى أن يطرح المعتمد البريطانى فى القاهرة حل اللجوء إلى التحكيم كأحد حلين للموقف إلا أن حكومة الكونغو ما لبثت نفسها أن تبرعت بحل الموقف لوزارة الخارجية البريطانية وذلك حين حصلت السفارة البريطانية فى بروكسل على أول مذكرة رسمية من هذه الحكومة عن تأكيد انسحاب لمبير وعن ميعاد هذا الإنسحاب الذى تحدد بعد إتمام مهمته فى مايو أو يونيه[٢] .

ورغم التأكيد الكونغولى فى مذكرة ٢٠ أبريل إلا أن القلق كان يمسك بتلابيب حاكم عام السودان الذى أبرق فى أوائل مايو إلى كرومر بأنه سوف يشعر بالثقة إذا ما أوضحت الحكومة البريطانية الملك ليوبولد بأنه إذا لم يتم انسحاب لمبير فإنه سوف تستعمل القوة لتحقيق هذا الإنسحاب . وأنه فى حالة ضرورة القيام بعمليات عسكرية فلا بد من ارسال لواءين من الجنود البريطانيين وبطارية مدفعية كامدادات ضرورية وذكر الحكومة البريطانية أنه فى حالة رفض بروكسل لطلب انسحاب لمبير فإن ذلك يعنى حقه فى الوجود فى تلك الجهات وهذه سابقة خطيرة للغاية . ثم اقترح أخيراً أن تطلب الحكومة البريطانية التعويض المناسب من الكونغو عما ستتكلفه السودان من جراء العمليات المقترحة .

وأجاب اللورد كرومر على كل ذلك بأن هناك اعتراضات هامة على إرسال إمدادات بريطانية قوية إلى السودان وذكر للحاكم العام أنه إذا كان ثمة

(١) Ibid., No. 93, Cromer to Lansdowne, April 19, 1904, Tel.

(٢) Ibid., No. 94, Sir B. Boothby to Lansdowne, April 20, 1904, Desp. No. 8.

اختيار بين الحرب والتحكيم فإن الحكومة البريطانية ستجد نفسها مضطرة لقبول الحل الأخير.

ورد وينجت على ذلك على ضوء اعتبارات معينة عرضها وهى :

١ — أن العمليات العسكرية المزمعة ضد النيام نيام لا يمكن تنفيذها قبل أكتوبر .

٢ — أن استبقاء القوات العسكرية فى بحر الغزال سيؤدى إلى استنزاف مبالغ كبيرة كما أنه ضار للغاية بصحة أفرادها .

٣ — أن المواصلات مع المراكز القائمة ستكون مستحيلة خلال موسم المطر .

٤ — أن مركزة القوات فى تلك الأنحاء سيؤدى إلى التدخل فى شئون الإدارة المحلية للمديرية .

٤ — أن الأمطار سوف تشل التحركات البلجيكية بدورها .

وبناء على ذلك فقد اقترح سحب القوات التى لاحاجة لها فى المديرية .

ورد اللورد كرومر على ذلك موافقاً على القرار المذكور وإن أبدى أسفه نتيجة للاضطرار لاتخاذ هذا الإجراء قبل إنسحاب لبير .

وقد أبلغ لانسدون السير فيبس بانسحاب القوات السودانية من بحر الغزال ، وطالبه بالاستمرار فى محادثاته مع حكومة الكونغو لتنفيذها وعدها بسحب حملة لبير من الأراضى السودانية(١) فى نفس الوقت الذى أرسل فيه إلى كرومر يبلغه بموافقته الكاملة على رأيه بالموافقة على هذا الانسحاب(٢) .

وفى اللقاء الذى تم فى أوائل يونيه بين السفير البريطانى فى بروكسل ، وممثل حكومة الكونغو ألح الأول على تنفيذ وعد الإنسحاب الذى كان قد حصل

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, May 11, 1904, Tel. No. 40.

(٢) Corres, part X, No. 108, Lansdowne to Cromer, May 13, 1904.

عليه . وأجاب المسيو دى كوفليه على ذلك أن الوعد فى طريق التنفيـــذ وإن ظل مصمما على أن من حق الموظفين الـكونغوليين استمرار الدخول فى بحر الغزال طبقاً لاتفاقية ١٨٩٤[1] .

ولم يكن أمام البريطانيين بعد ذلك سوى الاستمرار فى ضغطهم الديبلوماسى ، وتنسمهم لأخبار انسحاب لبير ، وقد حصل السفير البريطانى فى بروكسل قبل نهاية سبتمبر ١٩٠٤ على تأكيدات محددة بانسحاب لبير وإن ظل من غير المعلوم هل تم هذا الإنسحاب أملا لأن طريق الاتصال الوحيد مع بحر الغزال وقتذاك هو طريق الـكونغو ، وكان الاتصال بواسطته يستغرق وقتاً طويلا ، ومن ثم لم يكن من المنتظر وصول أخبار مؤكدة عن هذا الطريق قبل نهاية أكتوبر[2] .

ولـكن تأكيد انسحاب لبير ما لبث أن وصل عن طريق النيل فى أواخر سبتمبر إذ علمت حكومة السودان عن طريق مراكزها فى بحر الغزال أنه قد تم إنسحاب لبير والجلاء عن مفولو خلال منتصف أغسطس[3] . وبذلك انتهت المرحلة الأولى من مراحل « احتمالات الصدام » .

* * *

لم يمنح ليوبولد وزارة الخارجية البريطانية فرصة لتهدأ فيها خلال إنسحاب حملة لبير ، أو فى أعقاب هذا الإنسحاب .

فنى هذا الوقت كان قد نشر تقرير كرومر السنوى عن السودان وقد جاء فيه إشارات واضحة إلى إمكان حدوث تغييرات فى حدود السودان مع الـكونغو[4] ، كما جاء فى مكان آخر أن اتفاقاً قد تم مع سلطات الـكونغو بشأن الحدود الشمالية لحاجز اللادو التى تقطع النيل[5] .

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, June 4, 1904, Tel. No. 63.

(٢) Ibid., Phipps to Lansdowne, Sept. 22, 1904, Tel. No. 91.

(٣) Ibid., Findlay to Lansdowne, Sept. 27, 1904, Tel. No. 86.

(٤) Annual Report, 1904, p. 1.

(٥) Annual Report, 1904, p. 87.

وبناء على تحريض الملك البلجيكى احتجت شركة «أفريقيا الإستوائية البريطانية» و «أفريقيا الأنجلو — بلجيكية» على احتمال مثل هذه الاتفاقات أشد الاحتجاج وذكرتا اللورد لانسدون بوعده بإبلاغهما بأى اتفاق قد يعقد مع دولة الكونغو ويؤثر على الحقوق والامتيازات التى منحتها هذه الدولة للشركتين .

وأشارتا فى احتجاجهما إلى أنه على الرغم من أن الامتيازات الممنوحة لهما فى الأراضى التى أجرتها الحكومة البريطانية للملك ليوبولد فى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ تجارية تماماً وليس لها أى صبغة سياسية أو إدارية فان أى تغيير فى الوضع السياسى لتلك الأراضى قد يؤثر أشد التأثير على مراكز الشركتين ومناطق عملهما فى المستقبل(١) .

ولم تكتف الشركتان بخطابات الاحتجاج بل إنهما أخذتا تبحثان عن ثغرة النفاذ منها إلى الأراضى السودانية ، وبالفعل أرسلت «شركة أفريقيا الأنجلو — بلجيكية» مندوباً لها هو «المسيو دالزيل H.D. Dalziel» ليحصل على العاج والمطاط من مديرية بحر الغزال ، وبدأ الرجل نشاطه من مركز بلجيكى صغير هو : «بوفى Bufi» ، وذلك دون إذن من حكومة السودان ، ولما وجده رجال هذه الحكومة فى المنطقة أمروه بمغادرتها على الفور(٢) .

ورغم إنصياع «دالزيل» لطلب السلطات السودانية إلا أنه سجل احتجاج شركته على عدم السماح له بممارسة نشاطه التجارى فى المنطقة مما دعا الحكومة البريطانية إلى القيام بتحذير الشركة من العودة لإرسال أى مندوبين تجاريين لها للمديرية السودانية حتى تنتهى المفاوضات الجارية مع دولة الكونغو(٣) .

ورد «السير جريفن Lapel Griffin» رئيس مجلس إدارة الشركة على ذلك التحذير بأنه ليس للامتيازات التى حصلت عليها شركته أى طبيعة سياسية ، وأن

---

(١) Corres, part X, No. 106, Anglo-Belgian Africa Co. and British Tropical Africa Co. to Lansdowne, May 10, 1904.

(٢) Ibid., No. 136, Cromer to Lansdowne, June 15, 1904.

(٣) Ibid., No. 139, Foreign Office to Anglo-Belgian Africa Co., July 1, 1904.

أهدافها تجارية ، وتجارية فقط ، وأعلن أن خسارة فادحة قد نزلت بالشركة نتيجة لإبعاد المسيو دالزيل من بحر الغزال ومنعه من التجارة . وأعرب عن أمله أن يسمح لشركته بحرية التجارة فى بحر الغزال وذلك حتى يتم التوصل إلى اتفاق بين الحكومة البريطانية والملك ليوبولد[1] .

وردت وزارة الخارجية البريطانية على السير جريفن برفض طلبه بالسماح بحرية التجارة فى بحر الغزال حتى يتم التوصل إلى اتفاق مع الملك ليوبولد ، وعادت تكرر تحذيراتها بعدم القيام بمحاولات أخرى شبيهة بتلك التى قام بها دالزيل[2] .

* * *

لا تنتهى محاولات الشركات البريطانية حتى تتناثر قبل نهاية الشهر نفسه — يوليه — الأخبار بقيام البلجيك ببناء خط من التحصينات فى حاجز اللادو وبتطوير الأجهزة الإدارية والقضائية فيه[3] .

ورغم أن السلطات البريطانية فى القاهرة أبدت تشككها فى قيمة هذه الأخبار التى صدرت عن السفارة البريطانية فى بروكسل[4] ، إلا أن الإشاعات عادت تتواتر خلال فبراير من العام التالى — ١٩٠٥ — عن بناء التحصينات فى حاجز اللادو وعلى طول الحدود السودانية[5] .

ولم يمض وقت طويل حتى تأكدت أنباء بعودة البلجيك لاقتحام بحر الغزال عندما أبرق الكولونل هنرى ممثل الحاكم العام فى السودان فى أوائل مارس لكرومر يبلغه عن وجود هؤلاء فى مركز غرب « مريدى » ، وآخر على نهر « الرهل Ruhl » ، وكان مع رجال المركز الأخير أحد مدافع الميدان ، وقد طلب قائد القوة السودانية من قائد المركز الأول الانسحاب بعد أن أوضح له أنه فى أرض سودانية ،

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Sir Lapel Griffin to Foreign Office, July 1, 1904.

(٢) Ibid., Gorst to Sir Lapel Griffin, July 9, 1904.

(٣) Ibid., Phipps to Lansdowne, Aug. 22, 1904, Tel. No. 13.

(٤) Ibid., Findlay to Lansdowne, Sept. 22, 1904, Desp. No. 104.

(٥) Ibid., Phipps to Lansdowne, Feb. 15, 1905, Tel. No. 11.

ولكن هذا رفض تنفيذ ذلك الطلب دون تعليمات من المسيو لميير الذى لم يكن معروفاً مكانه بالضبط ، وذكر أنه مجرد قسم من بعثة ذات طبيعة جغرافية ، ومن ثم لم يكن هناك حل سوى تحذيره بعدم الاستمرار فى التقدم غرباً .

وبدخول قوات « لميير » مرة أخرى إلى الأراضى السودانية تدخل الأزمة فى مرحلتها الثانية — الأكثر حدة — التى وصل فيها الجانبان إلى حافة الصدام فعلا ، وقد بادر كرومر فأرسل إلى لندن يبلغ بهذه الأخبار وحث وزير الخارجية البريطانية على الاحتجاج بشدة لدى بروكسل ، والمطالبة بالإنسحاب من هذه المراكز(١) .

وبناء على مطلب المعتمد البريطانى أرسل اللورد لانسدون تعليماته إلى السفارة البريطانية فى بروكسل بتقديم الاحتجاجات اللازمة ، وطلب انسحاب القوات الكونغولية الموجودة فى بحر الغزال(٢) ، وبالفعل تقدم « السير بوثباى » بالمذكرة المطلوبة وإن كان المسيو دى كوفليه ممثل حكومة الكونغو فى بروكسل قد ذكر أنه لن يمكن البت فى أى إجراء قبل عودة الملك من رحلة كان بها خارج البلاد(٣) .

وعلى أرض النزاع كانت تبذل الجهود لتحقيق انسحاب القوات الكونغولية محلياً ، فقد أرسل قائد المركز السودانى فى « واو » رسالة إلى لميير فى ٣ يناير طلب منه فيها الانسحاب من الأراضى الواقعة تحت الحكم المصرى — الانجليزى ، فرد لميير على ذلك بأن حكومته قد كلفته بالقيام بعمليات المسح فى الأراضى المؤجرة لدولة الكونغو بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ التى لم تلغ أبداً ، وأكد أن جميع المراكز التى أقيمت على طول خط التقسيم بين النيل والكونغو تقع جميعها جنوب خط عرض ٥° شمالا جنوب الحدود الشمالية لحوض الكونغو كما تشير معاهدة برلين(٤).

والواقع أن لميير كان قد أرسل خلال هذا الشهر — يناير — يسأل رؤساءه

---

(١) Corres, part LXIII, No. 49, Cromer to Lansdowne, March 8, 1905.

(٢) Ibid., No. 52, Lansdowne to Boothby, March 9, 1905, Tel. No. 7.

(٣) Ibid., Inc. in No. 62, Boothby to De Cuvelier, March 9, 1905.

(٤) Ibid., No. 66, Cromer to Lansdowne, March 13, 1905, Desp. No. 7.

عما إذا كان سيقاوم فى حالة الهجوم عليه ، وقد أحيل هذا التساؤل لليوبولد شخصياً الذى أجاب عليه بالإيجاب[١] .

وقد رد قائد واو على إجابة ليمير بأنه لا يمكن الاعتراف بأى حدود أخرى سوى تلك التى تتفق مع خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو كحدود جنوبية للسودان .

وأرسل قائد المركز السودانى فحوى هذه الاتصالات لممثل الحاكم العام فى الخرطوم الذى طيرها للمعتمد البريطانى فى القاهرة الذى أرسلها بدوره إلى لندن مع طلب باستمرار الضغط على حكومة الكونغو لتحقيق الانسحاب العاجل[٢] ، وبالفعل عاد ممثل السفير البريطانى فى بروكسل يطالب بالانسحاب السريع للقوات الكونغولية من الأراضى السودانية[٣] .

ولم ينتظر السير بوثباى طويلا ليحصل على رد الحكومة الكونغولية الذى كشف عن خطتها ، فقد جاء فى هذا الرد أن المسيو ليمير قد أقام مراكزه فى نطاق الحقوق الممنوحة بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ ، ورغم ذلك فإنها مجرد مراكز مسح جغرافى وليس لها أى أهمية سياسية ، كما أشار إلى أن هذه المراكز جنوب خط عرض ٥° شمالا ، وفى الختام أكدت المذكرة الاستعداد الكونغولى للمفاوضة وإما الوساطة طبقاً للمادة ١٢ من ميثاق برلين[٤] .

وأحس ليوبولد أنه قد حاصر بذلك الحكومة البريطانية بين العودة للمفاوضة والرضوخ لشروطه ، أو التحكيم وهو ما نجحت هذه الحكومة من تجنبه خلال الرحلة السابقة ، وبالفعل أرسل لانسدون إلى كرومر يستشيره فى إمكان قبول هذا الحل المقترح بالوساطة[٥] ، وإن لم يمنع هذا استمرار الاتصال بالسلطات

---

(١) Sanderson, G.N., op. cit., p. 63.

(٢) Corres, prat LXIII, No. 66, Cromer to Lansdowne, March 13, 1905, Desp. No. 7.

(٣) Ibid., No. 69, Lansdowne to Boothby, March 14, 1905, Tel. No. 9.

(٤) Ibid., Inc. in No. 160, Boothby to Lansdowne, March 16, 1905, Desp. No. 30.

(٥) Ibid., No. 73, Lansdowne to Cromer, March 17, 1905, Tel. No. 15.

الكونغولية ومحاولة إقناعها بالانسحاب ، وقد ألتقى السير بوثباى فعلا بالمسيو دى كوفيليه وعاد لتذكيره بحقوق مصر المنصوص عليها فى ملاحق معاهدة فى ١٨٩٤ ، وإن ما تفعله بريطانيا ليس إلا تنفيذاً لما جاء فى هذه الملاحق(١).

وفى الوقت الذى كان كرومر يعد فيه رده على لانسدون بشأن قبول الوساطة أو التحكيم فى الأزمة ، والذى تضمن الرفض الكامل لهذه الفكرة كانت الأحداث تجرى على أرض المنطقة محل النزاع بسرعة أكبر من تلك التى تجرى بها فى نطاق الاتصالات الديبلوماسية إذ نجح لمير فى تأسيس مراكز ثلاثة أخرى على نهر « سوى Sueh » اكتشفها « الميجور بولنوا » قائد الحملة التى كانت قد أرسلتها حكومة السودان لمنطقة يمبيو ، وهى من الحملات الدورية التى ظلت سلطات الخرطوم ترسلها إلى تلك الجهات الجنوبية بهدف بسط سلطانها عليها وإقامة مراكز حكومية فيها .

وقد رأى المعتمد البريطانى فى القاهرة أن وجود البلجيك فى تلك الجهات سيؤدى إلى إضعاف نفوذ حكومة السودان فيها ، كما سيعرقل تنظيم إداراتها ، وعبر عن رأيه بضرورة استمرار الضغط الديبلوماسى على حكومة الكونغو دون اللجوء إلى التحكيم(٢).

وحتى تنتهى الاتصالات الديبلوماسية بين لندن وبروكسل خطت السلطات المحلية السودانية خطوة هامة بأن تقدم بولنوا للقاء لمير مطالباً بالانسحاب فرد عليه الأخير بنفس الحجج المتعلقة بمعاهدة ١٨٩٤ ، وادعى أنه قد تقدم خلال عام ١٩٠٢ فى بحر الغزال حتى خط عرض ٣٠َ ٦° ولما أوقف تراجع إلى جنوب خط عرض ٥° شمالا ، أى فى المنطقة الخاضعة لمعاهدة برلين ، على أساس أن حقوق دولة الكونغو فيها مما لايقبل الجدل ، وطلب من مدير بحر الغزال العودة إلى المواد من ١–١٢ من المعاهدة المذكورة .

وأكد أنه لايستطيع التراجع دون أوامر من حكومته ، وذكر أن التعليمات التى

---

(١) Corres, Part LXIII, No. 72, Boothby to Lansdowne, March 17, 1905, Desp. No. 31.

(٢) Ibid., No. 76, Cromer to Lansdowne, March 20, 1905, Desp. No. 31.

جاءته من بروكسل تضمنت تكليفه بالقيام بهذا العمل ، وإن كافة ما قام به قوبل بالموافقة التامة فى العاصمة البلجيكية ، ومن ثم فهو يعتبر نفسه الممثل المحلى لحكومة الكونغو[١] .

ولما اتضح إصرار البلجيك على البقاء عمل « بولنوا » على تجميد الموقف « باتفاقية تعايش Modus Vivendi » وقعها مع ليمير ، وتتكون من ثلاث نقاط رئيسية :

١ — أن يستمر الوضع القائم كما هو .

٢ — أن تدير حكومة السودان الأراضى المتنازع عليها .

٣ — أن تحتفظ بعثة ليمير بمراكزها لأهداف علمية فقط .

وعندما أبلغ كرومر لندن بهذه التطورات أرفق بها رأى الحاكم العام الذى طالب بالوصول إلى اتفاق سلمى بأسرع ما يمكن وإلا قد ينتج من استمرار الموقف على ما هو عليه خطر فقدان الرجال والمال إذ سيكون مضطراً للاحتفاظ بقوة تتراوح بين ٦٠٠ ، ٧٠٠ رجل فى بلاد غير صحية فى فصل المطر .

أما كرومر نفسه فقد رأى أن البلجيك سوف يذعنون فى النهاية إذا ما استمرت الحكومة البريطانية فى ضغطها الديبلوماسى عليهم دون اللجوء إلى الوساطة وأعرب عن ثقته الكاملة بأن البلجيك لن يحاولوا مزيداً من التقدم[٢] .

والواقع أنه كان لهذه الثقة مبررها خاصة بعد أن أرسل ممثل القنصل البريطانى فى بوما « المستر نيتنجيل » يذكر أن الأخبار قد وصلت إليه بما يفيد أن عملية بناء التحصينات على طول حدود الكونغو الشرقية والشمالية الشرقية قد توقفت[٣] .

* * *

(١) Corres, Part LXIII, No. 94, Cromer to Lansdowne, April 4, 1905, Tel. No. 36.

(٢) Ibid., Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, April 21, 1905, Desp. No. 41.

(٣) Ibid., Inc. in No. 160, Nightingale to Lansdowne, March 6, 1905.

وفى أواخر مارس كان كرومر مشغولا بكتابة مذكرة طويلة قلب فيها الموقف على مختلف جوانبه ، وكانت أهم المشاكل التى عالجها فى المذكرة :

١ — مسألة المراكز البلجيكية التى أقيمت فى بحر الغزال .

٢ — الاقتراح الذى كان قد تقدم به المستر «دورمان Dorman» فى ٧ مارس بإنشاء شركة باسم « شركة ملاحة تطوير أعالى النيل The Upper Nile Navigation and Development Co. » يساهم فيها ملك البلجيك لتدير الملاحة فى أعالى النيل على أن يكون لها منفذ على النيل ومراكز تجارية فيه(١).

وقد رأى المعتمد البريطانى أن المشكلتين مرتبطتان فقد استهدف البلجيك من تقديم الاقتراح الأخير :

(ا) الحصول على تسهيلات تجارية .

(ب) إعادة فتح باب المفاوضات الذى كان قد أغلق فى العام السابق .

(ج) استعمال « التحكيم » بشأن الإدعاءات الكونغولية على الأراضى الواقعة جنوب خط عرض ٥° شمالا بهدف إثارة مسألة كل الأراضى المؤجرة بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ .

* * *

وقد استرسل كرومر فى بحث النقطة الأولى المتعلقة بإقامة المسيو ليمير للمراكز الكونغولية فى الأراضى السودانية ، وقد اختلف فى رأيه مع تأكيدات ليمير بأن بعثته « جماعة كشفية ذات طبيعة علمية » ، ورأى أنها حملة عسكرية على قدر من القوة والأهمية ، وأن قائدها قد اختار مراكزه بعناية فائقة .

وخرج المعتمد البريطانى فى القاهرة من ذلك بأن الحملة بهذه الصورة تصبح عملا سياسياً واضحاً لا سيما أن وجودها فى الأراضى السودانية قد أدى إلى معارك

---

(١) Corres, part LXIII, Dorman to Foreign Office, March 7, 1905.

خطيرة مع القبائل التى تعيش فيها .. هذا من ناحية .. وإلى تفتيت ولاء هذه القبائل من ناحية أخرى مما أدى إلى نشوء صعوبات بالغة نحو إقامة المراكز الحكومية فى مناطق « النيام نيام » والتى بدت سهلة إلى حد كبير بعد وفاة « يمبيو » زعيم تلك القبائل .

وبعد أن حدد كرومر طبيعة الوجود الكونغولى السياسية فى بحر الغزال ذكر أن المسيو دى كوفيليه والمسيو ليمير يعتمدان فى تبرير شرعية هذا الوجود على :

١ — معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ .

٢ — الميثاق العام لماهدة برلين ١٨٨٤ .

ولما كانت المسألة الأولى قد أشبعت بحثاً فقد انتقل رأساً إلى المسألة الثانية ، فذكر أن البند الذى يعتمدون عليه فى الميثاق العام لماهدة برلين يتعلق بحرية التجارة التى كفلت بمقتضاه فى الأراضى الواسعة التى تشغلها الدولة الحرة ، ولكن حكومة الكونغو نفسها قد تجاهلت هذا البند حين احتكرت تجارة المطاط ثم غيره من فروع التجارة الأخرى ، وعلى ذلك فلا يمكن لهذه الحكومة أن تتمتع بمزايا المادة الثانية عشر من الميثاق الذكور ، وإجبار البريطانيين على قبول الوساطة .

وبعد تفنيد حق الكونغو فى اللجوء إلى الوساطة أو التحكيم دمغ المعتمد البريطانى الوجود الكونغولى فى بحر الغزال بأنه « وجود عدوانى » إذ أنه تمثل فى « حمله عسكرية بنت القلاع وقتلت ثلاثمائة من الأهالى ممن تحت إدارة حكومة السودان » ، وخرج من ذلك بأن هذا الوجود يمثل « حالة حرب » .

وبناء على ذلك فقد رأى كرومر إمكان التخلص من ليمير بتجميع القوات السودانية بقيادة « الميجور بولنوا » فى الأراضى المجاورة لمراكزه وتحذيره ، وإن لم يتم انسحابه فى يوم معين فسوف يتم إجباره على ذلك بالقوة ، وإن رأى عدم ضرورة القيام بهذا العمل قبل سبر غور حقيقة تلك التحركات الأخيرة من جانب ليوبولد .

* * *

وانتقل المعتمد البريطانى بعد ذلك إلى بحث النقطة الثانية المتعلقة بالتسهيلات التجارية المطلوبة متمثلة فى الامتياز المقترح لاعداد أعالى النيل الملاحة ، وذكر أنه بعد أن بحث « السير وليم جارستين » مستشار وزارة الأشغال المصرية هذا الموضوع حذر من أن تقوم أى سلطة غير الحكومة المصرية بأعمال يستهدف منها السيطرة على مجرى النيل بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

ورغم موافقة كرومر على آراء السير جارستين إلا أنه أعلن إمكان تقديم تسهيلات تجارية لملك البلجيك لنقل بضائع الكونغو وحاجز اللادو عن طريق النيل وذلك بوساطة المفاوضات ، ولكنه اشترط قبل عودة فتح باب المفاوضات شرطين :

١ — الانسحاب من المراكز التى أقامها ليبر فى الأراضى السودانية .

٢ — أن يصدرملك البلجيك التأكيدات اللازمة بأنه لن يعود لمثل ذلك العمل مستقبلا .

وختم مذكرته التى وصلت لندن فى ١٨ ابريل بأنه فى حالة عدم قبول الملك لمثل هذه الشروط فإنه بالإمكان تجويع مراكز ليبر بقطع الأغذية عنها[1] . وكانت هذه بداية التفكير فى سياسة الحصار التى اتبعت بالفعل بعد ذلك .

* * *

ولما كان كرومرقد طرح جانباً فكرة الصدام العسكرى — لوقت على الأقل — فقد وافق على اقتراح مدير بحرالغزال بانسحاب القوات السودانية من المراكزالواقعة فى المنطقة محل النزاع حيث لم تبق هـذه القوات إلا فى مركزين هما مريدى وتمبورا[2] .

فى نفس الوقت — وبناء على نفس المذكرة — تم إبلاغ « المستر دورمان » أن وزارة الخارجية تعتبر مشروعه غير عملى ، وان من رأى الحكومة المصرية أن

(١) Corres, Part LXIII, No. 95, Cromer to Lansdowne, March 26, 1905, Desp. No. 32.

(٢) Ibid., Inc. in No. 160, Cromer to Lansdowne, April 15, 1905, Tel. No. 42.

كافة المشاريع التى تتحكم فى مياه النيل بصورة مباشرة أو غير مباشرة يجب أن تبقى فى أيديها(١) .

وفى تلك الأثناء كانت بروكسل قد ردت على المذكرات البريطانية المتلاحقة عليها بمذكرتين مؤرختين فى ١٦ ، ١٧ ابريل ١٩٠٥ ، وكان قوام هاتين المذكرتين أن الحكومة الكونغولية تبرر أعمال المسيو ليمير بأن المراكز التى أقامها إنما فى أراضى مؤجرة لدولة الكونغو بمقتضى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ ، وقد تجاهلتا تماماً مسألة الحقوق المصرية فى تلك الأراضى .

وعادت الحكومة البريطانية ترد على المذكرات الكونغولية مؤكدة :

١ — حقيقة أن حكومة الكونغو قد حصلت بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ على حقوق معينة فى الأراضى محل التنازع ولكن أغلب هذه الأراضى تخلت عنها الكونغو بمحض إرادتها فى معاهدة أغسطس من نفس العام مع الفرنسيين .

٢ — أن الحكومة البريطانية قد حفظت حقوق مصر بمذكرات متبادلة وقت توقيع المعاهدة ، وأن هذه الحقوق قد عادت لكامل قوتها بعد استعادة السودان ، وأن الحكومة المصرية متمسكة بكافة هذه الحقوق(٢) .

وفى ٢٥ ابريل أبرق اللورد لانسدون إلى السفير البريطانى فى بروكسل يبلغه بمقترحات اللورد كرومر بفتح طريق التجارة بين النيل والكونغو وبضمانات بتسهيلات تجارية خاصة لدولة الكونغو فى أعالى النيل(٣) .

ولم يعرض السفير البريطانى هذه المقترحات الجديدة على المسيو كوفليه عندما قابله بعد ذلك بيومين — ٢٧ ابريل — إذ أنه خرج من هذه المقابلة بانطباع هام وهو أنه لا جدوى من المقابلات والاحتجاجات طالما أن الملك والمسيو فان اتفيلد

---

(١) Corres, part LXIII, No. 110, Foreign Office to Mr. Dorman, April 25, 1905.

(٢) Ibid., No. 108, Lansdowne to Phipps, April 25, 1905, Desp. No. 30.

(٣) Ibid., Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, April 25, 1905, Tel. No. 41.

متغيبان عن العاصمة ، ذلك أن المسيو كوفليه أخذ يكرر نفس الحجج القديمة ، ولما ذكره فيبس بوعوده التى قطعها فى العام السابق عن انسحاب حملة ليمير أجاب بأنه لم يذكر مسألة الانسحاب وإنما التراجع إلى الجنوب وهو ما تم بالفعل إذا انسحبت هذه الحملة إلى جنوب خط عرض ٥° شمالا .

وعلى ذلك رأى السفير أنه ليس من فائدة من مباحثة المسيودى كوفيليه وطالب بالانتظار إلى أن يأتى رد الملك — الذى كان فى زيارة لأسبانيا وقتذاك — على مذكرة اللورد لانسدون المؤرخة فى ٢٥ أبريل[١] .

* * *

كان على الجانب البريطانى أن ينتظر حتى قرب منتصف مايو حين عاد الملك وفان اتفيلد من مدريد ، وقد تمكن فيبس من مقابلة الأخير فور عودته فأكد له هذا رغبة الملك فى الاتفاق وإمكان إعادة فتح باب المفاوضات الخاصة بتقسيم الأراضى مرة أخرى . وقد بادر السير فيبس بتذكير الوزير البلجيكى بأن الاقتراحات البريطانية المتعلقة بتقسيم الأراضى قد سُحبت وأن جانباً كبيراً من أعضاء البرلمان البريطانى يعارض بعنف تأجير أى جزء لدولة الكونغو .

ورد فان اتفيلد على ذلك بأن لوح بنية الملك على اتخاذ الخطوات اللازمة لمنع استعادة مصر لحاجز اللادو عند وفاته وأنه إذا ما تم اتفاق قبل اتخاذ هذه الخطوات فإن ذلك سيكون من صالح مصر وبريطانيا . واستطرد أن بريطانيا قد اعترضت على «التحكيم» بينما يوافق الملك على أى حكم يعينه البريطانيون «حتى ولو كان الميكادو»[٢] ! وأضاف أخيراً أنه من أشد المدافعين عن تسليم الكونغو لبلجيكا ، ولكن قبل أن يتم ذلك فلا بد من حل المشاكل التى ترتبت على معاهدة ١٨٩٤ .

وكان رأى سير فيبس فى كل ذلك أنه لا يمكن الإبقاء على الضمان الذى منح قبل ذلك لخط حديدى فيما كان يشكل الأراضى الكنغولية حتى ذلك الوقت ، كما أكد أنه يجب أن تبقى مياه النيل تحت السيطرة الأنجلو مصرية . وحث السفير البريطانى المسيو فان اتفيلد على تقديم اقتراحات عملية لحل المشكلة[٢] .

(١) Corres, Part LXIII, No. 114, Phipps to Lansdowne, April 27, 1905, Desp. No. 41.

(٢) Ibid., No. 116, Phipps to Lansdowne, May 12, 1905, Desp. No. 47.

وفى ٢٥ مايو ردت الحكومة الكونغولية على مذكرة وزير الخارجية البريطانية المؤرخة فى ٢٥ أبريل — وكان الرد على صورة مذكرة شفوية قرأها المسيو دى كوفليه على السفير البريطانى فى بروكسل، وقد عادت السلطات الكونغولية تؤكد فعالية معاهدة ١٨٩٤ وأعلنت أن انسحاب ليمبر — كما طلب البريطانيون — يعنى الاعتراف من جانب الكونغو بأن لاحق لها فى بحر الغزال. وأضافت المذكرة أن الكونغو مستعد للتعاون مع الحكومة البريطانية فى سبيل إدخال أى تعديلات على معاهدة سنة ١٨٩٤. وهدد البلجيكيون فى النهاية بأنه إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق من هذا النوع فإن دولة الكونغو ستعتبر أن حقوقها السياسية فى حوض النيل لا زالت قائمة وستبادر إلى استعمال هذه الحقوق إذا لزم الأمر(١).

وقد بادر السير فيبس فى أعقاب تلقى هذه المذكرة الكونغولية إلى الاجتماع بالبارون فان اتفيلد فى نفس اليوم — ٢٥ مايو —، وفى هذا اللقاء أعرب الأخير عن آرائه فى أسباب الصدام بين الحكومتين: فان بريطانيا تعتبر أن تأجير الحاجز للملك لمدى الحياة أمراً لا زال قائماً، أما الأراضى الأخرى المؤجرة نهائياً فقد أبطل تأجيرها نتيجة للمعاهدة الفرنسية — الكونغولية ونتيجة لاستعادة مصر للسودان.

أما الملك فيرى أن الأراضى المؤجرة بنوعيها لا زال تأجيرها سارياً، وأنه إذا تجاهلت بريطانيا التأجير الدائم لبعض الأراضى فان الملك بدوره سيتجاهل التأجير المؤقت للأراضى الأخرى فى حوزته — حاجز اللادو — ويضمها نهائياً إلى الكونغو متذرعاً بحق احتلال تلك الأراضى السابق على معاهدة ١٨٩٤.

وكان رد السير فيبس أن الحكومة البريطانية مصممة على جلاء قوات الكونغو عن بحر الغزال وألمح إلى أن خليفة ليوبولد لن يسعده كثيراً أن يبدأ عهده بصدام مع بريطانيا.

وأجاب فان اتفليد على ذلك بأن تملك بلجيكا للأراضى الكونغولية سيعتمد أساساً على التزام خليفة الملك ليوبولد بالشروط التى يضعها هذا الملك، لأنه إذا لم تنفذ تلك الشروط فان فرنسا ستعمل على إحياء حقها بتملك تلك الجهات « بالشفعة ».

---

(١) Corres, Part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, May 22, 1905.

وأضاف أنه ربما يكون من الأفضل لبريطانيا أن تتعامل مع فرنسا بدلا من الـكونغو في تلك الأيام ولـكن هذا سوف يعتمد على الظروف السياسية العامة فى أوربا خلال الأعوام المقبلة وإن كانت بلجيكا سوف تنفض يدها من الأمر .

وخرج الوزير الـكونغولى من ذلك إلى اقتراح وهو أن الملك مستعد أن يضحى بأى اعتبارات أخرى إذا ما تملك منفذاً دائماً على النيل ، وإنه فى هذه الحالة فقط على استعداد للجلاء حتى عن الحاجز .

ولـكن السير فيبس ذكره أن حكومته ستبقى على اعتراضها لتملك دائم لأى قوة أجنبية لمناطق على النيل ، وإن بريطانيا لا تقدم ألا مركزاً تجارياً عند نهاية الخط الحديدى المقترح كمنفذ للتجارة الـكونغولية[1] .

* * *

كان قد مضى أكثر من سبعة شهور على عودة دخول القوات الـكونغولية إلى أراضى بحر الغزال (أكتوبر ١٩٠٤ — يونيه ١٩٠٥) ولم يحقق هذا العمل مبتغاه باجبار البريطانين على قبول التحكيم أو بحدوث صدام محدود تكون نتيجته التحكيم أيضاً . ونتيجة لأن « احتلال » الأراضى السودانية الواقعة جنوبى خط عرض ٥ شمالا لم يؤد إلى ما استهدفه ليوبولد فقد كان عليه أن يخطو خطوة أخرى فى تلك الجهات قد تؤدى إلى النتيجة المرغوبة ، وتمثلت هذه الخطوة فى قرار باقامة « إدارة » كونغولية فى المنطقة .

ففى ١٢ يونيه عام ١٩٠٥ اتخذ الملك ليوبولد خطوة خطيرة نحو تصعيد النزاع البريطانى — الـكونغولى باصداره « مرسوم إمز » وقد جاء فى هذا المرسوم :

« أنه بالنظر إلى حقوق دولة الـكونغو على مراكز معينة فى حوض النيل كنتيجة لاحتلالها لها وللمعاهدات التى أبرمتها مع رؤساء تلك البلاد فانه ينطبق عليها نفس الأوضاع الإدارية القائمة فى مناطق حوض الـكونغو حتى يتم تنفيذ كل شروط

(١) Corres, Part LXIII, No. 119, Phipps to Lansdowne, May 20, 1905, Desp. No. 50.

معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ ، وعلى ذلك وبناء على اقتراح وزيرنا المختص أصدرنا المرسوم الآتى :

« مادة (١) : تلحق الأراضى التى تحتلها الدولة فى حوض النيل جنوب خط عرض ٥° شمالا بناحية الأويل .

« مادة (٢) : تطبق مراسيم وتنظيمات وقوانين الدولة عليها .

« مادة (٣) : على وزيرنا المختص تنفيذ هذا المرسوم »(١) .

وما أن وصلت أخبار هذا المرسوم إلى لندن حتى بادر وزير الخارجية البريطانية باصدار تعليماته للسير فيبس ليستعلم من حكومة الكونغو عما إذا كان « مرسوم أمز » ينطبق على المنطقة التى أسس فيها ليمير مراكزه فى بحر الغزال أخيراً والتى تعتبر قسما من السودان(٢) . وما أن جاء الرد بالإيجاب حتى أرسل لانسدون مذكرة عنيفة إلى بروكسل يحذر فيها حكومة الكونغو بأنه إذا لم تنسحب من هذه المراكز وتلغى هذا المرسوم فعليها أن تتحمل كافة العواقب(٣) .

وإذا انتقلنا إلى حلبة الصراع نجد أن نشر مرسوم إمز قد أدى إلى نقض كامل « لإتفاقية التعايش » التى كان قد تم التوصل إليها بين الميجور بولنوا وليمير كما كان من المفهوم أنه إذا حاول الكونغوليون تنفيذ هذا المرسوم لنتج عن ذلك موقف خطير لا يمكن معه تجنب الصدام .

وقد طرحت عدة اقتراحات لمواجهة هذا التحدى من جانب الملك ليوبولد تراوحت بين اقتراح « السير رنيل رود Rodd » بالتهديد بسحب الاعتراف البريطانى بحياد بلجيكا وبين اقتراح « المستر فندلى » ممثل المعتمد البرايطانى فى القاهرة الذى رأى تجاهل المرسوم بعد تقديم احتجاج مناسب ضده(٤) .

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Phipps to Lansdowne, June 12, 1905, Desp. No. 58.

(٢) Ibid., No. 129, Lansdowne to Phipps, June 28, 1905, Tel. No. 54.

(٣) Ibid., Inc. in No. 160, Lansdowne to Phipps, July 8, 1905, Tel. No. 58.

(٤) Ibid., No. 131, Findlay to Lansdowne, July 7, 1905, Tel. No. 60.

وقد اتبعت النصيحة الأخيرة إذ أرسلت التعليمات إلى قائد القوة السودانية المرابطة فى الأراضى محل النزاع بأن « اتفاقية التعايش » لا زالت سارية وأن الحكومة البريطانية لا تعترف بالمرسوم الجديد(١) .

ويعود هذا الموقف الذى وقفه لانسدون وحكومة السودان إلى القرار الذى اتخذته الوزارة البريطانية فى نفس الشهر — يوليه — بعدم تسليم حكومة الكونغو لأى أراضى تقطنها شعوب تحت الحماية البريطانية ، كما قررت الوزارة مقاومة أى محاولة من ليوبولد — بالقوة إذا لزم الأمر — لتنفيذ شروط هذا المرسوم .

* * *

نتج عن مرسوم إمز وإصرار الحكومة البريطانيـة على مقاومة تنفيذه أن تزايدت احتمالات الصدام إلى حد كبير ، وعلى ذلك فقد بدأت على الفور الاتصالات بين لندن والقاهرة والخرطوم للاستعداد لهذه الاحتمالات .

وفى أول هذه الاتصالات التى تمت فى ٢٢ يوليه ١٩٠٥ بين المعتمد البريطانى فى القاهرة وحاكم عام السودان طرح الأول عدة أسئلة . . فقد قدم كرومر أسئلة ثلاثة محددة لوينجت على النحو التالى :

— هل الجيش المصرى قادر على مواجهة القوات التى يستطيع البلجيك استحضارها ؟

— هل من الضرورى إبعاد البلجيك عن المراكز التى كانوا يحتلونها وقتذاك ؟ وبأى الوسائل ؟

— إذا ما كان هذا ضرورياً فما هى الأوامر التى يمكن أن تصدر إلى قائد بحر الغزال لوضعها فى حيز التنفيذ ؟

وبعد توجيه الأسئلة طرح المعتمد البريطانى احتمالين للتنفيذ :

الأول : تحذير القائد البلجيكى بأن أى تقدم منه سوف يمنع بالقوة كما يرسل هذا التحذير إلى حكومة بروكسل .

---

(١) Corres, part LXIII, Inc. in No. 160, Findlay to Lansdowne, July 8, 1905, Tel. No. 61.

الثانى : أنه فى حالة أى تقدم بلجيكى يطلب قائد القوة السودانية منه منع هذا التقدم ، فإذا لم يقبل يجبره على التراجع على أن تكون قواته قادرة على ذلك[١] .

وقبل أن يمضى وقت طويل وصلت ردود وينجت على الأسئلة التى طرحها كرومر فى مذكرة طويلة .

بدأ حاكم عام السودان مذكرته باستعراض الموقف الذى تسبب عنه نشر « مرسوم إمز » والذى قلب رأساً على عقب « اتفاقية التعايش » التى كان قد تم إبرامها بين بولنوا وليمير .

ثم عين مواقع المراكز الخمسة التى يحتلها البلجيك وهى « إير » و « مريدى » و « مانجى » و « مويارا » ومركز على نهر « هو » . وقدر عدد الرجال المعسكرين فى تلك المراكز بخمسمائة رجل ولكن يمكن زيادة أعدادهم بسهولة من ى وبانجو . وقدر القوات الموجودة فى الحاجز بما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف رجل مبعثرين على طول وعرض الحاجز .

أما الحامية السودانية فقد كانت تتكون من قوة موزعة على مراكز متعددة هى « تمبورا و « مريدى » و « شامبى » و « رومبك » و « تونج » و « ديم الزبير » و « واو » و « مشرع الرق » ومن ثم كانت هذه القوة أضعف من البلجيك نتيجة لذلك التوزيع ، ويشكل الجلاء عن أى مركز من هذه المراكز بهدف « المركزة » خطورة شديدة إذا لم تقم قوات أخرى على الفور بالحلول محل القوات التى تم الجلاء عنها . وقد طالب بعدم توجيه أى إنذار الملك ليوبولد قبل استكمال الاستعدادات العسكرية اللازمة لتنفيذ هذا الإنذار .

وإجابة على الأسئلة الثلاثة التى طرحها كرومر كانت ردود وينجت على النحو التالى :

١ — إن اللوءات السودانية الخمسة مع قدر مناسب من المدفعية تستطيع أن تواجه بسهولة القوات البلجيكية التى يمكن أن ترسل إلى مناطق النزاع ، ولكن ذلك سيؤدى إلى ترك المراكز النهرية دون حراسة ، ويمكن مواجهة ذلك بستة سفن

(١) Corres, Part LXIII, No. 135, Cromer to Wingate, June 22, 1905.

نهرية مسلحة مع لوائين من المشاة وبطارية من المدفعية البريطانيين من الخرطوم ، والمراكز الأخرى التي ستجلو عنهـا القوات السودانية في طول وعرض البلاد يمكن أن يحل المصريون مكانهم فيها وذلك باستدعاء لواءين مصريين من الاحتياط . كما أنه من الضروري استحضار لواء بريطاني ليحل محل اللواءين اللذين سيتركان الخرطوم .

٢ — إذا ما صمم البلجيك على تنفيذ المرسوم فليس هناك حل سوى مقاومتهم ، وسوف يقوم الحاكم الإداري للمنطقة السودانية بابلاغ السلطات الكونغولية المحلية أن الحكومة البريطانية لن تسمح بادارتها للمنطقة ، وإذا لم تتم الاستجابة لهذا الطلب يحذرهم بأنه سيتخذ الإجراءات اللازمة لإجلائهم عن مراكزهم العسكرية التي يعتمدون في إدارتهم عليها . وأضاف وينجت أنه بالرغم من أن من المعلوم تماماً أن الملك لا يرغب في الصدام إلا أنه سيكون من الغبـاء توجيه أي إنذار دون وجود القوة اللازمة لتنفيذه ومن ثم فلابد من التريث في توجيه الإنذار النهائي حتى تكون القوات المصرية في وضع يمكنها من تنفيذه .

٣ — أعرب السير وينجت عن اعتقاده بأن البلجيك لن يتقدموا إلى المناطق الواقعة شمالي خط عرض ٥° شمالا إلا إذا كانوا راغبين في إثارة مسألة الأراضي المؤجرة لهم بمقتضى معاهدة ١٨٩٤ برمتها . وعندئذ يواجه الموقف العسكري على الصورة التي أشار إليها من قبل[١] .

* * *

وبعد تمحيص الموقف من جانب القاهرة والخرطوم في تلك الاتصالات أصدرت لندن أوامرها التي أبلغت للسلطات المحلية في بحر الغزال بأنه طالما أن القوة السودانية الموجودة في المنطقة لا تستطيع بوضعها القائم أن تقاوم التقدم البلجيكي إذا حدث فعلى قائدها أن يحتج فحسب ولا يقاوم بل ويبقى في وضع دفاعي ويظل على احتلاله للمراكز التي يسيطر عليها فعلا[٢] .

---

(١) Corres, Part LXIII, No. 138, Wingate to Cromer, July 29, 1905.

(٢) Ibid., No. 141, Lansdowne to Findlay, July 31, 1905, Tel. No. 38.

ولكن فى هذه الأثناء كان « فندلى » ممثل المعتمد البريطانى فى القاهرة يعد تقريراً طويلا عن إمكانيات حل القضية على ضوء الآراء التى أبدتها فى هذا الوقت إدارتا المخابرات المصرية والسودانية .

وقد رأى فندلى أن هناك طريقاً من أربعة يمكن أن تسلكه الحكومة البريطانية :

١ — أن تصمم على الإبقاء على الحقوق المصرية كاملة على النيل وفروعه .

٢ — أن تعدل من هذه الحقوق بأن تصبح على النيل وفروعه التى تؤثر فى إمداد مصر بالمياه .

٣ — ونتيجة لذلك فان آراء بعض الخبراء أن أنهار بحر الغزال لا تؤثر كثيراً فى إمداد النيل بمياه ذات قيمة ، وبناء على ذلك يمكن الاتفاق مع البلجيك على منحهم الأرض التى يرغبونها فى تلك المنطقة فى مقابل موافقتهم على تسليم حاجز اللادو للسودان بعد وفاة الملك ليوبولد .

٤ — منح دولة الكونغو منطقة عبور حرة لنقل بضائعها إلى النيل على شرط الجلاء فوراً عن المناطق محل النزاع وأن يصدر الملك ليوبولد تأكيدات مرضية بأن حاجز اللادو سيعاد إلى السودان عند وفاته .

وبعد أن حدد « فندلى » هذه الحلول بدأ فى تحليل قيمة كل منها ، فبالنسبة للحل الأول رأى أنه يتميز بالوضوح وقد وافق عليه الفرنسيون من قبل ، وسوف ينتج عن هذا الحل حدود جغرافية واضحة يسهل تحديدها ، كما أن هذه الحدود ستكون ذات قيمة استراتيجية كبيرة بالنسبة للحاجز . ولكن هناك الجانب السيىء من هذا الحل إذ سيؤدى إلى استمرار احتلال بحر الغزال بما يتضمنه من احتمالات الصدام والمتاعب الصحية . وإن كان قد تحفظ فى مسألة الصدام ورأى أن كل ما يفعله الملك وموظفوه لا يدل على الرغبة فيه اللهم إلا إذا كان الألمان وراء صدور « مرسوم إمز » . وبالنسبة للمصاعب الصحية فقد رأى احتمالات تناقص نسبة الوفيات بتحسين ظروف الحياة والسكن والخدمات .

أما بالنسبة للحلين الثانى والثالث فهما يفتقدان الوضوح الذى تميز به الحل الأول ولكن الخبراء يحبذونه إذ أنه سينهى الصراع مع البلجيك كما سيمكن من

التخلص من إدارة بحر الغزال الكافة ، ولكن هناك الجانب الآخر من هذا الحل وهو أن فرنسا قد تعيد فتح طريقها نحو وادى النيل والذى تحولت عنه ١٨٩٨ إذ أنه سيمنح ادعاءاتها على بحر الغزال قوة كبيرة . بل الأخطر من ذلك أن الجيران الآخرين سيطمعون فى فروع النيل الأخرى القريبة من حدودهم ما دام هـذا الباب قد فتح . يضاف إلى كل ذلك ما سيتسبب فيه هذا الحل من ضياع هيبة الحكومة بين قبائل تلك الجهات .

أما بالنسبة للحل الأخير فان الاعتراض الوحيد الذى يمكن أن يثار ضده أنه قد تم رفضه من قبل .

ومن الحلول السياسية المختلفة للأزمة انتقل « فندلى » إلى اقتراحات الحلول العسكرية ورأى أن هناك أحد طريقين فاما طرد البلجيك بالقوة أو بالتهديد باستعمال القوة ، أو باتباع السياسة السلبية نحو البلجيك طالما أنهم لم يحاولوا التقدم مع اتباع سياسة « المقاطعة الاقتصادية » فى نفس الوقت ضد دولة الكونغو من جانب السودان وأوغندة لإجبار ليوبولد على قبول حل معقول .

والحل الأول سريع ومضمون واحتمالات استعمال القوة فيه ضعيفة ، أما الحل الثانى فسيستغرق وقتاً طويلا ويكلف غالياً سواء فى المال أو الرجال(١) .

ورغم ذلك فقد تبنى اللورد كرومر الحل الثانى « بالمقاطعة الاقتصادية » وأرسل فى ٢٠ أكتوبر إلى لندن يدعو حكومته إلى « إبلاغ حكومة الكونغو بأن طريق النيل سيغلق أمام كل بضائعها وخطاباتها وبرقياتهـا حتى تنسحب من المراكز التى تحتلها فى الأراضى المتنازع عليها » ، وأضاف كرومر أن كمية البضائع الكونغولية التى يتم تصديرها واستيرادها عن طريق النيل تتزايد بسرعة ، « فتكاليف نقل المطاط عن طريق الأطلنطى أكثر ست مرات من تكاليف نقله عن طريق النيل ، يضاف إلى ذلك أنه إذا ما تم تصدير مطاط الكونغو الفرنسى عن طريق النيل فيمكن وصوله إلى الأسواق بنصف ثمن المطاط المصدر عن طريق الكونغو .

---

(١) Corres, Part LXIII, Inc. in No. 160, Findlay to Lansdowne, July 31, 1905, Desp. No. 76.

« ولما كانت دولة الكونغو الحرة تعتمد تماماً فى دخلها على المطاط سوف يكون لهذا الضغط أثره الكبير عليها مما سيؤدى بحكامها إلى إعادة النظر فيما يتعلق بسياستهم نحو الأراضى المتنازع عليها »(١) .

وبعد أن تمت دراسة الموضوع من كافة جوانبه وأبدى « مدير البوستة المصرية » رأيه بأنه ليس ثمة خرق لأى اتفاق مع « اتحاد البريد » برفض تسليم الخطابات إلى المراكز الكونغولية(٢) وافقت وزارة الخارجية البريطانية على هذا النوع من العمل وأرسلت التعليمات إلى وينجت بمنع وصول أى خطابات إلى المراكز البلچيكية عن طريق النيل حتى تجلو قوات لبير تماماً عن الأراضى المتنازع عليها جنوب خط عرض ٥° شمالا « وحتى لا تخرق المادة الأولى من الفصل الثالث عن ميثاق برلين يجب أن تكون كل عملياتك شمال هذا الخط »(٣) .

وفى أوائل ديسمبر تم ابلاغ قائد اللادو بوقف كل اتصالاته مع الشمال عن طريق النيل « حتى يتم جلاء قوات الكونغو التام عن الأراضى المتنازع عليها فى مديرية بحر الغزال الواقعة بين خط عرض ٥° شمالا وخط تقسيم مياه النيل — الكونغو »(٤). كما تم إبلاغ حكومة بروكسل بنفس القرار(٥) .

ولإحكام هذه المقاطعة تقرر أن تشترك فيها « أوغندة » فتباحث كرومر مع أحد كبار موظفى حكومتها الذى وصل إلى القاهرة فى منتصف ديسمبر فى مدى الدور الذى يمكن أن تقدمه السلطات الأوغندية فى الحصار الاقتصادى الذى تقرر فرضه حول الكونغو(٦) . وتمخضت هذه المباحثات عن تعليمات محددة أرسلت من لندن إلى حكومة أوغنده بعدم السماح بارسال البضائع عبر الأراضى الأوغندية إلى

---

(١) Collins, R.O., Anglo-Congolaise Negociations, 1900-1906, Part 6, p. 641.

(٢) Corres. Part LXIII, No. 183, Cromer to Lansdowne, Nov. 23, 1905.

(٣) Ibid., No. 207, Cromer to Sir Edward Grey, Dec. 19, 1905.

(٤) Ibid., No. 188, Cromer to Lansdowne, Nov. 30, 1905.

(٥) C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 136, Nov. 1905.

(٦) Corres, Part LXIII, Cromer to Lansdowne, Dec. 9, 1905.

النيل عن طريق الكونغو إن لم يصحبها شهادة تثبت أنها ليست بلجيكية وبتنسيق العمل مع حكومة السودان لتحقيق الهدف المرجو من القاطعة[١] .

وقد حذر كبار المسئولين فى بروكسل السفير البريطانى فيهـا فى لقاءاتهم الخاصة به من أن هذه الإجراءات قد تؤدى إلى عناد الملك وتصميمه على إبقاء قواته فى مراكزها[٢] .

وبدا لبعض الوقت صدق هـذه التحذيرات فقد تواترت الأنباء فى مطلع عام ١٩٠٦ عن أن البلجيك يقومون بنشاط عسكرى كبير فى الحاجز وبأنهم نصبوا ثلاثة مدافع فى مركز اللادو كما أنهم يقومون بإجراء التدريبات العسكرية المتواصلة استعداداً لاحتمالات الصدام .

كما نبهت سلطات الحاجز وكلاء التجار السودانيين فيه بأنه إذا لم تتوقف قوارب بريد الحكومة السودانية فى اللادو كعادتها فإن عليهم نقل بضائعهم من أراضى الكونغو خلال ٤٨ ساعة[٣] .

يضاف إلى ذلك أن التقارير وردت إلى الخرطوم بتأسيس الكونغوليين لثلاثة مراكز جديدة أحدها فى « نيندا » والثانى فى بقمة جنوب غرب المركز الأول على نهر « يبو Yubo » والثالث فى « مانجى »[٤].

فى نفس الوقت سعت سلطات الكونغو إلى وضع « مرسوم إمز » موضع التنفيذ فنشرت « المجلة الرسمية » لحكومة الكونغو بأنه قد تقرر إقامة عدة مكاتب للادارة المدنية فى « ناحية الأويل » و « منطقة مريدى »[٥] وبناء على ذلك أرسل « الكابتن بولس » الذى منح صفة مدنية وأصبح « رئيس منطقة مريدى » إلى

---

(١) Corres, part LXIII, No. 210, Earl of Elgin to Commissioner Wilson, D[illegible] 22, 1905.

(٢) Ibid., No. 205, Phipps to Grey, Dec. 14, 1905.

(٣) C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 138 (Jan. 1906).

(٤) Corres, Part LXIV, No. 8, Cromer to Grey, Jan. 6, 1906.

(٥) Ibid., No. 17, Phipps to Grey, Jan. 16, 1906.

حاكم بحر الغزال يبلغه بنيته على إدارة الأراضى المتنازع عليها تحت سيادة دولة الكونغو الحرة[١] .

ولكن كافة هذه المحاولات لم تصرف الحكومة البريطانية عن تصميمها على السياسة التى اختطتها بفرض الحصار الاقتصادى على الكونغو ، ونتج عن ذلك أن بدأت علامات التخاذل والتراجع تتضح أكثر وأكثر فى بروكسل مما مهد لنهاية الأزمة والاتفاق .

الاتفاق ١٩٠٦ :

لم يغفل ملك البلجيك معنى المقاطعة التى فرضت على أملاكه فى الكونغو ، فالحكومة البريطانية لم ترفض الإذعان لضغط ليوبولد السياسى والعسكرى فحسب بل إنها اتخذت من الاجراءات ما يوحى بتصميمها على البقاء فى بحر الغزال وقد مر على الصراع وقتذاك ما يزيد عن ستة أعوام وليوبولد تتقدم به السن وقد أراد قبل أن يموت أن يرى الكونغو وقد حصلت عليه بلجيكا بشروطه هو ولكن البرلمان البلجيكى لن يكون راغباً فى قبول إدارة الكونغو إذا كان هناك نزاع مع بريطانيا بشأنه . وإن كان الأغلب أن العامل الأساسى فى تغير رأى الملك كانت عودة « ڤان اتڤيلد » ، فمنذ البداية كان هذا قد بدأ مفاوضاته بأمل الاتفاق وفى عام ١٩٠٣ كان قريباً من إبرام المعاهدة لولا عناد الملك ، وقد كان « ڤان اتڤيلد» ميالاً دائماً لبريطانيا وخلال حرب البوير كان أحد الساسة الأوربيين القلائل الذين عاونوا الانجليز ، وبجهوده وحده تمكن من الحصول على موافقة ليوبولد لوضع حد للنزاع[٢] .

وقد اتخذ ليوبولد أول خطوة لحل النزاع فى أواخر يناير حين دعا « المسيو روفييه Rouvier » السفير الفرنسى فى بروكسل وأبلغه أنه يود أن يرسل مندوباً

---

(١) C.R.O.S. Sudan Intelligence Reports, No. 139 (Feb. 1906).

(٢) Collins R.O., op. cit., Part 6, pp. 643-644.

إلى لندن لبحث المسائل المعلقة بين الحكومة البريطانية وحكومة الكونغو ولكنه فى انتظار موافقة لندن على استقبال مثل هذا المبعوث .

وبعد ذلك بمدة أيام دعا « فان اتفيلد » المسيو روفييه وأعاد عليه نفس أقوال الملك وسأل عما إذا كان من الممكن أن تقوم حكومته بعمل استخبارات سرية فى لندن « ليرى ما إذا كانت الحكومة البريطانية على استعداد لاستقبال ملك البلجيك وأن تبحث معه مواضيع الخلاف بين الجانبين »[١] .

ووافق المسيو روفييه على إرسال التعليمات اللازمة للسفير الفرنسى فى لندن ليتحدث مع وزير الخارجية البريطانية فى هذه الموضوع . وفى نفس الوقت قررت السلطات الكونغولية الاقتراب من الحكومة البريطانية بصورة مباشرة ، ففى ٨ فبراير ١٩٠٦ دار حديث طويل بين المسيو فان اتفيلد والسير « هاردنج Hardinge » السفير البريطانى الجديد فى بروكسل . وتحدث عن رغبة الملك فى المفاوضة للوصول إلى اتفاق وأعرب عن استعداده للذهاب إلى لندن لبحث الأمر مع السير إدوارد جراى ، وأشار « فان اتفيلد » إلى أن أى اقتراح ستقدمه حكومة الكونغو ستعترف فيه بالهدف الأول للحكومة البريطانية « بتأمين كل أقسام النيل بحيث تصبح تحت الإدارة المصرية البريطانية بعيدة عن سلطة أى دولة أجنبية » .

وفى اليوم التالى تحدث المسيو كامبو — بناء على طلب روفييه — مع سير جراى عن إمكان استئناف المباحثات الإنجليزية الكونغولية فأجاب وزير الخارجية البريطانية على السفير الفرنسى فى لندن بأن حكومته لا يمكن أن توافق على أى مباحثات مع مبعوث لملك البلجيك طالما بقيت القوات الكونغولية تحتل الأراضى المتنازع عليها فى بحر الغزال ، كما أرسلت نفس الإجابة إلى هاردنج فى بروكسل رداً على استفسار فان اتفيلد[٢] .

واستدعى البارون فان اتفيلد السير هاردنج مرة أخرى فى ٢٣ فبراير ١٩٠٦ وأشار إلى اقتراحه بشأن الذهاب إلى لندن للتوصل إلى تسوية ، كما أشار إلى خطورة الموقف الناجم عن الوضع فى الأراضى المتنازع عليها مما قد يؤدى إلى صدام .

(١) Corres, Part LXIV, No. 61, Grey to Sir F. Bertie, Feb. 9, 1906.

(٢) Collins, R.O., op. cit., Part 6, pp. 644-645.

وكان لهذه اللهجة القوية أثرها على السفير البريطاني في بروكسل مما دعاه إلى أن يحذر حكومته أنه بالرغم من أن الرأي العام البلجيكي لا يشعر بالود نحو دولة الكونغو فإن أي صدام في أعالي النيل قد يؤدي إلى صرف الأنظار عن سوء إدارة حكومة الكونغو ، بل إن هذه الحكومة ستجعل المسألة « دفاع عن الشرف البلجيكي » وتثير مشاعر البلجيك ضد بريطانيا وهو أمر غير مرغوب فيه في ظل الأوضاع القائمة وقتذاك في أوربا . وأمام هذه الحجة القوية تشكك السير هاردنج في قيمة الاستمرار في إيصاد باب المفاوضات[1] .

وقد أكدت أعمال الموظفين الكونغوليين في الأراضي المتنازع عليها مخاوف هاردنج من أنهم يستهدفون كسب عطف أوربا عامة وبلجيكا خاصة ، فقد بدا تماماً أن ليوبولد مستعد لأن يصل بالأزمة إلى صدام فعلي ، ففي ١٩ فبراير كتب كرومر للخارجية البريطانية أن الكونغوليين رفعوا رايتهم لأول مرة فوق « مريدى » . وأعلن قائدهم « الكابتن بولس Paulis » — بأوامر من بروكسل بدون شك — أنه في طريقه لبناء أوتاد حدود على طول خط عرض ٥° شمالا وكان لا يمكن مرور تلك الأعمال دون رد ولكن وزارة الخارجية البريطانية كانت تخشى أن تؤدي إزالة القوات الإنجليزية المصرية لهذه الأوتاد إلى صدام[2] .

وعلى ذلك فقد حذر « هاردنج » المسيو دى كوفليه في ٣ مارس ١٩٠٦ من أن بناء أوتاد الحدود في بحر الغزال أمر لن يسمح به ، وقد اعترف المسيو كوفليه بأنه لا يعلم شيئاً عن هذا الأمر ووعد بالنظر فيه فوراً[3] .

وفي اليوم التالي دعا المسيو دى كوفليه السيد هاردنج وأبلغه أن حكومة الكونغو قد أبرقت للكابتن بولس لإيقاف بناء أوتاد الحدود[4] .

وكان للطريقة الحاسمة والفعالة التي أوقفت بها حكومة الكونغو عملية بناء

---

(١) Corres, part LXIV, No. 98, Hardinge to Grey, Feb. 23, 1906.

(٢) Ibid., No. 85, Cromer to Grey, Feb. 19, 1906.

(٣) Ibid., No. 113, Hardinge to Grey, March 4, 1906.

(٤) Ibid., No. 114, Hardinge to Grey, March 4, 1906.

الأوتاد أثرها فى إزالة الشكوك المتبقية لدى الخارجية البريطانية فى رغبة ليوبولد فى الاتفاق .

ثم جاء العامل الأخير الذى تكالب مع العوامل الأخرى لإنهاء الموقف لصالح استئناف المفاوضات متمثلا فى عدم إمكان احكام « الحصار الاقتصادى » الذى تقرر فرضه فقد أبلغت « حكومة أوغنده » حاكم مديرية منجالا السودانية أنها لا تستطيع إيقاف التجارة مع الكونغو(١) .

وعلى ضوء كل هذه الاعتبارات أوصى كرومر خلال النصف الأول من مارس باعادة فتح باب المفاوضات مع الكونغو(٢) .

وبناء على ذلك فقد أبرقت الحكومة البريطانية بتعليماتها لسفيرها فى بروكسل بشروطها لإعادة فتح باب المفاوضات مع الكونغو وهى العودة أولا إلى الوضع الذى كان قائماً فى ظل « اتفاقية التعايش » المعقودة بين بولنوا وليمير(٣) . وكان معنى هذا إيقاف العمل « بمرسوم أمز » . والجلاء عن ثلاثة مراكز كونغولية تم تأسيسها بعد الاتفاقية المذكورة هذا من ناحية ، وفتح طريق النيل لدولة الكونغو الحرة من ناحية أخرى .

وقد وافق « فان اتفيلد » على هذا الاقتراح وأعرب عن اعتقاده بأن الملك بدوره سيوافق عليه(٤) . وكان اعتقاد « فان اتفيلد » صحيحاً ففى أوائل الشهر التالى — أبريل — وافقت حكومة الكونغو رسمياً على الشروط البريطانية(٥) .

وسافر فان اتفيلد إلى لندن ليبدأ المفاوضات مع السير « إيفلين جورست » الممثل البريطانى ، فقد رؤى أفضلية مواجهة الأمر بعيداً على ليوبولد(٦) .

---

(١) Corres, part LXIV, No. 139, Cromer to Grey, March 6, 1906.

(٢) Ibid., No. 154, Cromer to Grey, March 15, 1906.

(٣) Ibid., No. 155, Grey to Hardinge, March 21, 1906.

(٤) Ibid., No. 160, Hardinge to Grey, March 23, 1906.

(٥) Corres, part LXV, No. 29, Grey to Hardinge, April 7, 1906.

(٦) Collins, R.O., op. cit., part 6, pp. 467-68.

وكانت رغبة الجانبين واضحة فى الوصول إلى اتفاق بأسرع ما يمكن ، فقد أراد البارون فان أتفيلد من جهته التوقيع قبل أن يطلع ليوبولد على كل التفاصيل التى قد يعترض على بعضها ،كذا كان السير إدوارد جراى راغباً فى إنهاء المفاوضات قبل أن يهاجم أحد أعضاء البرلمان — ممن كانوا مستمرين فى طرح الأسئلة فى هذا الموضوع — يهاجم الملك الذى قد يرد على ذلك بأزمة أخرى . كما أن جورست كان راغباً فى اتفاق سريع فقد علم بصورة غير رسمية أن وزارة المستعمرات على وشك الموافقة على مد خط حديد أوغندة إلى بحيرة ألبرت فى مقابل حدود سمليكى مما سيؤدى إلى حرمان دولة الكونغو من طريق النيل ومن ثم يضيع واحد من أهم الامتيازات التى قدمها البريطانيون . كما أن جورست كان قد علم من فان اتفيلد أنه اذا بقى الأمر على ما هو عليه عند وفاة الملك ليوبولد فان حكومة الكونغو قد ترفض الجلاء عن حاجز اللادو ،ولسنا ندرى إذا كانت هذه النية حقيقية من حكومة الكونغو أم أنها مجرد إشارة مقصودة من فان اتفيلد للاسراع نحو الاتفاق[١] .

وفى ظل كل هذه الظروف عقدت معاهدة ٩ مايو ١٩٠٢[٢] و بمقتضاها تخلى الملك ليوبولد عن كافة ادعاءاته فى أراضى بحر الغزال الذى كان متمسكا بها بمقتضى معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ . كما تقرر عودة حاجز اللادو إلى السودان عند وفاته ، كما تعهدت حكومة الكونغو الحرة ألا تتدخل بأى صورة فى كمية المياه الجارية من نهر سمليكى إلى بحيرة ألبرت إلا بناء على معاهدة مع حكومة السودان . وقد استفادت مصر كثيراً من هذا التعهد فيما يتعلق بضمان جريان المياه إلى النيل سواء من البحيرات أو من فروع النهر .

ومن ناحية أخرى فقد وافق البريطانيون نيابة عن الحكومة المصرية على ضمان فائدة قدرها ٣٪ على مبلغ لايزيد عن ٨٠٠ ألف جنيه لمد خط حديدى من حدود الكونغو إلى قناة النيل الملاحية قرب اللادو ، على أن يقوم بتحديد هذا الخط كل من حكومتى السودان والكونغو وأن يوضع الخط كله تحت إدارة حكومة السودان

---

(١) Corres, part LXV, No. 50, Hardinge to Grey, April 12, 1906.

(٢) نص المعاهدة فى : Hertslett, op. cit., vol. II, pp. 584-586.

عند نهاية احتلال الملك ليوبولد لحاجز اللادو[1] .

وكان هذا الاتفاق فى الواقع نصراً نهائياً للدبلوماسية البريطانية فقد تضمن تراجعاً حقيقياً عن المطالب الكونغولية التى قدمت خلال عامى ١٩٠١ ، ١٩٠٢ . ولم تفقد الحكومة الكونغولية فقط بمقتضاه مساحة كبيرة من الأراضى التى قدمتها لها الحكومة البريطانية ١٩٠٢ بل أنها لم تحصل على أى امتيازات فى الأراضى التى ادعتها « شركة أفريقيا الأنجلو — بلجيكية » أو « شركة أفريقيا البريطانية الاستوائية » ، ولا حق امتياز فى الأرض لشركة السكك الحديدية المقترحة .

وحرية الملاحة للبضائع الكونغولية لم يكن امتيازاً كبيراً فقد كان البريطانيون مضطرين إليه بمقتضى معاهدة برلين ، وحتى مقدار مبلغ قرض الخط الحديدى والفائدة التى ضمنتها الحكومة البريطانية قلل من مليون إلى ٨٠٠ ألف جنيه .

والواقع أن المادة الوحيدة التى جذبت اهتمام المسئولين البريطانيين هى الموافقة على إحالة أى نزاع يتعلق بتنفيذ المعاهدة إلى التحكيم فقد سببت هذه المادة قلقاً فى دوائر وزارة المستعمرات إذ يمكن تطبيقها على روديسيا وأغنده كذا على بحر الغزال. ولكن كما أشار جراى « للورد الجين » وزير المستعمرات بأن « مركز الحكومة لن يكون قوياً إذا ما سمحت بإفساد المعاهدة لهذا السبب »[2] .

ومع أن معاهدة ٩ مايو ١٩٠٦ قد تضمنت تسوية للأزمة إلا أن ليوبولد قد ضاق بها إلى حد بعيد بعد أن علم بتفاصيلها ولكن الوقت كان قد فات للاعتراض عليها بعد أن وقعها فان اتفيلد . ومن ثم لم يكن أمامه إلا أن ينزل غضبه على رأس الأخير فاستقبله بعد عودته من لندن أسوأ استقبال ثم ما لبث أن سلبه من كافة صلاحياته[3] .

ولكن وغم عدم رضاء الملك البلجيكى عن المعاهدة إلا أنها كانت فعلا نهاية لذلك الصراع الذى احتدم فى بحر الغزال والذى كاد فى بعض مراحله أن يصل إلى الصدام المسلح ، وكانت حقاً نهاية لأزمة « فاشودة الصغير » (!!)

(١) Corres, part LXV, Inc. No. 1, in No. 239, Cromer to Botros Pasha Ghali, May 26, 1906.

(٢) Collins, R.O., op. cit., part 6, p. 650.

(٣) Corres, Part LXV, No. 308, Hardinge to Grey, June 9, 1906.

مصادر البحث

أولا — وثائق غير منشورة :

١ — وثائق بريطانية :

— Further Correspondence respecting the Affairs of North East Africa and the Sudan.

Part	Date
IV	July-Dec. 1900.
V	Jan.-June, 1901.
X	1904

— Further Correspondence respecting the Affairs of Egypt and the Sudan.

Part	Date
LXIII	1905
LXIV	Jan.-March, 1906.
LXV	April-June, 1906.

وقد أشير إلى هذه الوثائق فى الهوامش تحت رمز « Corres» .

٢ — وثائق سودانيـة :

Central Record Office-Sudan (C.R.O.S.)

— Sudan Intelligence Reports.

No.	Date
67	1st Jan.-8th March, 1900.
136	Nov. 1905.
138	Jan. 1906.
139	Feb. 1906.

— Mongalla Province

Class 1 / Box 7 / File 48.

ثانياً — وثائق منشورة :

— Annual Report, 1904.
  Report by his Agent and Consul General on the Finances, Administration and condition of Egypt and the Sudan.

ثالثاً — المراجع

— Collins, Robert O.
  Anglo-Congolaise Negociations 1900-1906.
  Zaire-Revue Congolaise, vol. XII, parts 5 and 6, 1956.

— Collins, Robert O.
  The Southern Sudan, 1883-1898, Yale 1962.

— Gray, R.
  A History of the Southern Sudan, 1839-1889, Oxford 1961.

— Hertslett, Sir Edward.
  The Map of Africa by Treaty (3 vols.), London, 1909.

— Langer, William.
  The Diplomacy of Imperialism, New York, 1951.

— Pensa, H.
  L'Egypte et le Soudan Egyptien, Paris, 1895.

— Sanderson, G.N.
  Leopold II and the Nile Valley. The Sudan Historical Association Proceedings, vol. I, part VII, Khartoum, 1955.

وإذا كانت الوثائق البريطانية الخاصة بهذا الموضوع قد توفرت لدينا فإن قيمة هـذه الدراسة التى أعدها الأستاذ ساندرسون أنها تمدنا بوجهة نظر الجانب الآخر — الـكونغولى — الرسمية ، حيث أنها مستمدة من مقالة نشرت فى مجلة "Deutsches Kolonialblatt" فى أول يونية عام ١٩١٦ بعنوان « الأراضى

التي أجرتها دولة الكونغو في اللادو وبحر الغزال :

"Das Lado- und Bahr-el-Ghazal Pachtgebiet des Kongo Staates".

وهي مقالة غنية جداً بالوثائق المتعلقة بمشروعات ليوبولد النيلية كما يذكر ساندرسون .

— Slatin, R.

Fire and Sword in the Sudan, London, 1896.

— Wauters.

L'Etat Indépendant du Congo, Bruxelles, 1899.

مناهل الصفا فى اخبار دولة الملوك الشرفا

للوزير عبد العزيز الفشتالى

عن دولة المنصور الذهبى
(أثرت العديم وأكسبت المحروم)

الأستاذ عبد الكريم كريم
أستاذ محاضر بكلية الآداب جامعة محمد الخامس — الرباط

فى الخزانة الملكية بالرباط ، نسختان مخطوطتان (لمناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا) ، للوزير عبد العزيز الفشتالى ، تحمل الأولى رقم ٢٧٤ والثانية رقم ٥١٨٢ وهاتان النسختان تختلفان من حيث الحجم والكتابة . وعدد الصفحات والسطور .

— فالنسخة الأولى عدد أوراقها ١٥٢ ورقة أى ٣٠٤ صفحات ، وكل ورقة بحجم٢٦,٥ سم طولاً فى ٢١ سم عرضاً ، وبكل صفحة ٢٦ سطراً ، وكل سطر يتضمن نحو ١٥ كلمة .

— أما النسخة الثانية فلم ترقم بعد صفحاتها ، وحجم كل ورقة ٣٢ سم طولا و ٢٢,٥ سم عرضاً ، وتحتوى كل صفحة على ٢٠ سطراً به نحو ١٢ كلمة . وهذه النسخة مشكولة ، وتحمل تاريخ الإنتهاء وهو أوائل رمضان عام ١١٢٨ ﻫ .

لقد اعتمدت على النسخة الأولى ، وإن كنت أرجع بين الفينة والأخرى إلى النسخة الثانية لضبط بعض الألفاظ والكلمات والحروف التى أتت عليها الأرضة فى النسخة الأولى .

وإلى جانب ذلك يوجد ملخص ، كان الأستاذ الفاضل السيد عبد الله كنون قد نشره سنة ١٩٦٤ ، وعند مقارنة المختصر بالنسختين المخطوطتين ، يبدو لأول وهلة بأن هذا الملخص هو اختصار وتلخيص لما جاء بهما ، إنما الذى قام بالتلخيص قد تصرف كثيراً وإلى حد بعيد ، فى إثبات وحذف المديد من الموضوعات والمعلومات

القيمة التي لا تدرك إلا بالرجوع إلى الأصل أولا والمختصر ثانياً . ولعل ذلك مما دفع السيد الأستاذ عبد الله كنون إلى أن يثبت في الصفحة ١٣ قوله « . .. فضلا عن أنه إذا نشر الأصل فإن هـذا المختصر سوف لا يرى النور ولا يجد سبيلا إلى الظهور أبداً » .

وتعود أهمية المخطوط إلى عدة عوامل ·

أولا — أهمية الفترة التي يتحدث عنها بالنسبة لتاريخ المغرب الحديث .

ثانياً — كون مؤلفه شاهد عيان ، وفي المطلعين على مجرى الأحداث الداخلية والخارجية .

ثالثاً — تعرضه إلى الأحداث السياسية والحضارية .

رابعاً — أغنى وجوده عن الرجوع إلى المراجع الـكثيرة التي نقلت عنه .

* * *

المنصور الذهبي وعصره :

أولا — عرف القرن السادس عشر صراعاً قوياً وعنيفاً بين إمبراطوريات ثلاث : الأتراك العثمانيون في الشرق والأسبان والبرتغال في الغرب .

(ا) فالأتراك العثمانيون الذين تولوا الخلافة الإسلامية وسعوا إلى توحيد قوى العالم الإسلامي للدفاع عن بلاد الإسلام ضد الغزو المسيحي الغربي . قد أجبرتهم ظروفهم السياسية والتوسعية على الاهتمام بالغرب الأقصى كجزء لا ينفصل عن بلاد الشمال الإفريقي التي دخلت جميعها تحت سيطرتهم وللدفاع عن حدود إمبراطوريتهم الغربية ثم لأن ضم المغرب من شأنه أن يمكن الأتراك من السيطرة على قواعد استراتيجية تمكنهم من تهديد أوربا الغربية المسيحية وإيبريا بوجه خاص وتساعدهم على وضع جميع مقدرات خصومهم الأسبان والبرتغال تحت رحمتهم والتحكم أخيراً في طريق الهند البحرية التي نتج عن اكتشافها أضعاف اقتصاديات الشرق الإسلامي وتحويل طريق التجارة العالمية في البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي .

(ب) والأسبان والبرتغال الذين نجحوا في اكتشاف العالم الجديد والتعرف على

طريق الهند البحرية قد عاد عليهم ذلك بالغنى والرفاهية ومكنهم من تسليح القوات العسكرية والأساطيل البحرية التى غزوا بها مناطق واسعة من العالم القديم والجديد ، ولما كان المغرب الأقصى أقرب بلاد عربية إسلامية إلى أوربا الغربية الناهضة المسيحية ، فقد تعرضت سواحله المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى إلى غزو منظم من قبل البرتغال والأسبان الذين كانوا يرون فى المغرب نقطة دفاع وانطلاق لرد الخطر العثمانى المسلم عن إيبريا المسيحية من جهة ، وللتوسع فى القارة الإفريقية العالم الغنى المجهول من جهة أخرى .

(ج) أما وضعية المغرب الأقصى الداخلية فقد ساعدت على نجاح حركة الجهاد المقدس التى تزعمها الشرفاء السعديون منذ السنوات الأولى للقرن السادس عشر ، وعند منتصف هذا القرن كان السعديون بقيادة المولى محمد الشيخ المهدى قد أتموا وحدة المغرب السياسية وأصبحوا مجاورين فى حدودهم الشرقية والشمالية والغربية لقوى الإمبراطوريات الثلاث التى أخذت تتجاذبهم نحوها ، إلا أن حرص الحكام المغاربة الجدد على وحدة بلادهم واستقلالها ، وإدراكهم المرامى الحقيقية والتوسعية لكل من الأتراك والأسبان والبرتغال قد دفعتهم إلى اتخاذ كل وسائل المقاومة ، والدفاع وأجبرتهم على نهج السبل الكفيلة بالمحافظة على حريتهم واستقلالهم . وهذا الموقف من قبل الحكام السعديين جعل السياسة المغربية تتسم بصفات خاصة قوامها الوقوف على حذر واتخاذ كل وسائل المقاومة والدفاع ضد كل تدخل خارجى شرقياً كان أو غربياً . وقد وجدوا فى الخلاف القائم بين الدول الكبرى الثلاث وفى الحروب المستمرة بينها مجالا رحباً لتحقيق ما يرمون إليه ويسعون إلى تحقيقه .

(د) وعندما تولى المولى أحمد المنصور عرش المغرب عام ٩٨٦ هـ/١٥٧٧ م . كانت الوضعية الدولية قد عرفت نوعاً من التطور : فالقوتان العظيمتان التركية ، والأسبانية قد دخلتا فى مفاوضة لإقرار نوع من الهدنة والسلم بعد حروب طويلة وشاقة ، وذلك للمشاكل الداخلية التى أصبح يعانيها كل من السلطان العثمانى الثانى مراد الثالث والملك الأسبانى فيليب الثانى ، ولأن كلا منهما كان يرى فى مهادنة الجانب الآخر ما يساعده على وضع حد للمشاغل العديدة التى من أهمها تصفية مشكلة المغرب الأقصى وبسط النفوذ على هذه البلاد ذات الموقع الستراتيجى الهام . غير أن

المولى أحمد المنصور وما كان يتمتع به من دهاء وحزم ، قد عرف كيف يفسد على بعض القادة الأتراك خططهم التوسعية الرامية إلى غزو المغرب . وظل المنصور ونجح من جهة أخرى فى الصمود دون انتشار النفوذ الأسبانى بالمغرب ، وظل المنصور هكذا فى مرحلة الاستعداد المسلح مع اليقظة والحذر إلى أن أخذت الظروف الخارجية تتطور فى غير صالح كل من خصميه التركى والأسبانى :

فبالنسبة لمراد الثالث هناك المشكلة الإيرانية والحروب ضد الصفويين الشيعيين علاوة على الجبهة المسيحية القوية بأوربا الشرقية .

وبالنسبة لفيليب الثانى اشتداد حدة الحروب الدينية وتطور الخلاف الأسبانى ـ الانجليزى لتزعم مدريد ولندن المعسكرين المتحاربين الكاثوليكى والبروتستانتى .

لقد استغل المولى أحمد المنصور إلى حد بعيد ظروف الصراع القائم بين الجبهتين المسيحيتين بأوربا الغربية . وبلغ به الأمرأن تدخل فى هذا الخلاف وأصبح طرفاً هاماً يتوقف عليه مدى نجاح وفشل أى من الجانبين المتحاربين ، أوضح لقد أصبح المنصور وبالتالى المغرب يتحكم فى ميزان القوى الدولية وفى التوازن الدولى سواء بين دول الشرق والغرب أو بين الجبهتين المسيحيين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وقد عاد ذلك على المغرب بتحرير بعض مراكز الاحتلال الأجنبى كما ساعده على تأسيس إمبراطورية واسعة بغربى إفريقية تضم بين مناطقها بلاد السودان الغنية بذهبها وتوابلها ورقيقها والتى كانت من أهم الأسواق التجارية فى العالم .

أصبح المنصور الذهبى منذ عام ١٠٠٠ هـ/١٢٩١ م نداً لكل من خصميه السلطان العثمانى ، والملك الأسبانى ، وأصبحت دولته لا تقل عظمة وقوة وغنى عن دولتيهما كما أن سلطته أصبحت تشمل إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف ، مما جعل المغرب فى عداد الدول الكبرى وأجبر حكام استامبول ومدريد على أن يحسبوا للدولة المغربية ولخليفتها المولى أحمد المنصور كل الحساب ، علاوة على الاحترام ، والتقدير الذى أصبح الحاكم المغربى يتمتع بهما ، وقد تفرغ المولى أحمد منذ هذا التاريخ للأعمال العمرانية والإنشائية كما أخذ تطوير دولته سياسياً وحضارياً .

على أن للمنصور الذهبى قد وجد فى انشغال الأتراك العثمانيين بحروب أوربا

الشرقية ، وفى انهماك الأسبان بالحروب الدينية فى غربى أوربا ، الفرصة الذهبية لتحقيق الكثير من الأمانى ، وأكثر ما ظهرت نواياه العدائية ضد الأسبان عندما انتهت حملة الأرماد الأسبانية ضد انجلترا بالفشل سنة ١٥٨٨ م . فقد أعرب المنصور عن تأييده للأمير البرتغالى دون أنطونيو المطالب بعرش لشبونة ضد فيليب الثانى ، بل ودخل فى مفاوضات سرية مع ايليزابيث ملكة انجلترا لإعداد حملات عسكرية ضد أسبانيا ومستعمراتها ، إلا أن المولى أحمد لم يتمكن من السير قدماً فى هذا الاتجاه للأحداث الداخلية الخطيرة التى عرفها المغرب وأهمها ثورة الناصر بن المولى عبدالله الغالب (ابن أخى المنصور) سنة ١٢٩٥ وما وجدته من تأييد من قبل الأسبان ثم انتشار الطاعون والأوبئة مما قضى على الكثير من الأرواح والحق الإضرار الفادحة بالاقتصاد المغربى ، وأخيراً ثورة المأمون ولى عهد المنصور بفاس ، ومحاولته التعاون مع الأتراك فى الجزائر لولا أن تدارك المنصور الأمر وقضى على الثورة فى مهدها . وقبل أن يعود المنصور من فاس إلى مراكش أصيب بداء الطاعون ووافاه الأجل المحتوم سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م .

* * *

مؤلف المخطوط :

ثانياً — أما مؤلف المخطوط فهو عبد العزيز الفشتالى ، ولد عام ٩٥٦ هـ أى السنة التى ولد فيها المولى أحمد المنصور وقد كان رفيقاً له منذ صباه . وحسب رواية المقرى المعاصر فى (روض الآس) فان الفشتالى يعد من أشهر وزراء المنصور وكتابه وشعرائه . مات بعد المنصور بعشرين سنة فى عام ١٠٣٤ .

والمعلومات القيمة التى أوردها الفشتالى فى مخطوطه الأسرار والأحداث الدقيقة فى عصر المنصور ، تثبت بأنه كان من المقربين جداً للمولى أحمد ، ومن خواص جلسائه . وتعكس من جهة أخرى ما كان يتمتع به من علم غزير واطلاع واسع على مجريات الأحداث والوقائع الداخلية والخارجية . وقد أكد العالم أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف فى الرسالة التى وجهها إلى المنصور مكانة الفشتالى السياسية والعلمية عندما كتب « .... فتركت أيدكم الله الصدر لمن هو به منى أقعد ،

وتحاميت عقده لمن هو له أعقد . أبى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه أنواركم ، وأضاءت له سبل هذا المنحى أقماركم ... » (ص ٥٤) .

أما ناسخ المخطوط ومكان نسخه وزمانه ، فالنسخة التى بين أيدينا لا تتضمن إشارة إلى ذلك . كما نجهل ما إذا كانت هذه النسخة المخطوطة قد نقلت عن المؤلف مباشرة أو بواسطة نسخة ونسخ أخرى . وكل ما يمكن قوله : هو أن الناسخ كان أميناً — فيما يبدو — إلى حد بعيد لدرجة أنه قد ترك الكثير من البياض للكلمات والألفاظ والحروف التى ربما صعب عليه فهمها ونقلها ، وحافظ على صيغ الأفعال عند التكلم والمخاطبة بل وحافظ أيضاً على ترتيب الموضوعات التى لم تكن مرتبة ترتيباً . هذا فيما إذا فرضنا بأن الناسخ قد نسخ عن آخر قبله ، وكيفما كان الأمر فان ناسخ المخطوط لم ينتبه إلى مسألة الترتيب الزمنى للموضوعات والأحداث ، ولعل ذلك كان مصدره المؤلف نفسه الذى كتب تواريخه بشكل مذكرات وكراريس والذى لم تساعده الظروف — كما يظهر — على جمعها وترتيبها . فاختلط الأمر على الناسخ وقدم وأخر . وعلى سبيل المثال :

— فى الصفحة ٥٢ عند التحدث عن (ارتجاع العساكر من كاغو إلى تنبكتو) يبدأ الحديث بقوله : « لما استولت العساكر الأمامية على كاغو ... » فالمفروض أننا نعرف احتلال القوات المغربية للسودان ، مع أن التحدث عن فتح السودان والتفكير فى ذلك لن نتعرف عليه إلا فى الصفحة ٦٨ .

— فى الصفحة ٨٤ لما تعرض لتوسع القوات المغربية فى المناطق الصحراوية الساحلية الممتده بين جنوبى المغرب ونهر السينغال قال « لما تم لمولانا الإمام الخليفة المنصور بالله ما أراد من فتح إقليمى توات وتيكورارين ... » وفى الصفحة ٦٧ عند التحدث عن فتح السودان يقول : « وكان أيده الله تعالى حسبما قدمنا قد وطىء عساكره الأمامية هذه الأقاليم ذات اليمين مع سيف البحر » .

— فى الصفحة ٤٨ وبعد الكلام عن فتح اقليمى توات وتيكورارين يذكر الرسائل التى بعثها المنصور إلى (الجهات والأقطار من ممالكه بالفتح وإنهاء البشرى بما أفاء الله عليه) مع أن هذه الكتب قد وجهت بعد فتح السودان الذى سيبدأ الحديث عنه فى الصفحة ٦٥ .

— فى الصفحة ٦٢ يتحدث عن قفول العساكر من توات وتيكورارين بعد إخماد ثورة قامت بهما (كنا أشرنا إلى ما كان من انتقاض أهل توات وتيكورارين وإجلاب عرب اليمن ..) مع أن الحديث عن هذه الثورة لن يأتى إلا فى الصفحة ١١٢ .

إلى غير ذلك فى الأمثلة التى تؤكد بأن الفشتالى لم تمهله الظروف القاسية التى عرفها المغرب بعد المنصور لجمع مذكراته ، فاشتبه الأمر على جامعها من بعده ، وفى إمكاننا ترتيب الموضوعات والأحداث ترتيباً تاريخياً وتصحيح الخطأ الذى ارتكبه من جمع مذكرات الفشتالى دون أن نعتبر ذلك مخلا بقواعد البحث التاريخى العلمى طالما أن الخطأ — كما يبدو بكل وضوح — لم يصدر عن المؤلف نفسه .

أما الفشتالى المؤرخ فأهم ما يلاحظ عليه :

١ — إطنابه فى مدح المولى أحمد المنصور والإعلاء فى شأنه وشأن الخلافة السعدية الشريفة ، مما يجعل الدارس أحياناً يقف من رواياته وأخباره مواقف الحذر ، ولا غرابة فى ذلك طالما أنه كان من المقربين عند المنصور وكاتبه الخاص ومؤرخ دولته الرسمى .

٢ — عرضه تفاصيل ووقائع دقيقة كشفت النقاب عن الكثير من الأحداث التى عرفها المغرب خلال العهد السعدى وعصر المنصور الذهبى بوجه خاص . وبعض هذه المعلومات يعرف لأول مرة . وجميعها يلقى الأضواء على مرحلة حاسمة من تاريخ المغرب السياسى والحضارى خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن السادس عشر وهى الفترة الحرجه التى قررت مصير المغرب خلال القرون الثلاثة المقبلة من التاريخ الحديث .

٣ — لقد كتب الفشتالى تواريخه بشكل مذكرات وكراريس ، يحمل بعضها الشهر والسنة التى قام خلالها الوزير بتسجيل الأحداث ، وعلى سبيل المثال :

— فى صفحة ١١٢ عندما كان الفشتالى يتحدث عن وصول المنصور إلى فاس عام ٩٩٧هـ وعن أهم الأحداث التى حصلت بالمغرب تعرض إلى ثورة توات وتيكورارين وكيف أن المنصور قد أرسل ضدها قوات جرارة «... وهم لهذا العهد غائبون تجاهها كتب الله سلامتهم فى الظعن والإقامة ومنحهم الظفر والغنيمة» .

— فى الصفحة ١١٤ يتحدث عن ممدن اللح بتغازى وعن استغلال آل سكية ملوك السودان له ثم يذكر « .. واستفحلت الدولة اليوم لعهده الكريم وتفرقت التجارة وتضاعف خراج المعادن فرءا نصره الله ان المعدن لبيت المال » .

فى الصفحة ١٢٨ تعرض إلى فتح السودان وقيام محمود باشا بتمهيد أمره نهائياً خلال ثلاث سنوات ١٢٩٥ — ١٢٩٣ وذكر بأن المنصور قد أمر محمود باشا ومن معه من القوات المحاربة بالعودة إلى المغرب على أساس تعويض ذلك بقوات أخرى جعل على رأسها منصور بن عبد الرحمن ، وفى معرض كلامه عن القوات الجديدة ذكر ما يلى « .. وتسايلت لهذا العهد كتائبها على هذا النمط متتالية ونصر الله يقدمها والتأييد يصحبها » .

— فى صفحة ١٣٦ عند تحدثه عن اشتداد الحروب الدينية بغربى أوربا يشير إلى تدخل الاسبان ضد هنرى الرابع بفرنسا «فتها لـكوالهذا العهد فى مضايقته» ثم يتعرض إلى الهجومات الإنجليزية ضد الشواطىء الاسبانية «وفى هذا التاريخ صمد إليه أسطول سلطانة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب » .

— فى صفحة ٢٢٦ عند تحدثه عن بناء البديع قال « فكان مبدأ الشروع فى تأسيسه فى شوال خامس الأشهر من خلافته السعيدة فى عام ستة وثمانين وتسعمائة واتصل العمل إلى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة » .

— فى صفحة ١٩٠ لما تحدث عن توكل المنصور على الله روى حادثة خاصة وقال « ومما يحكى فى هذا الباب ... فى صفر فى عامنا هذا وهو عام سبعة وتسعين » .

— فى صفحة ١٥٧ ذكر الفشتالى بأن المنصور قد كاتب بعض علماء المشرق فى مصر مخبراً إياهم بالقضاء على الثورة التى قام بها ضده ابن أخيه الناصر « . . . إلى كبير مشايخ الأولياء والعلماء على الطريقة اليوم بالديار المصرية الشيخ الأستاذ زين العابدين بن الشيخ القدوة محمد بن أبى الحسن البكرى الصديق » . والكتاب يحمل تاريخ ربيع النبوى عام ١٠٠٥ هـ .

— آخر حدث تاريخى أورده المخطوط إيقاع المنصور بعرب الخلط عام ١٦٠٦ هـ / ١٥٩٧ وقد تم ذلك بعد القضاء على ثورة الناصر « فجهز إليهم العساكر

إثر الإيقاع بالناصر » ص ١٦١ وعندما نتساءل هل توقف الفشتالى عن كتابة المذكرات أم أنه استمر فى ذلك ولكن الأيام أتلفتها كما حصل للكثير من مؤلفاته ؟ فاعتماداً على ما أورده فى صفحة ١٧٠ « وإذ جرت بنا جياد الأقلام فى ميادين التقييد إلى هذا المدى البعيد عن دولة مولانا الخليفة حامى بيضة الإسلام أمام الأمة كافل الملة تاجر الخلافة مركز دائرة الإمامة مولانا الإمام المجاهد أبى العباس المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله فقد آن لنا أن نختم هذا السفر بمآثره الشريفة المنيفة التى وعدنا أول الكتاب بسوقها إلى أن يسنى الله تعالى بفضله على يده من الفتوح والظفر الممنوح ما يستفتح به إن شاء الله سفر آخر متصل موصول الأخبار المتقدمة بصلة من أخبار . .. » فالفشتالى ارتأى أن يختم الأحداث السياسية التى عرفتها العشرون سنة من حكم المنصور (٩٨٦—١٠٠٦ هـ) بالحديث عن مظاهر حضارية امتاز بها هذا العهد ، على أمل الشروع فى تأليف كتاب آخر يتضمن ما ستأتى به الأيام من أحداث ووقائع وما سيفتحه الله على يده من الفتوح ، فهل أنجز وعده وألف عن الفترة الأخيرة من حكم المنصور بل وعن أحداث ربع قرن من الزمن وهى المدة التى امتدت خلالها حياة مؤرخنا ؟ وأن التاليف قد ضاع ؟ أم أن أحداث المغرب الداخلية منذ ١٠٠٧/١٥٩٨ قد عاقته عن القيام بذلك خصوصاً وأن السنوات الخمس الأخيرة فى حكم المنصور قد تعرض خلالها المغرب لأحداث جد مؤلمة : انتشار الطاعون بكل المغرب لكثرة قتلى المعارك والثورات ، واضطراب سبل الحياة الاقتصادية حيث أخذت المجاعة تعم البلاد وتزيد من أمر داء الطاعون استفحالا ثم الثورة التى قام بها المأمون بفاس ضد والده المنصور بمراكش والتى لم يتمكن المنصور من القضاء عليها إلا بعد جهد جهيد ، فهذه النكبات الثلاث غيرت مجرى الحياة فى المغرب وكانت نقطاً سوداء فى صفحة المولى أحمد المنصور الذهبية ، لم يجد فيها الفشتالى ما يثير الاهتمام ويستحق التسجيل وبالتالى ما يزيد من شأن ممدوحه الذى امتازت دولته بأنها « الدولة الشريفة التى أثرت المديم وأكسبت المحروم » ص ١٤٦ .

— من المآثر التى اتصف بها المنصور والتى يختم بها الفشتالى صفات ممدوحه الكثيرة : الجهاد فى سبيل الله براً وبحراً لرفع راية الإسلام والعمل على استعادة الفردوس المفقود (الأندلس) وما يتطلب ذلك من إعداد العدة والعتاد ، وآخر فقرات المخطوط ، الدعاء للمنصور : « أسأل الله تعالى لمولانا الإمام ظل الله فى الأنام منشىء الآثار التى عرف فضلها الإسلام بقاء يخلق أثواب الأيام ونصراً تحقق بعزه

الرايات والأعلام وتحصد سيوفه المنافقين وطواغيث الشرك وعبدة الأصنام بمنه وفضله » (ص ٣٠٤) .

٤ — حاول الفشتالى — كما يلاحظ — تنظيم بعض مذكراته السياسية والحضارية موضوعياً كما يتضح من :

(ا) استعماله عبارات خاصة يفهم منها أن الموضوع الذى هو بصدد دراسته لم يتم بعد ، وأن ما يأتى فى الأخبار مكمل لما سبق ذكره ، فمثلا فى صفحة ١١٩ عندما كان يتحدث عن ملاحقة القائد المغربى محمود باشا لسكية بالسودان ذكر « وقطع الشق فرصة المجاز من النيل لعدوته القصوى فكان من إجلاب العساكر عليه هنالك ما نذكر إن شاء الله تعالى » .

(ب) استعمال نفس العبارات — أحياناً — التى يختتم بها الموضوع السابق كعنوان للموضوع الجديد ، كالمثال السابق حيث نجده فى نفس صفحة ١١٩ يذكر كعنوان : « ذكر إجلاب العساكر على سكية » .

وتتعدد الملاحظتان فى الصفحات التالية :

• فى صفحة ١١٩ يختم الموضوع بقوله « فكان فى خبره وخبر الإيقاع بسكية واستئصال شأفته وتدريده لأرض الكفر ما نذكر إن شاء الله تعالى » ، ثم يعنون الموضوع التالى : « ذكر استئصال شأفة سكية » .

• فى صفحة ١٢٢ ختم الفصل « وأما خبر أخى سكية النازع فقد كان أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى » ، وأما عنوان الفصل التالى فهو « ذكر اصطلاء أخى سكية الناكث بنار كفره » .

• وفى صفحة ١٤١ ختم حديثه عن ثورة الناصر « إلى أن كان فى الإيقاع به ثانياً على فاس وقطع دابره ما نذكر إن شاء الله » ، وعنون الموضوع التالى « ذكر إيقاع المولى الأمير . بالناصر على فاس ثم القبض عليه وقطع دابره » .

(ج) ويزداد الترتيب حسب الموضوعات وضوحاً عند ما يتحدث عن المظاهر الحضارية فى عهد المنصور سواء فيما يتعلق بصفات المولى أحمد أو فيما يرجع إلى وصف مآثره ومميزات عهده .

٥ — إن المعلومات والأحداث التي دونها الفشتالي تؤكد مقدرته العلمية ، وتشهد له بنوع من الحرص على الأمانة التاريخية ، وقد اعتمد في جمع أخباره على المصادر الآتية :

(أ) المولى أحمد المنصور نفسه : فهو يكثر في استعمال عبارات يفهم منها أن هذا الخبر أو ذاك قد سمعه عن الخليفة المنصور : في صفحة ٢١٣ « وسمعته أيده الله يحدث أنه لما . . . » وفي صفحة (٢) ذكر « وهي ما حدثنا به أيده الله » (ص ٣) « قال أمير المؤمنين . . . » كما ينبه على نقل نقله عن مدونات الخليفة : « ورايت أن أملي الخطبة الشريفة بكمالها ليعلم منها موضوع الكتاب . . . » ص ٢٠٨ — « وقد رأيت أن أعول في تحقيق هذا على تقييد شريف بخط يده الكريمة ناولنيه أيده الله متضمناً لذكر ما قرأ من العلوم . . . » ص ٥١٩ .

(ب) ما نقله عن الآخرين من القدماء والمعاصرين :

فقد روى الكثير عن المؤرخين القدماء أمثال ابن حيان في تاريخه في صفحة ٥١١ ذكر : « ابن حيان في تاريخه أن المنصور بن أبي عامر لما . . . » ، وابن خلدون في عبره : أورد في صفحة ٣٨ « وقد ألم الإمام ابن خلدون في كتاب العبر بذكر تيكورارين . . . » .

ورجع إلى المعاصرين له أيضاً لتسجيل وضبط الأحداث : فعند الحديث عن فتح السودان مثلا نجد في صفحة ٨٠ قوله : « يحكى عن بعض الأدلاء المهرة ممن صحب عسكر مولانا الإمام . . . » وفي صفحة ٧٩ ذكر « حدث بعض الثقاب من أعيان التجار . . . » . ثم في صفحة ١٩٣ « ثم عرض إجتماعي في ذلك اليوم أو بعده مع شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن علي الزموري . . . فحدثني بشارة القضية لعدم إتفاق حضوري ساعتئذ » . فالفشتالي أهبت من جهة المصدر الذي اعتمد عليه ونبه من جهة أخرى . على أنه غير متأكد فيما إذا كان التقاؤه بالشيخ أبي العباس قد تم في هذا اليوم أو الذي بعده ، وتلك ميزة عرف بها مؤرخنا تشهد له بمقدار الضبط الذي كان يتصف به .

(ج) ما يشاهده واطلع عليه : كما هو الحال عند تعرضه إلى صفات المنصور الخلقية والخلقية وإلى العديد في مآثره العمرانية كالقصر البديع وحصون فاس والعرائش

ثم معاصر السكر ومعامل الذخيرة والسلاح . . . وغير ذلك من الموضوعات الحضارية والسياسية .

* * *

الأهمية السياسية والحضارية للمخطوط :

تعرض الفشتالى إلى الأحداث السياسية والمظاهر الحضارية :

(أ) الناحية السياسية :

بلغ المغرب فى عهد المولى أحمد المنصور مرحلة هامة فى التطور والإزدهار ، جعلت هذا العصر الصفحة الذهبية المشرقة فى تاريخ الدولة السعدية ، وقد سجل الفشتالى كثيراً من التطورات الداخلية والخارجية عن هذا العهد ، ولكن ناسخ مذكراته اشتبه عليه الأمر فقدم وأخر . ومن الممكن ترتيب الموضوعات تاريخياً :

* السنوات الخمس الأولى فى حكم المنصور ٩٨٦ هـ ٩٩١ هـ) [من صفحة ١ إلى صفحة ٥٢] تحدث الفشتالى عن بيعة المولى أحمد وقيامه بنكبة بعض قادة الجيش للفتن التى حاولوا القيام بها . ثم تعرض إلى وصف السفارات الأجنبية التى قصدت مراكش لتهنئة المنصور . ومن أبرز تطورات هذه المرحلة الخلاف المغربى — العثمانى الذى دفع المولى أحمد إلى اتخاذ كل وسائل الدفاع والوقوف على أهبة الاستعداد لرد أى تدخل خارجى . غير أن تراجع الأتراك عن غزو المغرب لظروفهم الخاصة جعلت المنصور يستغل وجود القوات المسلحة وينطلق إلى فتح إقليمين صحراويين بالمغرب الجنوبى — الشرقى هما توات وتيكورارين . وكانت آخر أحداث هذه الفترة وصول سفارة من برنو أرسلها أدريس الثالث إلى المنصور ، أملا فى أن يمده الحاكم المغربى بالأسلحة النارية ولكن المولى أحمد اشترط دخول برنو فى طاعته وكتب الفشتالى نص البيعة .

* خلال سنة ٩٩٥ هـ (من ص ٨٧ — ١٠٣) ضمت القوات المغربية جميع المناطق الصحراوية التى تمتد بين وادى درعه شمالا ونهر السينيغال جنوباً ، وقام المنصور بحشد عظيم فى سهول تامسنا لأخذ البيعة من العامة وكبار القوم لابنه ونائبه

على فاس المولى محمد الشيخ المأمون . وأثبت الفشتالى فى مخطوطه فى البيعة الذى يعد من الوثائق الهامة .

* وفجأة نجد أنفسنا أمام أحداث سنة ٩٩٦ هـ . فهل فقدت الكراريس التى كانت تتضمن حوادث سنة ٩٩٣ — ٩٩٤ — ٩٩٥ هـ ؟ أم أن الفشتالى كان مريضاً خلال هذه المدة [فى صفحة ٢٥٩ ذكر الفشتالى « وأما ما قابلنى به عنايته أيده الله عند انغماسى فى العلة المتطاولة لأمد من حولين كاملين . . . »] . وفى سنة ٩٩٦هـ (من ص ١٠٤ — ١٠٧ قامت بشمالى المغرب ثورة تزعمها (ابن قرقوش) وقد تمكن المأمون بفاس من القضاء عليها أخيراً .

* أما أحداث سنة ٩٩٧ هـ فكانت :

١ — (من ص ٥٥ — ٦٥) : تفكير المنصور فى استغلال معادن ملح تغازى بالصحراء المغربية الجنوبية ومراسلته إلى سكية بالسودان فى ذلك . ثم القضاء على ثورات قام بها عرب الخلط بسهول المغرب والقبائل اليمنية بتوات وتيكورارين .

ومن الأحداث أيضاً استرجاع مدينة أجيلا من الأسبان .

٢ — (من ص ١٠٧ — ١٠٩) : فشل المحاولة التى قام بها المغاربة لتحرير مدينة سبته من الاحتلال الاسبانى .

* وفى سنة ٩٩٨ هـ (من ص ٦٩ — ٧٧) أخذ المنصور يفكر جدياً فى فتح السودان للظروف الداخلية والخارجية المساعدة ، فجمع مجلساً للشورى ضم كبار القوم وقادة الجيش . واقتضى النظر أخيراً تهيىء الحملة ومكاتبة قاضى تنبكتو بالسودان للدخول فى الطاعة .

* ثم فى سنة ٩٩٩ هـ (ص ٨٠ — ٨٧) تقدمت القوات المغربية المسلحة إلى غزو السودان فطالب اسكيا اسحاق بالهدنة مقابل خراج عظيم سنوياً وتوقف القتال فى انتظار جواب المنصور .

* وخلال السنوات الثلاث الأولى من مطلع القرن الحادى عشر للهجرة (١٠٠٠ — ١٠٠٢ هـ) [من ص ١١٦ إلى ص ١٢٩] استؤنفت الحرب ضد السودانيين إلى أن الجو للمولى أحمد المنصور .

* وفى السنتين التاليتين (١٠٠٣ — ١٠٠٤ هـ) [من ص ١٣٨ — ١٦٠] اشتعلت بشمالى المغرب وبجبال الريف ثورة خطيرة تزعمها أحد أبناء إخوة المنصور وهو الناصر بن عبد الله الغالب ، إلا أنها انتهت بالفشل . ولإبراز مدى خطورتها نشير إلى أن المنصور قد بعث رسائل عديدة إلى الشرق الإسلامى (مصر ومكة) وإلى مختلف الأقاليم المغربية ليزف بشرى القضاء على هذه الثورة .

* وأخيراً قام المنصور عام ١٠٠٦ (من ص ١٦٠ — ١٧٠) بتشريد قبائل عرب الخلط بسهول الغرب ، لأعمال النهب والتخريب التى قاموا بهـا ولقيامهم بتأييد الناصر زمن ثورته ضد عمه المولى أحمد المنصور .

* * *

(ب) الناحية الحضارية : وتشمل الحديث عن المظاهر الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التى عرفها المغرب خلال عهـد المولى أحمد المنصور . وقد حاول الفشتالى إلقاء الضوء على الكثير من هذه المظاهر . مما زاد فى قيمة المخطوط الذى بين أيدينا . ومظاهر الحضارة المغربية زمن المنصور ، وكما أثبت ذلك الفشتالى ، تميزت بالصفات الآتية :

١ — المظهر الإدارى . ويستلفت النظر هنـا بعض الأعراف الدبلوماسية التى كانت بالمغرب والتى قل أن نجد لها مثيلا فى مصدر تاريخى آخر ، وعلى سبيل المثال نورد صوراً لذلك :

استقبال المنصور لوفد برنو (ص ١٦ — ١٧) حيث ذكر الفشتالى : «وكان يوم سلامه يوماً مشهوداً حسناً وفخامة وأبهة وجلالة ، جلس لهم أمير المؤمنين أفخم جلوس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقباب الخلافة بإفراك ، واستوقف الوالى والماليك سماطين من التوأمتين إلى القبة العربية ثم منه إلى باب المعسكر القبلى ، فغودى بالرســول يخترق السماطين حتى أنزل بالديوان وكان الملأ من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً به وكرسي الأمانة وسرير الخلافة منصوب به وآماط الإمامة الكريمـة ممهدة وأوطيتها مبسوطة والمهابة قد أخرست الألسن وخشعت القلوب والأبصار فجلس الرسول هنالك ملياً ثم غودى به على سبيل الترقى إلى القبة العربية

فتلبثت بهـا ريثما جاء الإذن الـكريم بإيصاله إلى مقر الأمانة الـكريمة العلية . . . فنودى به إلى التوأمتين فمثل بين يدى أمير المؤمنين ... فأدى الرسالة وقضى فرض التهنية وسنة الهدية ... ثم انصرف على رسله إلى معسكر ولى عهد الخلافة ... فأشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ... واستدرج إلى أن وصل لولي العهد وقد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود ... » .

— استقبال المنصور لأبنائه وبالأخص ولى عهده المأمون : فقد وصف الفشتالى لقاءهما عام ٩٩٢ هـ عندما عزم المولى أحمد على إعلان بيعة ولاية عهد إبنه هذا بسهول تامسنا (ص ٣٢) « ولما كان يوم وصول ركابه العالى وطلوع طلائع السعد أمام موكبه الزاخر العباب ، ركب أمير المؤمنين أيده الله فى العساكر للقائه تـكرمة وإجـلالا وبروراً بمقدمه وبرز إلى الصحراء خارج معسكره السعيد فوقف فى الأجنـاد وأقبل المولى الأمير أبو عبد الله فى كتائبه وقد ملأت الربى والأباطح فى أفخم زى وأحسن أبهة وأجمل شارة وانبرت الـكتائب يتسرب للسلام على أمير المؤمنين فوجاً من بعد فوج حتى قضى جميعهم فرض التحية وتدافع المولى أبو عبد الله فى موكبه المتلاطم وقد تطلع خلال الرايات كالـكوكب الدرى ولما هوى إلى الأرض ساعياً على أقدامه الطاهرة للثم الركاب العلى الأمامى شرفه الله وقضاء فرض التحية راجلا برز أمير المؤمنين أيده الله عن العساكر ووقفت بمركزها وتقدم وحده للقائه مرحباً وشفيقاً ومتبسطاً حتى أمكنه فى لثم قدمه المشرفة وحنى متطاطئاً من صهوته على رأســه حتى قبله واستركبه إلى جنبه وسارا معاً فى الولاية والعساكر ... » .

— ومن المظاهر الإدارية حرص المنصور على أخـذ البيعة بولاية العهد لإبنه المولى محمد المأمون . لضمان استمرار الحـكم فى خلفه وحتى لا تضطرب الأوضاع بعد وفاته كما حصل فى العهود السابقة . وقبل أن يتم إعلان بيعة ولاية العهد « جمع أمير المؤمنين أرباب الدولة وأهل الحل والعقد وسائر الأجناد والعساكر وجلس لهم المولى أبو عبد الله بخيمة أمير المؤمنين العظمى فازدحم الناس على تقبيل يده ومصافحته بالبيعة واقتضيت منهم الإيمـــان بمحضره فـكمل الغرض فى ذلك الجمع المبارك » . (ص ٣٢) .

وعن الطريقة التى تم بها أخذ بيعة المأمون كولى للعهد ، ذكر الفشتالى فى

الصفحة ٩١ كيف « اجتمع باجتماعها فى ذلك المخيم السعيد والمشهد المبارك أمم لا تحصى فى أجناد المغرب ورؤساء القبائل والأشياخ وسائل أهل الحل والعقد ومن يشار إليه فى المغرب بالبنان ... وأمرنى أيده الله بالقيام على رؤوس الأشهاد برسم البيعة فرفعت بقراءته عقيدتى ، ليتأدى إلى الناس فهمه ، وبعد فصوله وقام إلى جنبى قاضى الجماعة . . . أبو القاسم بن على الشاطبى مفسراً لما أشكل على النـاس من أحكام البيعة ...

. . وإندفع الناس للبيعة وإعطاء صفقة الإيمان وتسابقوا إلى ذلك وإزدحموا عليه إزدحام الحجيج على الحجر الأسعد . . وكان الأمراء بنو الإمام أمير المؤمنين أيده الله تأخرت بيعتهم عن الحجم الغفير إكراماً لهم . . إلى آن عقد لهم من الغد مجلس خاص بهم فى القبة العربية . . فسمعوا وأطاعوا وأوقعوا على الرسم علاماتهم بالرضى والقبول . . »

— وعن الإدارة المركزية وأهم عناصرها ، يستلفت نظرنا القصر الملكى الذى هو فى آن واحد مقر إقامة الخليفة المنصور ومركز إدارته التى تضم : قاضى الجماعة ، مشيخة العلم ، الحاجب ، قائد القواد ، الـكتاب ورؤساء الجند . . وفى الصفحة ٢٠٤ نجد وصفاً دقيقاً ليوم من أيام الديوان : « جلس أهل الإيوان وأرباب المناصب وأكابر الدولة الذين عليهم مدار الأمور يرقبون خروج أمير المؤمنين ثانياً فإذا حاز وقت الزوال أو كاد يخرج للجلوس وابراسيم أمور ملـكه وسلطانه فيحضر خواص بساطه الـكريم وكاتب سره ويناوله ماورد على أبوابه الـكريمة من الـكتب من سائر الأقطار لـكتب مايخصه منها وتفريق غيره على الـكتبة وتعرض عليه القضايا ومهمات الملك ثم يؤذن لسائر الأكابر والـكتاب وأولى المناصب فى الدخول فيأخذ عند ذلك أيده الله فى العلامة أن كان اليوم يومها فتارة بيده الـكريمة أن كانت الـكتب أجوبة أو ظهائر وتارة بالطابع أن كانت مظالم أو براوات الأشغال والعطاء أما يأخذ فى إملاء الأجوبة على الـكتبة أو فى سماع ما يرفعه أهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر على ذلك حتى يصلى الظهرين غالباً يوم الناس فيهما فيدخل إلى قصره أيده الله ويتفرق الديوان . . » .

— وإلى جانب أيام الديوان التى هى السبت والاثنين والأربعاء ، هناك أيام

الراحة « وهى التى تتخلل أيام الديوان لا يحضرها إلا الندمان من الخاصة أو من ينادى من غيرهم لخدمة تعرض أو مشورة تتعين أن كان من أهلها » [ص٢٠٢].

— ومما امتازت به إدارة المنصور حرصه الشديد على « معرفة أخبار الآفاق الشاسعة والأقطار البعيدة والإطلاع على أنباء الملوك من أضداده وأوليائه وبث أصحاب الأخبار فى البلاد دانيتها وقاصيتها وأذكاء العيون فى سائر جهات ممالك من داره إلى المغرب بل إلى قاصية السودان اليوم من ملكه . . ولقد بلغ به الإغراق فى مذاهب الحزم أيده الله إلى أن اخترع لهذا العهد أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الإطلاع عليه من أسراره ومهمات أموره وأخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملغزاً مستغلقاً فلا يجد المطلع عليه باباً يدخل منه إلى فتح شىء من معاين الكتاب . . ثم نوع أيده الله هذا الخط إلى أنواع يخص ولى عهده منها بنوع يرجع إليه فى فك معمى كتبه ثم إذا جهز أحداً بالمساكر أو بعثه فى غرض رسالة أو قلده جانباً من أطراف ممالكه وثغوره ناوله خطاً من تلك الخطوط يفك به رسائل أمير المؤمنين ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الأخبار وخبايا الأسرار » (ص ٢٠٦ — ٢٠٧) .

— كان للقاضى دور هام فى المغرب كبلد إسلامى ، زمن المولى أحمد الذى كان « أشد الخلفاء إنقياداً للشرع منصفاً حق من نفسه فيما يتوقف عليه حكم الله » (ص ١٩٤) ، وقد بلغ به الأمر أن « سوغ للقاضى توجيه الحكم على من يتعين عليه حق فى داره الكريمة » (ص ١٩٦) . كما كانت لصاحب الشرطة مهمة السهر على الأمن والنظام فى المدينة (ص ١٩٤) . وفى الولايات والأقاليم هناك العمال الذين تناط بهم مسؤولية تسيير ولايتهم وفق توجيهات المولى أحمد المنصور (ص ١٩٤) ، وإذا جار أى مسؤول على الرعية ورفع المظلومون ظلاماتهم إلى العاصمة مراكش فان المنصور سرعان ما يظهر « غلظته على جبابرة العمال المشهورين بالحيف وإرتكاب الجور وموالات تكلمه عليهم وشحولهم بأنواع العذاب والانتقام وقذفهم فى السجون والمطابق مقرنين فى الأصفاد ومصادرتهم » (ص ١٩٤) .

— وكنموذج للرسائل التى كان المنصور يبعثها إلى من يهمه الأمر فى الداخل أو الخارج أورد الفشتالى فى الصفحة ٧٤ نفس خطاب المولى أحمد إلى عمر بن محمود

ابن عمر قاضي تنبكتو بالسودان « ونص الكتاب . . . بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرقة التي حظت فيها عين الإمام وبنان سط النبي عليه السلام إسمه الشريف المبارك الكريم بتدبيج يبهر العيون حسناً ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسملة ومبدأ الخطاب الكريم» .

— هذه جوانب عن الإدارة المدنية ، وعن الإدارة العسكرية المغربية زمن المنصور . إهتم الفشتالي بوصف القوات العسكرية المسلحة وتنظيمها وطرق تدريبها وعن الفتوحات العديدة التي قامت بها ، دون أن يغفل عن وصف معداتها وأسلحتها وطرق قتالها .

فالمنصور أولى الجيش عناية خاصة منذ توليته « فاختص رؤساء العرب وأكابر الدولة منهم بالمسورة والتدبير وقيادة عساكر الخيل البزنية واصطفى من العجم موالي أنبتتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى إلا أضخم حالا وأعظم شأناً » (ص١٩٧) . وجعل له ديواناً خاصاً به « . . من أمثالهم ومن دونهم من ضمه الحجر المتخذ لهم بايوان الخلافة العلية » (ص ١٩٧) . ولم تمض فترة من الزمن حتى أصبح عدد القوات المسلحة «عدداً جماً يضاعف أمير المؤمنين منهم مئون عما كان أيده الله عني لعهده الكريم بجمعهم والإستكثار منهم » (ص ١٩٧) . وقد كان المنصور متأثراً عند إنشائه للجيش المغربي بالأتراك العثمانيين الذين كانوا قد اشتهروا بقوة وبطولة الجيش الإنكشاري « . . من عساكر النار المعروف بجيش الإنكشارية) ص ١٩٧ . لذا فقد دخلت إدارة الجيش ألفاظ أجنبية كثيرة مثل « لأن باي لفظة عجمية معناها قائد القواد » ص ١٩٧ . وغيرها .

وفيما يتعلق بتدريب الجند على الرماية وإصابة الهدف ، فقد جرت العادة بأن من « أصحاب الغرض بسهمه وقرطسه شاد بذكره المشيد وصدع باسمه فيتناول الحصة المعلومة فتنبعث المنافسة الواقعة بين القوم في ذلك على مزيد التدريب والتخريج في الرماية » [ص ١٧٢ — ١٧٣] . واعتادت من جهة أخرى القوات المسلحة من المنصور « رميها المأزق الجلاد ، دروباً على الدربة وارتياضاً على صدق المصاع في ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء وبعيداً عن التراب والإخلاد إلى الراحة

والركود والسكون إلى الدعة لما يؤدى إليه ذلك فى وهن عزائمهم ولين عرائكهم وفل شبي شوكتهم عند الحاجة إليهم » ص ٧١ فكانت بذلك القوات المغربية مثالا النظام « لما مدنوا عليه من الانضباط وهذبهم من ثقاف السياسة حتى لو سيموا سم الخياط لوسعهم مجالا مع تناهى الشركة والبأس والشهامة سيرة دربوا عليها حتى صارت لهم سجية وغريزة طباع لم يتات النسج على منوالها » ص ٧٧ .

لقد نظم المنصور قواته المسلحة وجعلها عدة فرق أهمها : « جيش الأصباحية من جيوش النار» ١٩٧ . و «جيش الموالى العلوجى من عساكر النار المعروف بجيش الإنكشارية » ١٩٧ و «جيش الأندلس من جيوش النار» ١٩٧ ثم « جيش أهل السوس فى عساكر النار بحضرة الخلافة العلية » ١٩٧ .

بالإضافة إلى العديد من القبائل التى ألحقها المنصور « بديوانه فتميزوا بشائر الجندية ولبسوا شاراتها والحق رؤساءهم بطبقات القواد اقطعهم ما شاء ومن البلاد » [٥ ، ٦١] وفيما يرجع للمعدات الحربية ووسائل القتال ، فالفشتالى أبرز مدى الكفاية المنصور بذلك لدرجه أن الجيش المغربى قد أصبح قوة « قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة » ص ٧١ فأحرز لذلك انتصارات متوالية وفتح أقطاراً ومناطق واسعة : « . . . فزحفوا إليهم حينئذ من ساعتهم وأحدقوا بهم فى معتصمهم ونصبوا عليهم مدافع النار . . . وزجروهم بحصى السماوى منها وألحوا بالحربى على أسوارهم ودلفت إليها الأجناد وتنادوا بشعائر النصر . . . وأرعدت رعود النار من كل جهة فأرسلوا عليها شآبيب الرصاص وأطبق عليها ليل ديجوجى من البارود وتبوأ الرجل مقاعدهم للقتال . . وحمى الوطيس وضجت الأرض من صواعق النار الموقدة . . » (٤١ — ٤٢) هكذا وأعم الأمن والإستقرار كل أطراف الإمبراطورية المغربية التى كان المنصور قد أقام بها قواعد عسكرية «فثقف بهم الجهات وسد الثغور والمسالح» (ص ٣٢) ، علاوة على تحصين العديد من المدن الشاطئية « أسفى وبلد أزمور . . ومدينة أصيلا وسائر الأطراف والثغور ٢٨١ والداخلية كمدينة فاس التى بنى بها قلعتين عظيمتين مسلحتين فموذ بهما أيده الله المدينة من كل طارق يطرق إلى غابر الدهر » (٢٧٨) .

وأخيراً لقد اهتم المنصور بالأسطول واتخذ من الرباط — سلا والعرائش قواعد لقواته البحرية « ثم صرف همته أيده الله إلى إتخاذ الأسطول برباط سلا أمنه الله فتعددت مراكبه » . التى منها « القطائع والشوانى » وقد كان الأسطول يعمل تحت إمرة قادة أكفاء مثل « الرايس شعبان فهو اليوم قبطان الأسطول » (ص ٣٠٣) كلفوا من قبل المنصور بالقيام بأعمال الجهاد فى البحر « وهو اليوم أيده الله لهذا العهد بصدد الإكثار من الأساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين . . . حتى يبلغ أمل الإسلام فى الجهاد ويفتح من أرض الأندلس أقصى البلاد . . . » (ص ٣٠٣) أما علم المنصور فهو « اللواء العظيم الأبيض الذى هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصور » (ص ٢٠٠) .

٢ — **المظهر الاقتصادى** : يتضمن المخطوط معلومات اقتصادية هامة عن المغرب فى عهد المنصور : ففيما يتعلق بالزراعة نجد بأن المولى أحمد قد أقطع القبائل أراضى واسعة لزراعتها وأن هذه السياسة قد نجحت إلى حد بعيد « وأقطعهم ماشاء ومن البلاد فبهت بذلك أحوالهم » ص٦١ علاوة على أن استقرار المهاجرين الأندلسيين قد أثر على إقتصاد البلاد وساعد كثيراً على ازدهارها ، « أقطعتهم الدولة أراضى فسيحة بالجانب الغربى من خصها الأفيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك إلى اليوم على ما أنساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به » (ص ٨) . ومن مظاهر تطور الزراعة فى المغرب تشجيع زراعة قصب السكر التى أصبحت تشمل مناطق واسعة عدا سوس موطنها الأول « ثم انطلق العمل وعم الاغتراس بالقصب الأوطان » (ص ٢٨٠) .

وبعد فتح السودان وإلحاقها بالخلافة السعدية أخذ المنصور يفكر فى طرق استغلال الأراضى الخصبة الموجودة خاصة على ضفاف نهر النيجر « وهو أنه يمكن منه اقتطاع الخلجان والأنهار المغلقة المشعبة الذانب والجداول وأعلى البسائط مناسبة الأراقم خلال الأباطح والوهاد التى تغل وضروب المزارع وتنتظم عليها الحدائق الغلب والبساتين ومفروش الشجر والثمار والأدواح الأشبه ملتفة الأغصان والرياض المفوفة الخمائل . . فتعمق على واسطة الأقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجموم أقوات

وحبوب وفواكه جنية وقطوفها دانية » (ص ١٣٠) وفعلا فإن القائد المغربى « محمود باشا أخذ فى إنشاء نهر اجتلبه من غمرة واقتطفه من تياره ويمكن ذلك من غير ما موضع منه ، وعن قريب إن شاء الله تقود تلك الأمصار تزهوا على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتمير القاصى والدانى من أقاليم السودان » (ص ١٣١) .

أما الصناعة فقد ازدهرت بدورها ونمت الحرف والصنائع وتعددت مجالات نشاطها . للمتطلبات الجديدة التى فرضتها ظروف المغرب الحديث ومن مظاهر ذلك :

— مصانع السكر : « ومن أعظم آثاره ... المعاصر السكرية التى ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشوشاوة من عمل مراكش» (ص ٢٧٩) . وبكل معصرة من هذه المعاصر « ما شئت من برك رحيبة قرجفان كالجوارب وقدور راسيات ولوالب فلسفية وحركات هندسية » (ص ٢٠٠) . ويعمل بها العدد العظيم من العمال « وإذا ألقيت عصى التسيار بمعصرة منهما رأيت مجمع الورى وأول الحشر وقرية النمل وكورة النحل ومدرج الذر لكثرة ما ضمت فى العملة ومشرت من الخلق ولا تسئل عن هولها ولغط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة أحوالها » (ص ٢٨١) . وعن سير العمل بكل معصرة نجد « ديار الطحن . . . ومخازن السعر واهواء الحبوب والبرك . . تمتاز منها قدور الطبخ مياه السكر أوان الطحن ثم إفراغ القدور الراسيات والجفان والجوابى . . . ثم أجرى أيده الله لاستدارة رحاها المطيمة الأخشاب الجافيـــة الإجرام النهر المقروف باسيف أنوال » (ص ٢٧٩) .

— معامل الأسلحة « وإما ما يفرغ مع الأيام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة الماثلة قرب أبوابها الشريفة من قصبتهم المحروسة المذكرة بنوفير الأكيار وزبر الحديد لفح جهنم » (ص ٣٥٣) .

— دور صناعة السفن « ثم صرف همته أيده الله إلى إتخاذ الأسطول برباط سلا أمنه الله فتعددت مراكبه » ص ٣٥٢ وعلاة على الرباط وسلا هناك العرائش « ولما كمل بناء حصن الفتح الذى هد به أيده الله تعالى باب البحر ومتبوأ السفين فى مرسى العرائش نقله إليه وأنزله به » (ص ٣٥٣) .

وهناك المصانع اليدوية للحرف المختلفة التى عدد الفشتالى عدداً منها مثل : معامل الشموع « ويعكف على خدمة رياض الشموع التى تجلوا محاسن هذه الدعوة الجهابذة الذين يبارون النحل فى نسج أشكالها لطفاً وإدماجاً » (ص ٨٨٢) ، والحسك « واستحضر من أنواع الحسك أمام الحضرة كل قوراء مصنوعة من الخشب » وآلة البخور « ومثلت أمام الحضرة الأمامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضية الصوغ بديعة النقش » ص ٨٣ه والنجارة « جمع لها أيدى العملة فى صناع النجارة » (ص ٧٢) .

وشمل الازدهار عالم التجارة أيضاً لوجود العوامل المساعدة من أمن واستقرار داخلى ، ولاتساع الامبراطورية المغربية واختلاف أقاليمها ثم للروابط الحسنة التى كانت للمغرب مع الدول المجاورة ، وخاصة دول أوربا الغربية الناهضة . وهكذا « استفحلت الدولة اليوم لعهده الكريم وتفرقت التجارة وتضاعف خراج المعادن » (ص ١١٤) كما تطورت طرق المواصلات ووسائل الاتصال بين مختلف المدن والبوادى ، وأكثر ما كان المسافرون يعتمدون على « الأبل إذ هى ملاك السفر البعيد ومركز مداره » (ص ٧٠) . وعلى العربات « وأعمل فى نقلها العجل » (ص ٧٣) ويركبون السفن فى البحر . أما المولى أحمد المنصور فقد كان يستعمل فى أسفاره « افراك وهو القصر المعد لمنازلهم أيدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من كتان مترف » (ص ١٤٥) و « السياح وهو قصر اتخذه مولانا الإمام ... من الخشب المولف ذات الألواح بعمل عجيب حموه فيرتحل به فى الأسفار القريبة » (ص ١٧٤) . ومن الأمثلة التى ساقها الفشتالى عن طرق المواصلات : الطريق الواصل بين مراكش وفاس والماربوادى السد وقلعة الكرار وتادلا وأم الربيع وأبو الحمائر وعين أغبال ثم مكناسة وراس الماء فمدينة فاس . كما جاء فى وصفه للسفر الذى قام به المنصور إلى فاس (ص ١٠٧) .

وعن العملة المتداولة فى المغرب زمن المنصور هناك : الذهب العين « وما زال يبيع منها فى كل عام بألاف من الذهب العين) (ص ٥٠١) ، « ... كانت نهايته ستين الفاً من الذهب العين » (ص ١٠) .

والدينار « فانهالوا عليه بين يدى الإمام بشتابيب الدنانير » (ص ٥٦) .

والدرهم « فكان يتمشى له فى كل شهر من لدى مقدمة إلى حين منصرفه تسعمائة درهم » (ص ٥١٠) .

وخلاصة القول : لقد ازدهرت أوجه النشاط الاقتصادى بالمغرب ازدهاراً عظيما دفع الفشتالى إلى القول بأن دولة المنصور قد « أثرت العديم وأكسبت المحروم » (ص ١٤٦) فلا غرو إذا لقب لأجل ذلك « بالمنصور الذهبى » .

٣ — **المظهر الاجتماعى** : إهتم الفشتالى فى «مخطوطه» بإبراز صور مختلفة عن الحياة الإجتماعية بالمغرب فى عهد المولى أحمد المنصور ، فقد وصف طبقات المجتمع ولا سيما حاشية المنصور ، وأثبت العديد من العادات والتقاليد الإجتماعية ، كما وصف مآثر المنصور العمرانية كقصر البديع بوجه خاص .

أما المجتمع فقد كان يتكون من « شرفاء وقضاة وفقهاء وكتاب وشعراء وقراء وخطباء وأجناد ورؤساء وأشياخ نبهاء وعمال » (ص ٢٦٣) . والطبقات التى أشار إليها المخطوط :

— «الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية المؤذنين النعارين فى السحر واذان » (ص ٢٨٢) .

— «طائفة الصحافين المحترفين بحمل خدور العرائس عند الزفاف» (ص٢٨٢).

— طبقة « أهل الآلة والغناء » (ص ٣٠٠) .

وأما العادات والتقاليد فهناك :

— الاحتفال بيوم عاشوراء حيث يقيم المنصور حفلا « لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة وأحوازها وذوى الحاجة من أهلها » (ص ٣٠٠) .

— ولع المغاربة باللباس الأبيض « ثم يقتعد أريكة قبته وسرير ملكه وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة » (ص ٢٨٢) . واستعمال الطيب (ولم يزل فى خلال دولة الإنشاد يختلف الظرفاء من الخدام على الناس لاخضال الملابس بماء النعيم المصعد من نسير الورد والأزهار الأرحية يسكب عليهم رشها بطاقات الرياحين والآس سكبا غدقا فى الحجور والأردان » (ص ٢٩٩) . والبخور « مثلت أمام الحضرة

الأمامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل » (ص ٢٨٣) . واعتناؤهم بالطعام والشراب « ثم تنهل على الحفل عارض النعمة من أبواب القصور الكريمة ويخص بالجفان والأخونة والصحون والطيافير الرحيبة الأقطار جامعة لألحم المسارح وأنواع الطير دواجن البيادن . . فلا تسئل عن التفنن فى الطابخ والتنويع فى المآكل والإرضاخ فى النعمة . . . ويشرح مجمل الإرضاخ بانسكاب الحلاوى المتنوعة والمربيات المتفننة » (ص ٣٠٠) .

ومن العادات أيضاً الخروج إلى الصيد (ص ١٠٧) وقذف طلقات المدافع فى العيدين وعند ورود البشارة « وإذا استهلت رعودها فى العيدين عند العود من المصلى أو لورود بشارة عظمى » (ص ٢٧٨) وإقامة الإستعراضات « انتظم عالم من النظارة فى سماطين بما فى الطريق . . قد جللوا جنبق الطريق وركبوا الأسوار والأسطاح وبرزت ربات الحجال من أعلى المنازه والصروح » (ص ٢٨٢) .

وهناك عادات تقام فى مناسبات دينية : عند التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج (ص ١٢٧) ، وخلال شهر رمضان المبارك (١٧٢) وبمناسبة ذكرى عيد المولد النبوى حيث توجه « الرقاع إلى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين . . . فيهبون للدعوة من الأماكن النائية ويعكف على خدمة رياض الشموع التى تجلو محاسن هذه الدعوة الجهابذة الذين يبارون النحل فى نسج أشكالها . . . حتى إذا كان ليلة عيد الميلاد الكريم . . . وحضر وقت زفاف العذارى من رياض الشموع إلى الأبواب العلية الشريفة وحضرت الآلة الملوكية . . . انتظم عالم من النظارة سماطين بحافى الطريق . . . وبرزت جذوع الشموع كالعذارى . . . فارتفعت أصوات الآلة وقرعت الطبول وضج الناس بالتهليل والتكبير والصلاة على النبي الكريم . . . فإذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا أمير المؤمنين أيده الله فيصلى بالناس ثم يقتعد أريكة قبته . . . وتسايل الناس من البلد على طبقاتهم . . . تقدم أهل الذكر والإنشاد . . . ثم حضرت دولة إنشاد الشعراء . . . ولم يزل فى خلال دولة الإنشاد الظرفاء من الخدام على الناس لإخضال الملابس بماء النعيم . . . ثم تنهل على الحفل عارضة النعمة . . . ويشرح مجمل الإرضاخ بانسكاب الحلاوى المتنوعة . . ثم يختم بالشكر والدعاء . . . » (ص ٣٠٠) .

وأخيراً هناك مناحيه العمرانية فى عهد المنصور وقد تميزت بقصر البديع الذى « طابق الاسم المسمى لاحتوائه على كل نوع من أنواع البدائع وغرائب العجائب » (ص ٢٩٧) .

٤ — **المظهر الفكرى** لقد وقف الفشتالى طويلا عند تعرضه للناحية الثقافية بالمغرب زمن المولى أحمد المنصور ، حيث برز مختلف النشاطات الفكرية واهتم بصورة خاصة بالمنصور العالم الأديب الشاعر العبقرى والمؤلف ، ثم بحاشيته التى ضمت العديد من رجال العلم والأدب ، ولا غرابة فى ذلك فهو العالم الأديب وأحد أعلام الفكر البارزين فى حاشية المنصور ، وعلمه كثيراً أن يبرز قيمة هذه الطبقة العلمية لإظهار مكانتها ، ولأن فى التنويه بها تنويهاً بالمولى أحمد المنصور الذى جمع إلى جانب صفات القائد السياسى الحازم ، مزايا المسلم العادل النزيه ، ورغم أن اهتمام الفشتالى انحصر فى الخليفة المنصور ودائرته الخاصة ، كما هو الشأن فى جميع المظاهر السياسية والحضارية التى تعرض لهـا ، فإن الباحث يستخرج الكثير من المعلومات المتعلقة بالناحية الفكرية والنشاط الثقافى :

فطالب العلم يلقن أولا مبادىء القراءة والكتابة ثم يشرع فى حفظ كتاب الله العظيم ، وبعد آن ، يأخذ فى دراسة مختصر خليل ، الرسالة ، مقدمة ابن آجرم ، ألفية ابن مالك ، لامية الأفعال ، علم الحساب ، علم العربية ، الألفية ، أصول الدين ، كبرى السنوسى ، حاشية الصغرى ، حاشية الكبرى ، شرح ابن زكريا ، الكبير والصغير ، ايساغوجى والشمسية فى المنطق ، علم العروض ، تلخيص المفتاح والإيضاح ، الكتب الخمس ، الحديث ، الفقه المالكى ... (ص ٢١٩ وما يليها) .

وبعد الدراسة والتحصيل تسلم لطالب العلم إجازة خاصة « وقرأت عليه أوائل الكتب الخمس بل البخارى والترمذى ومسلم وأجازنى فيها وفى باقى الكتب الخمس بسند متصل مذكور فى فهرسته التى كتب برسمى وأجازنى فيها بكل ما له من مقروء ومسموع رحمه الله » (ص ٢٢٠) .

وعن الجو العلمى : نلاحظ حلقات العلم التى تعقد خاصة خلال شهر رمضان المعظم « ومنها قيـام رمضان وإحياء لياليه المباركة ... يلتقى لذلك مشيخة القراء

والأسانيد المبرزين فى السبع وحسن الأداء والتلاوة ويستنفرهم لشهود رمضان معه فى الحواضر... ثم يبرز صباح كل يوم من أيامه لسماع الحديث الكريم أيضاً وسرد الجامع الصحيح للبخارى بين يديه يعقد لذلك مجلساً حافلا من أهل العلم ومشيخته برسم المذاكرة والتفهم فى أسرار الأحاديث النبوية ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع إليها فيما أشكل » (ص ١٧٢) ، وتشجيع المنصور للعلم والعلماء وطلبة العلم : فالعلماء يؤثرهم المنصور « بالمواكلة معه فى مائدته مثنى عن حضور بعضهم أو جميعهم فى الحضر والسفر ويتاحفهم بهداياه وطرفه إلى منازلهم وأبياتهم وكل ذلك إجلالا للعلم ومحبة فى أهل الخير وتودد الأهل الدين » (ص ١٨٦) . وكذا طلبة العلم « وإقباله على كل صنف منهم وتضعيف الجرايات لهم وإيثار المجتهد وذوى الفهم منهم بمزيد العناية والإقبال فعناية أشرقت على جميع العلم بأنوارها وعمت كافتهم جدتها » (١٨٦) . ونتيجة لذلك « تنافس الناس لهذا المهد الكريم من أجل ذلك فى اقتناء العلم والاحتراف بصناعته الشريفة لاعتزاز أهله وسمة أرزاقهم حتى كثير حاملوه واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبغ التأليف والتصنيف .. وكل ذلك بعناية أمير المؤمنين أيده الله وشريف همته وصالح نيته » (ص ١٨٦) .

ومن مظاهر تشجيع المنصور للعلم : حثه العلماء على التأليف « وشهد أمير المؤمنين أيده الله الهمم وأغرى بكل فن أهله وجذب بضبع كل فهامة فتنافس الناس ونبغ التأليف فى أيامه السعيدة » (ص ٢٦١) وقد كان المنصور من الذين ألفوا تآليف عديدة « تسامت همته الشريفة أيده الله إلى تدوين كتاب فى علم السياسة . . . وسمى أيده الله تعالى هذا التأليف الشريف بكتاب المعارف فى كل ما تحتاج إليه الخلائف) (ص ٢٥٨) . وسعيه إلى إحيـاء المخطوطات العلمية الهامة بأن يأمر بنسخ النسخ العديدة منها وتوزيعها لتعميم الفائدة « ومات الشيخ رحمه الله وتركه منتبذاً فى مسودته بين أوراق خزانته ولم يبرزه للنـاس فتلافى مولانا الإمام أمير المؤمنين أيده الله أمره وبحث عنه فرفعه إلى مقامه العلى أولياء الشيخ مبـدد الشمل فتوجهت إليه العناية الكريمة فانتظم جمعه وترتبت قلادته وكتب الله لمولانا . . . مثوبة استخراجه من لفيف الإهمال وإنقاذه من لهوات التلف » (ص ٢٦٢) .

على أن شهرة المنصور العلمية جعلت بلاطه مقصد الكثير من رجال العلم والأدب المغاربة والمشارقة على السواء « قد ارتحلت إليها الشعراء من الأقطار القاصية والآفاق الشاسعة وضربوا إلى بابه أكباد الإبل » (ص ٢١٠) حيث وجدوا منه حسن الضيافة والاستقبال « وأما صلاته الجزيلة أيده الله تعالى وهباته الجسيمة الجليلة للشعراء ومن يفد على حضرته العلية من وفود الأعيان والعلماء وذوى الحاجات المنثالين على بابه من كل قطر وفى كل وقت فأجل من أن يحصى » (ص ٢٠٣) . وأما كبار العلماء المشارقة خاصة الذين لم تساعدهم ظروفهم المختلفة على التوجه نحو المغرب ، فقد أرسلوا إليه مؤلفاتهم وأجازه البعض منهم كتابة « ومن المشايخ الأعلام الذين أجازوه أيده الله كتابة ومراسلة من الشرق إلى الغرب الشيخ الإمام . . . رئيس أئمة العلم بالديار المصرية . . . حجة الإسلام . . . أبو عبد الله محمد بن أبى الحسن البكرى الصديقى » (ص٢٢٢) « وممن أجازه أيده الله كتابة ورسالة الشيخ الإمام . . . فخر العلماء الجلة قاضى القضات المالكية بالديار المصرية . . . الشيخ بدر الدين القرافى » (ص ٣٢٦) . وقد أثبت الفشتالى نص المراسلتين اللتين أجاز بهما المنصور . وهما من الوثائق التاريخية الهامة التى تضمنها المخطوط إذ يندر وجودها بمؤلف آخر ، ثم إنهما قد تضمنتا دراسة شاملة للنشاط الفكرى والعلوم الدينية بصفة خاصة فى مصر والشرق الإسلامى خلال أواخر القرن العاشر للهجرة الموافق لأواخر السادس عشر للميلاد ، وعلى سبيل المثال ذكر الشيخ القرافى فى إجازته « ورتبت هذا المطلوب على فصلين وخاتمة الأول فى الإجازة بسورة الفاتحة ثم بسند الحديث الشريف وأزهاره الفاتحة ، الثانى فى الوصول إلى إمامنا إمام داراً للهجرة وسلسلة فقهه الشريف والخاتمة فى الإجازة وذكر مولدى وما يسر الله تعالى لى من التأليف وأنعم به من فضله المنيف) ص ٢٢٩ وأخيراً ولأخذ صورة واضحة عن ازدهار عهد المنصور من الناحية العلمية ، يفصل الفشتالى القول عن خزانة المنصور « وقد اشتملت الخزانة الكريمة العلية الإمامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف أهل العصر فى كل فن حتى فى الطب والهندسة» (ص ٢٦١) . وأهم التآليف العلمية والدينية التى تضمنتها مثل : مؤلفات العالم أبى عبد الله محمد بن أبى عبد الله الرجراجى الذى جمع بين « تقييدى الإمامين البسيلى والسلوى عن شيخهما صدر الأئمة . . . أبى عبد الله

ابن عرفه » (ص ٢٦١) ، ومؤلفات « شيخ الجماعة أبى العباس أحمد بن على المنجور على رجز ابن زكريا فى علم الكلام) (ص ٢٦٢) ، ومؤلفات « الشيخ الإمام الأوحد الفذ الفريد أستاذ المغرب فى وقته فى علوم القراءات وسيبويه زمانه فى العربية والنحو الشيخ أبى العباس أحمد القدومى » (ص ٢٦٣) ، وتآلف « الفاضل العلامة . . الرحالة الحاج أبى جمعة سعيد بن مسعود الماغوسى التى منها شرح لأمية العجم أملاه بالبلاد الشرقية ورفعه إلى حضرة مولانا الأمام أيده الله وقد وسمه بإسمه الشريف وعليه تقريظات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام) (ص ٢٦٣) ثم « ديوان الشريف الفاضل السرى محمد بن أبى الفضل المكى . . وهو الذى جمع فيه مدائحه فى مولانا الإمام » (ص ٢٦٩) ، ومما تضمنته خزانة المنصور « الكشاف فى علم التفسير وحواشيه للطيبى وسعد الدين والسيد والفارسى وابن خليل السكونى والعلامة ابن البناء وتفسير البيضاوى وحواشيه للشيخ زكرياء والحافظ الأسيوطى . . وكتاب الرضاع على رأى المغنى ومراقى المجد إلى رأى السعد من تأليف العلامة . . أبى العباس أحمد المنجور . . ومغنى اللبيب فى العربية وحاشية الشمونى عليه وشرح ابن الدمامينى وحاشيته . . والإرشادات لإمام الحرمين فى علم الكلام . . والمعامل الدينية للفخر . . وشامل ابن عرفه الذى حاذى به طوالع البيضاوى والصحائف وشرحها للسمرقندى والمقاصد وشرحها لسعد الدين التفتازانى والمواقف لعضد الملة والدين وشرحها للسيد الجرجانى وحاشية حسن جلبي على شرح السيد والأربعين للامام الفخرى والقطب فى علم المنطق على الشمسية . . ومنطق الشفا لابى على بن سينا . . وكافية ابن الحاجب . . وشرح ابن الدمامينى على تسهيل ابن مالك . . . » (ص ٢٢٢)

ويضاف إلى هؤلاء الأديب العالم أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فى تأليفه القيم « مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا » . ورغم أن الأيام قد أتلفت القسم الأعظم منه — وقد تجود به يوماً ما — فان ما بين أيدينا ليؤكد مدى اتساع أفق المؤلف وغزارة علمه وبراعة شاعريته .

* * *

وفى الختام ، لقد نقل عن مناهل الفشتالى مؤرخون عديدون أبرزهم : الأفرانى

فى « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » ، وأبو القاسم الزيانى فى الترجمان المعرب عن دول الشرق والمغرب » ، ومحمد اكنسوس فى « الجيش العرمرم الخماسى فى دولة مولانا على السجلماسى » ثم الناصرى فى « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » وغيرهم ، وخلال العصر الحديث وبعد ضياع مؤلفات الفشتالى ، أصبح الاعتماد كثيراً على ما تقلته هذه المؤلفات عن المناهل من قبيل : إذا ضاع الأصل حل الفرع محله . والآن وقد وجد الأصل ، فإن الباحث عن العهد السعدى وعصر المنصور خاصة ، قد أصبح فى غنى عن الرجوع إلى المراجع السابقة ، خصوصاً فيما يتعلق بالموضوعات التى كانت هذه المؤلفات قد تناقلتها عن الفشتالى . والجدير بالملاحظة هو أن المخطوط الذى بين أيدينا ليس كل ما ألفه الفشتالى بدليل العديد من العبارات التى وردت كقوله : كما ذكرنا ، كما سبق لنا القول ، حسبما قدمنا . . . والتى يفهم منها أن الفشتالى قد سبق له التحدث عن تلك الوقائع ، ولكن جميع ذلك قد ضاع ففى هذه الحالة تحتفظ المراجع التاريخية عندما تنقل عن المناهل معلومات لا يتضمنها مخطوطنا هذا ، عملا بالقاعدة السابقة .

عبد الكريم كريم

إسم المؤلف — Dr. Abdul-Karim Rafeq

عنوان الكتاب : — The Province of Damascus 1723-1783 — Khayats, Beirut, 1966.

عرض وتعليق : د. عبد العزيز نوار

حصل الدكتورعبد الكريم رافق على درجة الدكتوراه من مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ، وكان موضوع رسالته هو هذا الكتاب الذى نحن بصدد استعراضه ، ويعتبر تاريخ آل العظم جوهر هذا الكتاب حيث عقد لهم حوالى خمسة من فصول كتابه السبعة . أما الفصل الأول فعبارة عن عرض للعوامل الأساسية التى كانت لها التأثير الكبير فى تاريخ دمشق خلال الفترة بين ١٧٢٣ - ١٧٨٣ ، وعنى بشكل واضح بالإدارة العثمانية والحج الشامى .

وقد اعتمد فى دراسته هذه على المخطوطات والمؤلفات العربية المعاصرة لتلك الفترة ، وعلى مكاتبات القناصل الفرنسيين ، وعلى وثائق شركة الليفانت الانجليزية ، إلى جانب هذا المراجع الأوربية التى تهم موضوعه . ولكنه — مثل غيره من المؤرخين الشبان العرب — لم يقع على كنز ملىء بالمادة العلمية المتعلقة بتاريخ الوطن العربى خلال العهد العثمانى ، وأعنى بذلك الوثائق المحفوظة فى تركيا .

وللقرن الثامن عشر أهمية خاصة فى تاريخ العرب الحديث ، فمن الممكن أن نطلق عليه « قرن الحركة » ، فالحكام العثمانيون قد بدأوا يستشعرون الحاجة إلى إدخال إصلاحات جديدة على الدولة العثمانية ، وظهرت فى نصفه الثانى الإرهاصات الأولى للحركة الوهابية كما ظهرت عصبيات محلية حاكمة على حساب الحكم المركزى (العثمانى) فى معظم ولايات الدولة العثمانية ، ومن ذلك آل العظم فى دمشق ، وظاهر العمر فى فلسطين وآل شهاب فى جبل لبنان ، والمماليك فى مصر .. الخ . وكان تدهور القوة العسكرية العثمانية عاملا رئيسياً فى استبداد هذه العصبيات بالحكم .

ومن يراجع تاريخ آل العظم فى كتاب الدكتور رافق يجد بسهولة أن حكم آل العظم لم يؤد إلى تغيير جوهرى فى الشام . فلقد استمر الجمود الذى سيطر على الولايات العربية منذ القرن السادس عشر ، والإصلاحات التى قام بها آل العظم كانت فى غالبيتها هامشية وتمت فى إطار محدود هو ولاية دمشق مع أن ولايات طرابلس

وصيدا كانت كثيراً ما تصبح — إلى جانب ولاية دمشق — تحت حكم آل العظم فى آن واحد خلال الفترة سالفة الذكر . ومن ناحية أخرى لم يتطلع آل العظم إلى ما وراء الشام شرق (العراقا) ولا إلى مصر جنوباً . وهذا يرجع إلى أن ولاية الشام كانت طوال تاريخها العثمانى عاجزة عن أن تعيد وحدة الشام تحت حكامها ، حيث كان فى الشام من يقف بقوة فى وجه آل العظم مثل آل شهاب وظاهر العمر وأحمد باشا الجزار الذى استطاع أن يحول دمشق — عاصمة الشام — نفسها إلى تابعة لصيدا . وهذا ما لم يحدث لبغداد أو للقاهرة . بل لقد كانت لدى حكومة المماليك فى القاهرة القدرة على التطلع بقوة إلى وضع الشام والحجاز تحت سيطرتها ، ولقد قام على بك الكبير بهذ الدور ، وكذلك من بعده محمد بك أبى الذهب .

ويربط د . رافق بين غزوتى على بك الكبير ومحمد أبى الذهب بسقوط آل العظم وتدهور مكانة دمشق . وفى اعتقادنا أن التطورات والأحداث الاقتصادية والسياسية الدولية والإقليمية هى صاحبة الأثر الأكبر فى هذا التدهور . ولقد أشار إليها الدكتور رافق إشارات سريعة ، وأهم هذه التطورات والأحداث .

١ — الحرب الفارسية العثمانية وأثرها على تدهور التجارة الشامية العراقية .

٢ — تزايد نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية وأثره على تحويل تيار التجارة الانجليزية إلى السويس بدلا من الاسكندرية وحلب .

٣ — التنافس بين الانجليز والفرنسيين فى المجالات العسكرية والاقتصادية فى حوض البحر المتوسط .

٤ — قطع العشائر العربية لخطوط القوافل بين العراق والشام .

وفى اعتقادنا أن هذه التطورات والأحداث الاقتصادية تحتاج إلى دراسات أوسع ولقد توقعت أن يتضمن كتاب الدكتور رافق مثل هذه الدراسات حيث أن عنوان كتابه يوحى بأنه دراسة شاملة لولاية دمشق خلال الفترة بين ١٧٢٣ — ١٧٨٣ . يكون فيها التاريخ على قدم المساواة مع الاقتصاد والأوضاع الاجتماعية وإننا فى الواقع لننتظر مثل هذه الدراسة من الدكتور رافق .

وهناك سؤال غالباً ما يقفز إلى الذهن عقب قراءة كتاب قيم فى تاريخ العرب الحديث خلال القرن الثامن عشر ، أو التاسع عشر ، وهو :

« من المسئول عن التدهور والجمود الذى أدى إلى تخلف البلاد العربية حتى ما أصابها من استعمار وسيطرة أوربية ؟ » .

ولعل إجابة هذا السؤال كانت جديرة بأن تكون خاتمة لهذا الكتاب ، وهى نفس الوقت تكون بمثابة تقييم لحكم آل العظم حقيقة عنى د. رافق فى الصفحات الأخيرة من الفصل السابع بإبراز مظاهر التدهور الذى أصات دمشق ، كما أشار د . رافق فى صفحات متفرقة من كتابه إلى ما قدمه من خير وشر للبلاد ، ولكننا نفضل أن تكون لمثل هذا الكتاب القيم خاتمة أوسع تبلور تلك الأمور .

وفى دراسته لتاريخ آل العظم ، أشار د . رافق فى غير موضع إلى إحتكار عدد منهم لبعض أنواع التجارة والإنتاج ، وأنهم كانوا يعملون على إرضاء أهل المدن على حساب أهل الأرياف . وهذه نواحى جديدة فى هذه الدراسة فضلا عن التفصيلات الوافية لتاريخ ولاية دمشق خلال الفترة بين ١٧٢٣ — ١٧٨٣ .

ويمتاز كتاب د . رافق هذا بسبك تاريخى وتسلسل يحث المطالع — المعنى بتلك الموضوعات — على متابعة قراءته .

وللدكتور رافق كتاب آخر هو « بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦-١٧٩٨ » . وقد طبع فى دمشق ١٩٦٧ ؛ وهو دراسة للتطورات السياسية التى مرت بالقطرين خلال تلك الفترة ، وعلى وجه الخصوص الظروف التى أدت إلى التوسع العثمانى فى الشام ومصر والحكم العثمانى فيهما ، وكيف بدأ ولماذا تدهور وظهور العصبيات المحلية فى الشام ومصر ، والصراع بين القوى الداخلية العسكرية التى حلت محل انكشارية الدولة فى كل من دمشق والقاهرة ففى دمشق كان هناك صراع مرير بين القبوقول (انكشارية الدولة) واليرلية (القوات المحلية) ، وكانت هناك اتجاهات قوية لدى أهل دمشق لإبعاد القوات غير الشامية عن مدينتهم ، وكانوا يسمونهم (الأغراب) ، وكان هؤلاء الأغراب أحياناً من من الموصل ، ومن بغداد ومن المغاربة . هذا كله إلى جانب الصراع المعروف بين العصبيات المحلية نفسها فى الشام (آل العظم/ظاهر العمر/ آل معن وخلفاؤهم آل شهاب / وأحمد الجزار) .

وعنى د . رافق فى كتابيه بإبراز حقيقة هامة وهى أن التغييرات التى كانت تحدث فى المناصب العليا فى الآستانة كانت ذات تأثير كبير فى عزل الوالى أو الإبقاء عليه ، وهذا أمر ملاحظ أيضاً فى غير ولاية دمشق ، فى بغداد ، وفى القاهرة .

وأغلب الظن أن د . رافق كان يحاول فى كتابه الأخير أن يكشف عن توازى التاريخ الشامى مع التاريخ المصرى فى إطار الدولة العثمانية حتى جاءت ثورة على بك الكبير التى خلقت اتجاهات جديدة محدودة بالمنطقة ثم جاءت الحملة الفرنسية لتخلق اتجاهات عالمية فى المنطقة :

ولدينا بعض الملاحظات الخفيفة على المصادر والمراجع التى اعتمد عليها د رافق فى كتابيه سالفى الذكر . فمما لا شك فيه أنه اعتمد على المصادر الرئيسية فيما يتعلق بتاريخ الشام ولكنه بالنسبة لتاريخ مصر فى الفترة سالفة الذكر لم يكن على نفس المستوى خاصة فيما يتعلق بالوثائق الفرنسية والانجليزية .

ثم هل لا يدرى الدكتور رافق أن د. محمد رفعت رمضان أصدر كتاباً فى « ثورة على بك الكبير » هو رسالته للماجستير ، وأن د حسن عثمان حصل كذلك على الماجستير فى ١٩٣٤ برسالة عنوانها « فخر الدين المعنى الثانى » وأن د. محمد أنيس أصدر دراسة بالإنجليزية عن مصر وقناة السويس فى أواخر القرن الثامن عشر ؟ ولقد كان هؤلاء المؤرخون أول من فتح مجالات الدراسات الأكاديمية فى تاريخ الشام وأعتقد أن مؤلفاتهم جديرة بأن تقرأ فهى ليست بأقل قيمة من مقالة ليفى جورجى عن ظاهر العمر فى مجلة المقتطف أو من مقالة هولت عن على بك الكبير فى مجلة History today . وبالإضافة إلى هذا نلاحظ أن أسلوبه فى نقد مخطوطة « حوادث دمشق اليومية » للبديرى التى نشرها د. أحمد عزت عبد الكريم ينم عن شدة زائدة ، مع أنه أفاد من مقدمة د أحمد عزت عبد الكريم وأن ما اقتبسه من نسخ أخرى لمخطوطة البديرى لا يختلف عما هو فى المخطوطة التى نشرها د. أحمد عزت عبد الكريم . إن محصلة كل هذا هو أنه لو اقترب الجيل الجديد من المؤرخين الشباب بأساتذتهم من رواد التاريخ العربى الحديث من أمثال د نور الدين حاطوم و د أسد رستم و د. أحمد عزت عبد الكريم لربما تشكلت مدرسة عريقة عربية للتاريخ الحديث .

المؤلف Roderic H. Davidson

الكتاب Reform in the Ottoman Empire, 1856-1876, Prince ton, 1963.

عرض وتعليق د. عبد العزيز نوار

لقد صدرت مئات الكتب عن الدولة العثمانية ، ولكن قلة من هذه الكتب تعرض لمشاكلها الداخلية وللخطوات التي اتبعت لإنقاذها من التدهور في القرن التاسع عشر . وكان كتاب إنجلهاردت :

E. Engelhardt : La Turquie et le Tanzimat, 2 tomes, Paris, 1882-1884.

من أهم المؤلفات التي يعتمد عليها في دراسة فترة التنظيمات العثمانية التي اصطلح بأنها تبدأ منذ ظهور خط كلخانة ١٨٣٩ حتى صدور دستور مدحت ١٨٧٦ . ولكن رودريك دافدسون يركز على التنظيمات منذ ١٨٥٦ ، وهي السنة التي صدر فيها الخط الهمايوني والحق أن خط كلخانة ظل لفترة طويلة حبراً على ورق دون تنفيذ الأهداف الرئيسية التي رمى إليها ، وإن كان هذا لا ينفي أن خطوات إصلاحية هامة قد نفذت بين ١٨٣٩ و ١٨٥٦ إلا أن الخط الهمايوني في الحقيقة يمتاز بأنه وضع المبادىء الهامة الخاصة بالمساواة بين الرعية موضع التنفيذ .

وقد تعرض المؤلف في الفصل الأول لأسباب تدهور الدولة العثمانية ، وكان يؤكد أن فكرة الإصلاح لدى الأتراك ليست نتيجة الضغط الأوربي وحده ، وإنما كانت لشعورهم بالحاجة إلى الإصلاح حتى جاءت الحملة الفرنسية وتوالى الضغط الفكري الاقتصادي والسياسي فنشطت حركة الإصلاح . حقيقة ذهب السلطان سليم ضحية معارضة الإنكشارية الرجعية لمحاولاته لتجديد الجيش على الأسس الأوربية الحديثة (١٨٠٧) . فكمنت فكرة الإصلاح فترة لتنفجر بقوة عندما قضى محمود الثاني على الانكشارية في ١٨٢٦ ليبدأ سلسلة من الإصلاحات العسكرية والإدارية الهامة . ثم وقع الصدام الكبير بين محمود الثاني ووالي مصر « محمد علي » . ومات محمود ، قبل أن يعرف أن جيشه قد نكب بقوة في معركة نزيب (١٨٣٩) ليأتي بعده السلطان عبد المجيد الذي وقع خط كلخانة في نفس السنة وهو نفسه الذي أصدر الخط الهمايوني (١٨٥٦) .

وفى الفصل الثانى حلل المؤلف هذا الخط الهمايونى وكشف كذلك عن معارضى هذا الخط الذى أعطى المساواة بين المسلمين والمسيحيين ، وجميع الأفراد فى الدولة أمام القانون وبين أن هذه المعارضة لم تكن صادرة عن المسلمين فقط بل كانت هناك قوى مسيحية تعارض الخط الهمايونى بشدة ، وخاصة الزعامات الإنفصالية البلقانية المسيحية . فالبلغار أرادوا الإفادة من الخط الهمايونى للتخلص من سيطرة رجال الدين اليونانيين ، وخشى هذا الأكليروس اليونانى من أن يفقد سيطرته على الأرثوذكس كافة حيث أن تطبيق القوانين المدنية يرفع يدهم عن الرعية ويجعل الفرد الأرثوذكسى مسئولا بواجباته وحقوقه أمام الدولة ومؤسساتها وليس أمام رجال الدين الأرثوذكس ، كذلك كرهوا هذا الخط الهمايونى لأنه وضعهم على قدم المساواة مع اليهود الذين كانوا أقل منهم مركزاً .

فهل كان من اليسير تطبيق هذا البرنامج الواسع للاصلاح الإدارى والعسكرى والاقتصادى فى الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، والمتعددة الأجناس واللغات ، والأديان ؟

لقد كانت المهمة شاقة وقاسية ، تولاها عالى باشا وفؤاد باشا . وهما اللذان أعطيا للخط الهمايونى قيمة وأهمية كبرى . وعملا على تنفيذه مركزين السلطات بين أيديهم من أجل ذلك . فقدموا الكثير من حيث إصدار قوانين تنظيمية عديدة وخطط للاصلاح الإدارى فى مركز الدولة والولايات على الأسس الحديثة ، كما واجهوا الكثير من العقبات .

ومن أشد العقبات التى واجهتهما أن كل طائفة أو ملة فسرت الخط الهمايونى بما يروق لها ويخدم مصالحها حتى ولو كان ذلك على حساب الدولة العثمانية التى وضعت الخط من أجل تقوية تماسكها وتجديدها . فلقد رفض المسيحيون مشاركة المسلمين أعباء الانخراط فى التجنيد أو المساهمة الفعلية فى ضريبة الدم المفروضة على كل رعية ومواطن ، ومن ناحية أخرى كان المسلمون يكرهون حينذاك أن يعملوا تحت قيادة ضباط مسيحيين . وفضلا عن هذا وذاك ظهرت معارضة شديدة من جانب الشعب للاقتباس من الغرب خوفاً من أن يكون ذلك مقدمة لانهيار الكيان الإسلامى للدولة العثمانية .

فكان طبيعياً أن يكون إصلاح أحوال الملل غير الإسلامية من أهم الموضوعات التى عنى بها المصلحون العثمانيون حتى يكسبوا تأييد الدول الأوربية ويمنعوا القوميات المسيحية من الإنفصال عن الدولة ، وكان هذا هدف رئيسى من أهداف التنظيمات العثمانية .

وقد عقد المؤلف فصلا خاصاً عن إعادة تنظيم الملل ، وقد كانت كل مرحلة فى الدولة العثمانية تتبع نظاماً وقوانين خاصة بها . وكان اليونان الأرمن من أكثر الملل تأثراً بهذه الحركة الإصلاحية فى إطار الدولة العثمانية فقد صدرت لائحة الأرمن فى ١٨٦٣ تلك اللائحة التى مهدت لظهور جمعية وطنية وحكومية لهم .

وبينما كانت الإصلاحات والتنظيمات تسير بخطى سريعة بين الأرمن كانت بطيئة بالنسبة لليونانيين حيث عارض البطريك اليونانى طغيان العلمانيين اليونانيين على مسئولياته الدينية والسياسية وأدت هذه المعارضة إلى عدم ظهور جمعية وطنية لدى اليونانيين وإنما ظهرت هيئة لانتخاب البطريرك فقط .

كذلك حدث بين اليهود تطورات مشابهة لتلك التى حدثت لدى اليونانيين . فقد حصل اليهود على لائحة لهم فى ١٨٦٥ بفضل فؤاد باشا رغم ما كان بين الأثرياء العلمانيين اليهود فى استانبول ، والربانيين الرجعيين من أزمات . وكان صدور هذه اللائحة انتصاراً للعلمانيين ، إلا أن المنازعات بين الطرفين منعت من تطبيق اللائحة على أحسن وجه .

ولكن كان احتكار عالى باشا للحكم والإصلاح سبباً فى ظهور قوة جديدة معارضة له مؤلفة من المثقفين الجدد الأتراك الذين كانوا يريدون المشاركة فى حركة الإصلاح . وظهرت خلال هذا اتجاهات شخصية وجهت حركة المعارضة ضد عالى باشا . فقد كان مصطفى فاضل باشا . الذى التف حوله هؤلاء المثقفون الجدد — يريد حكم مصر بإبعاد الخديوى إسماعيل عنه ، ولما نفى مصطفى فاضل بسبب نقده المتواصل للحكومة التف حوله فى باريس عدد قوى من الأعوان شنو حملات شعواء ضد عالى باشا وفؤاد باشا ولكنها لم تستطع أن تقوضهما .

وسار عالى باشا وفؤاد باشا ومعهما مدحت باشا فى طريق الاقتباس من الغرب

فى الإدارة والخدمات العامة والجيش والأسطول مع العمل على وقف التدخل الأوربى فى أمور الدولة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

لقد أدت هذه الجهود إلى سيطرة المدانيين سيطرة قوية على أجهزة الدولة وإبتعاد رجال الدين عنها بسرعة ، خاصة فى مجالات القضاء والتعليم . وطبقوا قانون الأراضى الذى أثار ثائرة المنفيين السياسيين الأتراك وخاصة ضيا باشا ، كما عارضته روسيا لأنها كانت تعتقد — عن حق — أن فرص بريطانيا وفرنسا فى إستغلال مثل هذه الإصلاحات — التى أعطت للأجانب حق التمليك — أكثر إتساعا من الفرص المتاحة لها بسبب عراقة التغلغل الانجليزى الفرنسى فى الدولة وعمقه . كذلك عارضت روسيا الإصلاحات بصفة عامة لأنها تعيد إلى الدولة سيطرتها على القوميات المسيحية التى كانت تستخدمها روسيا أدوات لها ضد الدولة العثمانية ومن ناحية أخرى كانت روسيا ترى أن تطبيق هذه الإصلاحات سيؤدى إلى الإستعانة بالخبراء الانجليز والفرنسيين فى أمور جمع الضرائب وكل هذا يؤدى إلى توهين نفوذ روسيا فى الدولة العثمانية .

على أن هذه الإصلاحات والتنظيمات حصلت على دفعة قوية عندما قام مدحت باشا بتطبيق التشريعات الجديدة من كافة نواحيها فى ولايتى نيش وبغداد . وكانت إصلاحاته تمتاز بالشمول ، وبجرأة فى وضع القانون موضع التنفيذ . فطبق قانون الولايات ، وحدد الضرائب وشكل المجالس فى القرى والأقضية والولايات ، وأنشأ البلديات ، ورفع مستوى الكفاءة الإدارية بأقسامها الحديثة ، ووضع التجنيد موضع التنفيذ حتى فى ولاية بغداد التى فشل الولاة فشلا ذريعاً قبله فى تنفيذه .

حقيقة بدا كأن مدحت قام بأعمال كبرى وأنه هز الأجهزة الفاسدة من أصولها وأنه أنشأ أجهزة حديثة ، والحقيقة أن الغالبية العظمى من إصلاحاته فى العراق بالذات كانت بفعل جهده وقوة سيطرته وشخصيته فلما ذهب عن العراق توقفت حركة الإصلاح وضاعت معظم أعماله فى طى الإهمال والنسيان . ولكنها ظلت عالقة بالأذهان هناك وظلت تثير فى الناس آمال التغيير والتطوير . وبانتقال مدحت من

العراق إلى العاصمة إنتقل مركز التطوير والتعديل بقوة إلى العاصمة وأصبحت مستعدة لفترة جديدة من التنظيمات .

ويعتبر المؤلف عام ١٨٧١ عام تحول خطير فى التاريخ لابالنسبة لأوربا فقط بل كذلك بالنسبة للدولة العثمانية كذلك ، على اعتبار أن هزيمة فرنسا ووفاة عالى باشا فى نفس السنة أحدثا تغيراً خطيراً فى إتجاهات الحكومة العثمانية حيث أن هزيمة فرنسا هوت بمكانتها بشدة ، وكانت وفاة عالى باشا ضربة قاصمة لنفوذ فرنسا فى الباب العالى حيث أنه كان من أكثر المتحمسين للثقافة الفرنسية . ومن ناحية أخرى أصبحت سلامة الدولة العثمانية مهددة أكثر من جانب روسيا التى انتهزت هزيمة فرنسا فى حرب السبعين وتخلصت من المادة التى كانت فى معاهدة باريس ١٨٥٦ بشأن منع روسيا من تسليح البحر الأسود .

وفى نفس الوقت الذى تدهور فيه النفوذ الفرنسى فى الدولة العثمانية لم يكن الألمان مستعدين لملء هذا الفراغ الذى كان الروس يسعون جهدهم نحو ملئه .

وأثرت وفاة عالى فى الوضع العام من حيث أنه ترك فراغاً كبيراً بعده لأنه كان يشغل منصب المصدر الأعظم ووزير الخارجية ووزير الداخلية . وربما لو لم يمت فؤاد قبله لاستطاع أن يملأ هذا الفراغ ولكنهما توفيا فى عامين متتاليين (١٨٦٩/ ١٨٧٠) دون أن يخلفا جيلا ليخلفهما .

تولى نديم باشا الصدارة العظمى بعد عالى باشا ، وكان من معارضى حركة الاقتباس من الغرب . فأوقف تيار الإصلاحات ، وأخذ يعتمد على دعايات تستند إلى المبادىء الإسلامية . وهى مبادىء رائعة ولكنها للأسف لم تكن معها برامج تنفيذية قادرة على تيسير عجلة الإصلاح فى طريقها القويم . واستمر هذا التوقف عن متابعة الإصلاحات حتى تولى مدحت الصدارة العظمى فى ١٨٧٦ . ولهذا يرى المؤلف أن الفترة الواقعة بين وفاة عالى باشا وتولية مدحت باشا الصدارة العظمى أنها فترة الإضطراب وهى التى عقد لها الفصل السابع من كتابه . والواقع أن محمد نديم باشا لم يكن وحده مسئولا عن هذا التوقف فى عجلة الإصلاح حيث كانت هناك مجموعة أخرى من الأسباب وأهمها :

١ — الثورات المتتالية فى البلقان العثمانى بتحريض الروس والنمساويين .

٢ — شدة حملات النقد على حكومة نديم باشا من جانب « الأتراك الجدد » الذين كانوا يتهمون حكومة نديم باشا بأنها فتحت أبواب الدولة على مصراعيها أمام التدخل الأوربى خاصة فيما يتعلق بالبوسنة والهرسك .

لقد أدت هذه التطورات إلى تهيئة الدولة العثمانية لوقوع انقلاب ضـد حكومة نديم باشا . وكان مدحت باشا على رأس هذه الحركة ، فتمكن من عزل السلطان عبد العزيز عن العرش ، وأسنده إلى مراد الخامس الذى لم يمارس السلطنة سوى أشهر قليلة بسبب مرضه ليبعده عنه مدحت باشا ويسند العرش للمرة الثالثة فى سنة واحدة إلى السلطان عبد الحميد الثانى الذى كان من أنصار الحركة الدستورية .

شرع مدحت فى إعداد أول دستور للدولة العثمانية . ويحدد المؤلف أهداف مدحت من إصدار الدستور بما يلى :

١ — رغبته فى الحفاظ على وحدة وكيان الدولة العثمانية عن طريق تجديد حيوية الحكومة ووقف حركات الإنفصال عن الدولة .

٢ — إقامة مساواة حقيقية بين رعية الدولة لتحافظ على وحدتها .

٣ — تحويل كل الرعية عن قومياتهم وصهر الجميع فى بوتقة المواطنة العثمانية .

٤ — وضع قيود على تصرفات السلاطين حتى لاتنطلق فى التبذير مرة أخرى ، ذلك التبذير الذى اشتهر به السلطان عبد العزيز والذى كان عاملا هاماً من عوامل إفلاس الخزينة .

٥ — وضع تصرفات الباب العالى — فضلا عن السلطان — تحت رقابة مجلس يمثل الشعب . ويبدو أن مدحت كان يضع ثقة كبيرة فى ممثلى الشعب فى القيام بدور بناء فى هذا الصدد . ولعل هذه الثقة تكونت لديه خلال عمله فى مختلف ولايات الدولة .

وهناك من يتهم مدحت بأنه كان — إلى جانب كل هذا — يهدف إلى تحويل السلطنة العثمانية إلى جمهورية . ولقد أنكر مدحت هذا الإتهام .

لم تكن الأمور سهلة أمام مدحت لإصدار الدستور حيث كانت الصعوبات متعددة ، ولكن كانت هناك بعض التطورات التى جعلت الظروف أكثر مواتية . فقد كان الجدل يدور حول استناد الفكرة الدستورية إلى المبادىء الإسلامية ، وكانت الإتجاهات تشير إلى تأكيد هذا الإرتباط . كذلك مهدت التنظيمات التى صدرت قبل ١٨٧٦ لصدور الدستور . هذا فضلا عن صدور دساتير ولوائح دستورية فى بعض ولايات الدولة العثمانية مثل تونس ومصر والصرب ورومانيا . أضف إلى هذا أن نمو الحركة الصحفية ساعد على نشر الفكرة الدستورية وأثير جدل صحفى حول هذه الفكرة نبه الأذهان إلى قيمة الحكم الدستورى . هذا إلى جانب أن مجلس الأمة العثمانى نفسه أيد فكرة إصدار الدستور فى ١٨٧٦/١٠/٢ خاصة لمواجهة ظروف الحرب ضد الصرب ولإسكات الألسنة الأوربية المطالبة بالإصلاح أو بانفصال الصرب وغيرها عن الدولة .

تشكلت لجنة لوضع الدستور من :

(ا) ١٦ مدنياً .

(ب) ١٠ من العلماء .

(ج) ٢ من قواد الجيش .

وكان مدحت رئيساً للجنة ، وضيا وكيلا للامور التعليمية ووكيلان آخران للأمور الخارجية والقضائية وكلاهما كانا مسيحيين .

وقد وضعت عدة مسودات للدستور . وكان النص الذى وضعه مدحت هو صاحب الكفة الراجحة ، وكان يقضى بما يلى :

١ — أن شخص السلطان مقدس .

٢ — كل الرعية عثمانية .

٣ — مجلس نيابى يمثل الشعب ووزارة مسئولة .

٤ — إلغاء منصب الصدر الأعظم وإحلال رئيس الوزراء مكانه .

ولكن فى ١٨٧٦/١٠/٣١ قدم الروس إنذارهم لإقحام حرب على الدولة العثمانية

الأمر الذى جعل مدحت يسرع فى إصدار الدستور . ومع هذا جرت الكثير من المداولات والمناقشات حول النص النهائى للدستور بسبب إختلاف الآراء والأهداف التى كانت لدى المعنيين بهذا الموضوع . فقد كان السلطان عبد الحميد الثانى يريد أن يحتفظ باليد العليا ، وكان جودت باشا — صاحب المكانة الكبيرة والأديب الكبير — يتهم مدحت باشا بأنه صنيعة للسفير الانجليزى فى الآستانة السير إليوت Sir Elliot ، بينما اتهم مدحت خصمه جودت باشا بأن فرنسيته لاتعلو لغة ماسح أحذية فرنسى . كما كان بعض المتنفذين يريدون ألا تسيطر الوزارة على مقدرات الشعب حتى لا تتكرر تلك الصورة التى كان عليها الحال على أيام عالى وفؤاد ، وكان البعض الآخر من المتنفذين يدعو إلى وضع سلطات إستثنائية لمواجهة بعض الظروف الإستثنائية . وفى هذه الظروف تولى مدحت الصدارة العظمى (١٨٧٦/١٢/١٩) ليقوم بالمهمة التى كان يسعى إليها وهى إصدار الدستور الذى صدر فعلا فى ١٨٧٦/١٢/٢٣ .

وكان لصدور الدستور صدى قوى طيب لدى المثقفين كما توجس منه البعض خيفة على مستقبل كيان الدولة بينما كانت القاعدة الشعبية لاتفهم إلا القليل عن الموضوع ، بسبب تفشى الجهل والعقلية التقليدية لدى أفراد الشعب ، وخاصة فى ولايات المشرق العثمانى . أما فى البلقان فقد رحب به اليونانيون للتخلص من البلغار ورحب به الأرمن لأنه كان يؤكد لهم حريتهم ، وكذلك اليهود لأنهم كانوا بلا قومية وامتعض منه الصرب لأنه كان يفرض عليهم البقاء فى حظيرة الدولة ، ونفس الموقف كان لدى البلغار . كما كرهه الرومانيون لأن الدستور سيجعل من رومانيا مجرد ولاية عادية من ولايات الدولة بينما كانوا يسعون إلى الإنفصال عن الدولة .

أما السلطان فقد احتفظ بسلطات واسعة فهو الخليفة والسيادة له لا للشعب والوزراء مسئولون أمامه لا أمام المجلس النيابى ، وكان له حق تعيين وإعفاء الوزراء ، وحق عقد وحل البرلمان ، وكانت موافقته ضرورية ليصبح القانون نافذ المفعول .

ومع مافى هذا الدستور من عيوب فاننا نكون متحاملين عليه إذا ما وضعناه موضع المقارنة بدساتير الدول الأوربية الغربية ، مثل فرنسا أو انجلترا ، فهذه مقارنة غير عادلة ، أما إذا قارناه بالأوضاع الدستورية فى بروسيا أو روسيا — التى لم يكن

لها لا دستور ولا مجلس نيابى — فاننا يمكن أن نقول إنه دستور معقول هذا فضلا عن أنه كان خطوة كبيرة إلى الأمام نحو الحكم الدستورى المتكامل .

ولكن كانت هناك بدايات خاطئة وخطيرة لهذه الحركة الدستورية . فقد كانت الثقة غير متبادلة بين السلطان عبد الحميد ، ومدحت . فالأول كان ينظر بعين الريبة إلى مدحت الذى وصف بأنه خالع السلاطين وصانعهم ، وكانت لدى عبد الحميد بعض المخاوف من أن يستخدم مدحت القوات المصرية المرابطة فى الآستانة ضده . وهكذا كانت هذه القوات المصرية التى أرسلت للدفاع عن الدولة العثمانية ضد العدوان الأوربى — رغم ظروف مصر المالية القاسية — ورقة يمكن أن يلعب بها أصحاب الشأن فى الآستانة .

وكانت هناك بعض الشواهد التى كانت تشير إلى أن مدحت وأعوانه كانوا يخفضون من قيمة السلطان فى العهد الدستورى الجديد ، وقيل إن مدحت قال إن السلطان لو عزله فسيعيده الشعب إلى رئاسة الوزراء ولكن السلطان عزله استناداً إلى سلطاته الدستورية ولم يقم الشعب بأى جهد متواضع لإعادته . فكان عزله نهاية لتاريخه السياسى . فقد حزن البعض لعزله وفرح البعض دون أن يحدث رد فعل إيجابى . وعلى أى حال تولى معارضو مدحت المناصب الكبرى بعده ، بينما قبض على أصدقائه .

وليس معنى هذا أن عزل مدحت كان نتيجة لتدبير عبد الحميد وحده ، وإنما هناك من يرى أن مؤامرات روسية وأخرى انجليزية لعبت دورها فى عزله .

ومع هذا كان لعزل مدحت مغزى كبير ، فلقد أثبت السلطان بذلك أنه قادر على تخطى روح الدستور ، وتضمن الخط السلطانى الخاص بإسناد الوزارة إلى أدهم باشا ما يؤكد حق السلطان فى تعيين كبار الموظفين .

ولقد توقفت عجلة الإصلاح بعزل مدحت لا للحاجة إلى إصلاحات جديدة وإنما بسبب الحاجة إلى روح مدحت المتدفقة لدفع تلك العجلة . ولقد جاء عزل مدحت فى وقت عصيب للغاية حيث كانت الروسيا متفوقة عسكرياً فى حربها ضد الدولة العثمانية حتى أصبح استقلال الصرب والجبل الأسود ورومانيا أمراً واقعياً (١٨٧٧ — ١٨٧٨) .

لقد كان عبد الحميد مُصر على أن تكون مقاليد الأمور بيده ، وأنه إذا تم إصلاح فى الدولة فليكن ذلك من عمله هو ، وأن يكون البلاط هو مركز الثقل الباب العالى (رئاسة الوزارة) ، وكان يرى أن المهمة الأولى التى يجب أن يعمل لها هى أن يعد للحرية عن طريق التعليم ، وإتاحة الفرص نحو الرقى وعدم فرض دساتير غربية لا تلائم البيئة العثمانية ويرى المؤلف أن المصلحين — بصفة عامة — كانوا غير متعمقين فى الحضارة الإسلامية ، وكان عليهم أن يطوروا هذه الحضارة الإسلامية ومدارسها ونظمها ، وأن يرتفعوا بها إلى مستوى العصر . ولكنهم بدلا من ذلك خلقوا إزدواجاً محيراً (أوربيا عثمانياً) لأنهم عنوا بالمظهر أكثر من عنايتهم بالمخبر ولهذا لم تلق إصلاحاتهم وشعاراتهم صدى قوياً لدى الشعب .

وهنا يجدر بنا أن نجيب عن أسئلة هامة وهى : ما هى قيمة فترة التنظيمات ؟ وهل حقق المصلحون أهدافهم ؟ وما مدى ما حققوه ؟ وما هى مسئوليتهم فى توقف عملية الإصلاح غير مرة قبل عبد الحميد ، وبعد اعتلاء عبد الحميد العرش ؟

إن أهم قيمة لفترة التنظيمات هذه هى أنها وضعت الدولة فى مصاف الدول التى يجب أن تعامل بمثل ما تعامل به الدول ذات السيادة ، وتحسنت خلالها الأحوال المالية والقضائية والتعليمية وظهرت حركة أدبية نشطة وحركة صحفية كبيرة وتطورت أحوال الملل غير الإسلامية تطوراً ملحوظاً . وفضلا عن هذا وذاك أصبحت فكرة الواطنة (العثمانية) تقف على قدم أكثر ثباتاً إن فترة التنظيمات هذه فترة بذر البذور الأولى ، وكثيراً من البذور كان مستورداً يصعب العناية به وبعضه كان محلياً نبت جنباً إلى جنب مع البذور الأخرى لتبدأ بعد ذلك عمليات التهجين والتزاوج بين الحضارتين الغربية والإسلامية .

إن فترة التنظيمات ودستور ١٨٧٦ وتعطيله على يد عبد الحميد ، هو الذى أدى إلى ثورة ١٩٠٨ ، وهى التى مهدت لسياسة التتريك التى بلغت ذروتها على يد أتاتورك الذى أبرز إلى الوجود الدولة التركية الخالصة .

مما سبق يتبين لنا أن كتاب الأستاذ دافدسون من أقيم الكتب التى تعرضت لهذا الموضوع الصعب ، ومنها أيضاً كتاب راساور «تركيا الفتاة» الذى ترجمه د . صالح

العلى سنة ١٩٥٩ وكتاب ماردين
S. Mardin : The Genesis of the young Ottoman thought
Princeton, 1962. يعطينا دراسة متكاملة للتنظيمات العثمانية (١٨٥٦ – ١٨٧٦)، والاستبداد الحميدى (١٨٠٧٦ – ١٩٠٨)، والظروف والأهداف التى وقفت وراء حركة تركيا الفتاة .

ولكن لنا ملاحظة خفيفة على هذا الكتاب القيم وهو أن المؤلف — رغم اعتماده على بعض المراجع التركية — لم يرجع إلى الوثائق التركية حيث أننا نعتقد أنها يمكن أن تضع وجهة النظر التركية بوضوح أكثر وأنها قد تغير كثيراً من مفهومنا للأحداث حيث أن الاعتماد على الوثائق الفرنسية وغيرها من الوثائق الأوربية لا يكفى وحده للوصول إلى آراء مؤكدة فى بعض الأحيان خاصة وأن موضوع التنظيمات كان مرتبطاً بالأوضاع السياسية والاستراتيجية والاقتصادية الأوربية أوثق إرتباط الأمر الذى يجعل السفراء والقناصل الأوربيين يكتبون رسائلهم ووثائقهم بأهداف معينة مرتبطة بمصالح دولهم . ولكن يمتاز الأستاذ ديفسون بأنه استخدم الوثائق النمساوية والسويدية إلى جانب الوثائق الإنجليزية، والفرنسية، ووثائق الأرشيف الأمريكى فى واشنطن .

وملاحظة أخرى : هى أنه ألقى بثقله فى هذا الكتاب على حركة التنظيمات فى الآستانة أولا، وعلى أثر هذه الحركة على مسيحيي البلقان، وعلى الدول الأوربية دون أن يعن العناية اللازمة بأثر هذه التنظيمات فى ولايات المشرق العربى . حقيقة كانت حركة التنظيمات بطيئة فى المشرق العربى إلا أنها كانت هامة جداً فى بعض الفترات وخاصة خلال حكم مدحت باشا لولاية بغداد كما أن حركة التنظيمات كانت شديدة التأثير على تطور العلاقات العثمانية .

المؤلف : دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

الكتاب : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩ .

دار المعارف ١٩٦٧ .

عرض وتعليق : د. عبد العزيز نوار

هذه هى رسالة الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى التى حصل بها على درجة الماجستير من جامعة القاهرة فى ١٩٥١ . وهى تعتمد على الوثائق المحفوظة فى عابدين فيما يعرف الآن باسم «دار الوثائق القومية» . وهذه الدار تحتوى كذلك على مجموعات قيمة جداً من وثائق القنصلية الأمريكية ، والوثائق الإنجليزية والفرنسية ، فضلا عن المؤلفات والمقالات الرئيسية التى تتعرض لموضوعه .

ويمكن أن نقسم هـذه العلاقات المصرية التركية فى عهد الخديوى إسماعيل ثلاث أقسام :

الأول : مجهودات إسماعيل لتوطيد حكمه وحكم ابنه من بعده على أسس شرعية .

الثانى : الخدمات التى قدمها الخديوى إسماعيل للدولة العثمانية وعلى رأسها (حملة كريت) .

الثالث : محاولات إسماعيل لتوسيع استقلال مصر الذاتى بعد موافقة السلطان مهدداً السلطان بسحب قواته من كريت إن لم تجب مطالبه وانتهز اليونانيون الفرصة وأخذوا يحثون إسماعيل على التحالف معهم ضد السلطان وقامت الجالية اليونانية فى مصر بدور خطير فى هذا الصدد . ولـكن استطاع الباب العالى أن يتفاهم مع إسماعيل فمنحه لقب خديوى ، وأعطاه حق اللوائح والتنظيمات الإدارية والمالية اللائمة لمصر وعقد بعض الاتفاقيات مع الدول الأوربية وفى نفس الوقت أكد الباب العالى ضرورة سريان قوانين الدولة الأساسية — وخاصة خط كلخانة والمعاهدات التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأخرى — على مصر . وسحبت القوات المصرية من كريت فى نوفمبر ١٨٦٧ ولـكن بعد أن مهدت الطريق أمام الأتراك بقيادة فؤاد باشا ليسحقوا الثورة فى ١٨٦٩ .

الرابع : فترة الأزمات المصرية التركية الشديدة بين ١٨٦٩ — ١٨٧٩ حقيقة تخللت هذه الفترة أوقات توطدت فيهـا العلاقات بين إسماعيل والسلطان عبد العزيز ولـكن طابع الأزمة كان هو الغالب .

بدأت هذه الفترة بزيارة الخديوى لبعض عواصم أوربا لدعوة ملوكها لحفل افتتاح قناة السويس . ولـكنه لم يقم بدعوة السلطان واشتمت دوائر الباب العالى أن إسماعيل يتصرف وكأنه أمير مستقل وأن الدول الأوربية تعامله بهذا المعنى الأمر الذى أدى إلى أزمة بين الخديوى والباب العالى لدرجة أن إحدى الصحف التركية طالبت بعزل إسماعيل واتخذت خطوات تسحب ما كان قد أعطى لإسماعيل من امتيازات وتدخل الدبلوماسيون الفرنسيون والإنجليز والنمساويون فى هـذه الأزمة وأشار السفير الإنجليزى على إسماعيل بأن يزور الآستانة فى مقابل تثبيت الحقوق التى سبق أن حصل عليها . وعندما أبدى إسماعيل معارضته لهذا الاقتراح هددوه بأن ذلك قد يفتح الطريق أمام مصطفى فاضل ليتولى الصدارة وهو لن يتورع عن خلع أخيه . وكان إسماعيل نفسه يقدر هذه الخطورة بل يرى أن إسناد الصدارة إلى مصطفى فاضل يعنى الحرب بين مصر وتركيا . وهدأت المشكلة مؤقتاً خلال حفلات افتتاح القناة وبعد ذلك استأنفت السلطات العثمانية ضغطها الشديد على إسماعيل .

فاستعد إسماعيل عسكرياً للدفاع عن مصر ضد أى غزو تركى وحمى يوسف كرم زعيم الثورة المارونية فى لبنان وكورونيوس القائد اليونانى للثورة الـكريتية ، وخلص العسكرية المصرية من الـكلمات التركية واستبدلها بالعربية وكذلك فى دواوين البلاد وجعل مكاتبات ديوان الخارجية باللغتين العربية والفرنسية .

ودارت مفاوضات طويلة بين الأطراف المعنية انتهت إلى أن أقدم إسماعيل على ترضيات للباب العالى من حيث تخفيض مدى تسلحه وقيامه بزيارة الآستانة (يونيو ١٨٧٠) فأدت هذه الزيارة إلى عودة العلاقات الودية بين الطرفين وإلى تهدئة الموقف مؤقتاً .

فلم يلبث أن اتهم الأتراك إسماعيل بأنه يعيد تسليح البلاد بهدف التحالف مع روسيا ضد الدولة العثمانية انتهازاً منهما لتدهور التوازن الدولى بعد هزيمة فرنسا فى

حرب السبعين وتعقد الموقف عندما عزمت الحكومة التركية على إرسال حملة لإخماد ثورة عسير التي كانت أصابع الأتراك تشير إلى إسماعيل متهمة إياه وشريف مكة بإثارتها . ومن ناحية أخرى كان إسماعيل يرى في إرسال قوات عثمانية إلى عسير تهديداً خطيراً له فلما بعثت الحكومة العثمانية بقواتها إلى عسير رد إسماعيل على ذلك بتحصين السويس .

ولكن إسماعيل أبقى الباب مفتوحاً محاولا عدم وقوع صدام شديد مع الباب العالي . فجعل له مبعوثاً مقيما في الآستانة يشرح للسلطان كل أعماله ويبررها والطريف أنه لكي يكسب عطف السلطان عبد العزيز ورضاه بعث إليه من الطيور والحيوانات — التي يهواها — ما يمكن أن يكون حديقة حيوان كاملة هذا إلى جانب الأموال التي كان يبذلها لرجال السلطان . وبعد وفاة عالي سنة ١٨٧١ عمل إسماعيل على كسب ثقة السلطان عبد العزيز حتى يمنع أعداءه من الوصول إلى المناصب العليا وبوجه خاص مصطفى فاضل وخليل بك .

جاءت بعد ذلك فترة من العلاقات الطيبة بين السلطان عبد العزيز وإسماعيل باشا خلال صدارة نديم باشا (١٨٧٠ — ١٨٧٢) وبعد ذلك بقليل حيث كان في استطاعة الخديوى أن يشترى من السلطان ما يريده . وعلى هذا النحو استطاع أن يبعد خليل باشا — عدو الخديوى — عن وزارة الخارجية وأن يحصل على الفرمان الشامل (١٨٧٣) . وسارت الأمور بين السلطان والخديوى هادئة بعد ذلك حيث حصل الخديوى على معظم مطالبه من السلطان في الوقت الذى أصبحت الأزمة المالية في كل من مصر وتركيا على أشدها . والحق إنها فترة الأزمات المالية لا في تركيا ومصر فقط بل كذلك في تونس ومراكش بسبب الاستدانة وبسبب الإجهاد الاقتصادى بسبب حركة التطور السريعة التي شملت هذه البلاد وبسبب الاستغلال الأوربي السيء لهذه الظروف . ففي ١٨٧٤ كادت الدولة العثمانية أن تعلن إفلاسها ، وباع الخديوى أسهمه في قناة السويس ١٨٧٥ للحكومة الإنجليزية التي شرعت في السيطرة على مصر سيطرة فعلية إذا ما حانت لها الفرصة وأصبحت يد كل من انجلترا وفرنسا مفروضة على مصر ولا يستطيع السلطان أن يحول دون ذلك ولا أن يعترض اعتراضاً مؤثراً بل هو نفسه لم يلبث أن خلع في ٣٠ أغسطس ١٨٧٥ على يد

مدحت باشا المتزعم للحركة الدستورية ، حيث ابتهج المصريون لذلك لأنهم اعتقدوا أن ذلك سابقة يمكن أن تعينهم على خلع الخديوى إسماعيل .

وزاد موقف إسماعيل حروجة أمام السلطان العثمانى عبد الحميد ، وصدره الأعظم مدحت بعد صدور الدستور حقيقة كانت صدارة مدحت قصيرة ولكن خلالها سعى مدحت إلى سحب الفرمان الشامل ، ولكن عبد الحميد ، آثر أن يكون على علاقة ودية بالخديوى ، وتحسنت العلاقات أكثر بمشاركة مصر عسكرياً فى الحرب العثمانية الروسية التى أدت إلى عقد مؤتمر برلين ذلك المؤتمر الذى لعب فيه بسمارك دوراً رئيسياً كان خلاله يحث انجلترا على احتلال مصر .

ورأى إسماعيل أن يرتمى فى أحضان تركيا لعله بذلك يستطيع أن يوقف الخطر الداهم الإنجليزى الفرنسى على مصر ، وعندما أقدم على إقالة الوزارة الأوربية أيدته الحكومة التركية وكذلك عندما خفض سعر الفائدة على الديون دون الرجوع إلى المحاكم المختلطة المختصة بهذا الموضوع . ولكن تدخل بسمارك بقوة فى هذا الموضوع حفاظاً على حقوق الإمبراطورية الألمانية فى المحاكم المختلطة . وأثبت تدخل بسمارك أن نفوذ كل من فرنسا وانجلترا فى مصر عرضة للاهتزاز ، ولكى يثبتا قوة وتفوق هذا النفوذ اتجهتا إلى خلع إسماعيل . وفى هذه الأزمة وقفت الحكومة التركية إلى جانب الخديوى ضد محاولات فرنسا وانجلترا لخلعه . ولقد كان للسلطان عبد الحميد عدة أهداف من وراء ذلك :

١ — منع التدخل الأوربى على هذا الشكل الصارخ فى أمور مصر .

٢ — المحافظة على ما للسلطان من حقوق فى مصر حتى لا يقضى عليها التدخل الأوربى .

٣ — استغلال هذه الفرصة لإلغاء الامتيازات التى حصل عليها حكام مصر من السلطان منذ ١٨٤١ .

٤ — نجاح السلطان عبد الحميد فى مقاومة التدخل الأوربى يقوى من الدعاية لفكرة الجامعة الإسلامية التى كانت أسمى هدف من أهداف السلطان عبد الحميد .

فكان طبيعياً أن يقف عبد الحميد بقوة إلى جانب الخديوى ضد مجهودات الدول

الكبرى لخلعه وطلبت منه الباب العالى عدم التنازل دون إخطار السلطان واستشارته . ولكن انجلترا وفرنسا كانتا مصممتين على عزل الخديوى حتى لو تجاهلا بذلك الباب العالى . ولهذا أسرع السلطان إلى أن يتولى بنفسه إصدار قرار خلع الخديوى حتى لا يقوم الإنجليز والفرنسيون بهذا الأمر من غيره الأمر الذى يحط من مكانة السلطان فى مواجهة العالم الإسلامى والأوربى . وأياً كان الأمر فالحقيقة هى أن الدور الرئيسى فى سقوط الخديوى هو الذى لعبه الدبلوماسيون الإنجليز والفرنسيين وليس الأتراك .

المؤلف : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى

الكتاب : مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ — ١٨٨٢ (التدخل الأجنبى ، الحركة الوطنية ، الثورة العرابية) . دار المعارف ١٩٦٧ .

عرض وتعليق : د . عبد العزيز نوار

هذا الكتاب هو ترجمة لرسالة الدكتوراه التى حصل عليها المؤلف من جامعة لندن . وبذلك يكون قد غطى بكتابيه «علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ، مصر والمسألة المصرية » فترة من أدق فترات التاريخ المصرى . فهى كما يقول المؤلف :

« فترة شهدت فيها البلاد صنوفاً من الضغوط الداخلية والخارجية : بعثات مالية ، ولجان تحقيق ، وتغلغلاً أجنبياً فى إداراتها واقتصادياتها وشئون الحكم فيها ، ومحاكم مختلطة — هذا فى الوقت الذى كانت فيه البلاد تعانى من آثار الأوتوقراطية الخديوية و .... ازدياد سيطرة الامبريالية الأوربية وتفكك الإمبراطورية العثمانية التى كانت مصر لا تزال تابعة لها » .

إن نظرة سريعة على الوثائق غير المنشورة والمنشورة والمراجع الأصلية التى اعتمد عليها المؤلف فى إعداد كتابه تكشف لنا بسهولة عن أصالة البحث وعمقه . فقد راجع الوثائق فى مظانها فى دور المحفوظات الانجليزية والفرنسية فضلا عما فى دار الوثائق القومية بعابدين بالقاهرة من وثائق غاية فى الأهمية .

وقد قسم الكتاب إلى أحد عشر فصلا ، الأربعة الأولى عن الظروف المحلية والدولية التى أدت إلى خلع اسماعيل ، أما الفصل الخامس والسادس فعن أوائل عهد توفيق (أى مقدمات الثورة) والثورة نفسها ثم عقد الفصلين السابع والثامن عن مجلس شورى النواب والمذكرة المشتركة والوزارة الوطنيـة . وهى فترة المواجهة السياسية بين قوى الثورة والقوى المناهضة لها فى الخارج والداخل . وأما الفصول الثلاثة الأخيرة فهى تمثل الخطوات التى سارت بها الدبلوماسية والعسكرية الانجليزية فى طريق التآمر ضد الحركة الوطنية حتى انتهى الأمر بالاحتلال رغم وجود مؤتمر فى الآستانة كان لا يزال ينظر فى المسألة المصرية .

والحديث عن أوائل عهد توفيق يذكرنا بأوائل عهد الملك فاروق . فلقد استبشر به المصريون والأجانب على السواء عندما توليا الحكم . ولكن سرعان ما تكشفت الحقيقية للشعب . فبينما كانت الآمال معقودة على تنمية الحركة الدستورية على يد توفيق بالذات إذا به هو يصبح عدواً للحركة الدستورية ، مثله فى هذا أيضاً مثل السلطان عبد الحميد الثانى ، حيث أن كلا منهما كان يرى أن الشعب غير مستعد للنظام الدستورى . وفعلا رفض توفيق اللائحة الدستورية التى تقدم بها شريف باشا ففضل الأخير الاستقالة وتولى الخديوى نفسه رئاسة الوزارة ، جامعاً كل السلطات العليا فى يده ، ولكنها كانت تجربة أثبتت فشلها بسرعة ولم تستمر أكثر من شهر واحد حيث أسندت الوزارة بسرعة إلى رياض باشا .

ولقد كانت فرنسا وانجلترا تهيئان الظروف لجعل توفيق حاكماً مستبداً حيث أن النظام الدستورى يتعارض مع التدخل الأجنبي ومع السيطرة الثنائية الانجليزية الفرنسية الممثلة فى وجود المراقبة الثنائية والضغط المتواصل على البلاد من كافة النواحى وكان توفيق نفسه مقتنعاً تماماً ان وجوده فى الحكم رهن بموافقة حكومتى فرنسا وانجلترا ، ولهذا كان لا يخطو خطوة إلا بعد استشارة القنصلين الانجليزى والفرنسى وكانت إعادته للمراقبة الثنائية خطوة كبيرة فى سبيل إرضائه لإنجلترا ولفرنسا رغم المعارضة القوية التى أبدتها الصحافة المصرية لتلك الإعادة ورغم الكراهية الشديدة بين الشعب لتلك المراقبة الثائية .

وقد كشف المؤلف عن المناورات الدبلوماسية الكبيرة التى قام بها الانجليز لكى يثبتوا نفوذهم خلال ذلك . فقد فرضوا ريفررز ويلسون فى المراقبة الثنائية ولكنهم فى الظاهر كانوا كمن لم يكن يرغب فى ذلك . وسعوا إلى إجراء تصفية عامة للديون الأجنبية التى تشترك فيها عدة من الدول الأوربية الكبرى دون أن يحدث أى مساس بسلطات الرقيبين الانجليزى والفرنسى .

ولما صدر مرسوم التصفية فى ٣١ مارس ١٨٨٠ تشكلت لجنة دولية لتنفيذه . وحيث أن هذه اللجنة كانت هى نفسها لجنة التحقيق القديمة — باستثناء بعض التعديلات — فقد قوبلت بمعارضة مصرية شديدة من جانب المصريين الذين كانوا يخشون — والحق معهم — من أن يضحى بهم عن طريق إلغاء دين المقابلة لمصلحة

الدائنين الأوربيين . ورغم كل هـذا صدر قانون التصفية فى ١٩ يوليو ١٨٨٠ فـكان بمثابة قانون مصر الحالى الذى خصص ٥٧ ٪ من دخل مصر لمدة ٦١ سنة لدفع الخراج وفوائد الديون واستهلاكها . وبينما ضمن قانون التصفية رأس المال الأجنبي فانه لم يضمن للدائنين المصريين رءوس أموالهم . ومن ناحية أخرى كانت الدولة ملزمة بسداد أى عجز فى ميزانية صندوق الدين بينما كان هذا الصندوق غير ملزم بدفع الفائض للحكومة . وحيث أن الخديوى ورجال حكومته استسلموا على هذا النحو للضغط الأجنبي فقد أصبح على الشعب أن يتحرك . فبدأت فترة « نضال حاد ذى ثلاث شعب بين روح القومية الصاعدة والسلطة الخديوية المتهاوية والأجانب بنفوذهم القوى فى البلاد » ، وهى فترة عصيبة لعبت فيها شخصيات وطنية وغيروطنية أدواراً جد خطيرة من أمثال « أحمـــد عرابى » و « محمود سامى البارودى » و « شريف باشا » و « عثمان رفقى » و « الخديوى » و « توفيق باشا » و « رياض باشا » والسلطان « عبدالحميد » الثانى ومبعوثه « درويش باشا » ومالت ودى رينج وسنـكفـكز القنصلين الانجليزى والفرنسى ومن الدبلوسيين الأوربيين جرانفيل الانجليزى وبسمارك الألمانى وجمبتا الفرنسى .

وقد عمل المؤلف على أن يرسم صورة سريعة لـكل واحد من هؤلاء على ضوء موقفه من الثورة العرابية . فقال عن رياض إنه كان « يشبه الساسة الأتراك فى زمانه ، فهو شديد الاعتداد بخصاله وهيبته ... مغرور وميال إلى الاستبداد » وكان يقول عن نفسه إنه كافور أو بسمارك . فـكان شديد الوطأة على زعماء الحركة الوطنية حيث طرد جمال الدين الأفغانى من مصر تنفيذاً لنصيحة القنصلين الانجليزى والفرنسى وحدد إقامة محمد عبده ، وكبت الصحافة . وكانت ظروفه صعبة فى الواقع حيث إنه هو الذى واجه نمو الحزب الوطنى الذى كان قد ظهر منذ ١٨٧٩ وكان يتألف من الضباط (الفلاحين) من أمثـال عرابى والباشوات المتصلين بالخديوى السابق اسماعيل ومن بعض كبار الملاك الذين أضر بهم قانون التصفية وجماعة مصر الفتاة الداعية إلى الإصلاح الدستورى والحرية الصحفية .

أما مالت ودى رينج فقد صورهما لنـا المؤلف على ضوء موقفهما من الأزمة الضيقة التى وقعت بين عرابى ورفاقه من جهـة والخديوى وعثمان رفقى من جهة

أخرى . فكما هو معروف تمكنت وحدات الجيش أن تطلق سراح عرابى ورفاقه وقامت بمظاهرة عابدين الكبرى . فماذا كان موقف كل من دى رينج (الفرنسى) ومالت (الانجليزى) من هذه الثورة ؟ .

كان دى رينج يرى أن حركة الجيش ليست إلا مظهراً من مظاهر الشعور الوطنى المصرى . وكان مدركاً أكثر من غيره من المسئولين الأجانب للموقف . ومع هذا فقد سحبته الحكومة الفرنسية من مصر فى هذه الظروف رغم المعارضة الشديدة التى أبدتها الجالية الفرنسية فى مصر لسحبه . وحل محله سنكفكز .

أما مالت فكان يصور الحركة الوطنية فى مكاتباته إلى وزارة الخارجية الانجليزية بأنها مجرد حركة عسكرية لا تستحق العطف . وكان يشد أزر الرجعية فى مصر لمناهضة الثورة ، ووقف بقوة إلى جانب الخديوى .

أما فى الجانب الوطنى ، فيجدر أن نشير إلى مقارنة بين عرابى وشريف فلقد ظهر الأول بمظهر الزعيم الوطنى ، وكانت قوته كامنة فى إخلاصه وجرأته وفصاحته وتعبيره عن آمال الشعب وآلامه وفى عدالة القضية التى تصدى للدفاع عنها ، وبرغم أنه لم يتلق القسط الكافى من التعليم لمعالجة مسائل السياسة ، إلا أن شخصيته القوية مكنته من السيطرة على الجيش الذى كان فى ذلك الوقت هو الفئة الوحيدة التى تتكون غالبيتها من المصريين » .

ولا شك أن أحمد عرابى كان زعيما وطنياً مخلصاً ولكن الظروف التى واجهها والأزمات المستعصية التى ألقيت فى طريقه كانت فوق الطاقة .

أما شريف باشا فقد تعددت الآراء حوله ، أما المؤلف فقد وصفه بأنه :

«كان بطبيعته أميل إلى الدعة .... ومجاراة التيار دون محاولة السيطرة عليه »(1) .

إن الظروف هى التى منحت شريف باشا فرصة واسعة لتولى الوزارة بعد حركة الجيش فى ٩ سبتمبر التى كانت رداً على محاولات الخديوى والأجانب لتصفية الثورة . فقد كان العسكريون يثقون فيه لأنه كان من أنصار الحركة الدستورية ، ولأن

الدبلوماسيين الإنجليز والفرنسيين كانوا قد وافقوا عليه كما «أن الأتراك القدامى» — وكان هو نفسه معهم — قد أيدوه .

لقد كانت هناك مسئوليات كبرى ملقاة على عاتق وزارة شريف باشا ، وعلى رأسها الحاجة إلى تهدئة الأوضاع الداخلية وإنقاذ مصر من الاستبداد الخديوى ومن التدخل الأجنبى ومن التدهور الاقتصادى . ولـكنه كان يواجه كذلك بأمور جديدة ومنها مقدم بعثة من قبل السلطان عبد الحميد الثانى إلى مصر ، وهى بعثة — فى اعتقادنا — كانت تعقد الأمور أكثر من توجيهها نحو الحل السلمى . فلقد كان السلطان عبد الحميد الثانى ينظر إلى الأزمة المصرية من وجهة نظر مصالحه وأهدافه . فهو كان يكره الحركة العرابية لأنها حركة دستورية ، وكان يحث الخديوى توفيق على رفض الفكرة الدستورية . ولـكنه فى نفس الوقت كان يريد أن يقوى من سلطاته فى مصر حتى ولو تم ذلك على حساب الخديوى والشعب المصرى معاً . بل إنه فى وقت من الأوقات كان مستعداً للموافقة على التنازل عن مصر مثلما تنازل من قبل عن قبرص للانجليز . ثم إنه كانت لدى السلطان عبد الحميد مخاوف خاصة به من جانب الثورة العرابية . فقد تصور أنه ربما تتطور هذه الثورة إلى حركة تؤدى إلى وضع كل من سورية ومصر تحت حكومة واحدة على تلك الصورة التى طالعتنا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر على أيام محمد على . ومن ناحية أخرى كان عبد الحميد الثانى يخشى من أن تهتز مكانته كخليفة للمسلمين مرة أخرى لو تفوق التدخل الأوربى فى مصر على تدخله فيها خاصة وأنه كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية وإلى التفاف المسلمين كافة حول خليفة المسلمين .

ولـكن قررت الحـكومتان الإنجليزية والفرنسية أن تمنع السلطان من التدخل فى أمور مصر إلا فى أضيق الحدود . ولهذا عندما أرسل السلطان عبد الحميد الثانى بعثة إلى مصر برئاسة نظامى باشا ردت الحـكومتان الإنجليزية والفرنسية على ذلك بإرسال سفينتين مسلحتين إلى المياه المصرية . ولم تلبث البعثة العثمانية أن انسحبت بينما بقيت السفينة الإنجليزية فى المياه الإقليمية المصرية .

وتابعت الدبلوماسية الإنجليزية مؤامراتها حتى أحرجت حكومة شريف باشا الذى فضل — على عادته — الاستقالة بدلا من مواجهة الأزمة . وكان الدور الذى لعبه مالت فى هذا الصدد خطيراً ، فقد بدأت المخططات الإنجليزية نحو احتلال مصر

تتضح خاصة عقب إصدار مالت رسالة موجهة إلى الرأى العام المصرى الذى تزايد قلقه من ناحية الإنجليز (١٨٨١/٩/١٥) . فقد أشارت هذه الرسالة إلى أن انجلترا لا تفكر فى التدخل إلا « إذا تعرضت البلاد للفوضى » وهى عبارة يمكن أن يفسرها الإنجليز على طريقتهم التى مهروا فيها لتبرير التدخل . ومن ذلك أن مجرد وجود أحمد عرابى فى القاهرة أثناء انعقاد مجلس شورى النواب كان فى رأى مالت يوفر حالة فوضى تستدعى التدخل .

والواقع أن انعقاد مجلس شورى النواب فى حد ذاته كان شوكة فى جانب النفوذ الأجنبى فى مصر مع أن شريف باشا كان قد دعا المجلس للانعقاد ليتمكن من إبعاد الجيش عن السياسة ، وهو أمر كان يريده الإنجليز أيضاً وفعلا أجريت الانتخابات وإذا بمعظم أعضاء المجلس من الأعيان وعلى رأسهم سلطان باشا . وهو أمر طبيعى أملته ظروف التشكيل الإجتماعى فى مصر حينئذاك ، والطريقة التى أجريت بها الانتخابات .

ولقد أبدى أعضاء هذا المجلس منذ البداية أعتدالا واضحاً إزاء الأجانب . فلقد وافقوا على استمرار المراقبين الإنجليزى والفرنسى فى عملهما ، وفضلوا العمل على تنفيذ إصلاحات مالية وسياسية بدلا من الاصطدام بانجلترا وفرنسا أو بالدائنين الأوربيين . ولكن اتجاه السياسة الإنجليزية الفرنسية كان يسير نحو تعقيد المسألة المصرية . ففى نفس ذلك الوقت كانت المفاوضات الإنجليزية الفرنسية قد انتهت إلى صيغة إنذار موجهة إلى القوى الوطنية وهذا ما عرف باسم المذكرة المشتركة (يناير ١٨٨٢) . وهى المذكرة التى رأى فيها المصريون أنها :

ترمى إلى الضغط على السلطان وجعل الخديوى ألعوبة فى يد فرنسا وانجلترا وأن مصر ستتعرض . . . لنفس مصير تونس كذلك رأى قادة الجيش أن هذه المذكرة المشتركة موجهة ضد حركتهم . فكان طبيعياً أن يرفضها الوطنيون وأن يعملوا لتوحيد صفوفهم لمواجهة التدخل العسكرى الإنجليزى الفرنسى المرتقب . ولقد كان الهدف الكامن وراء تلك المذكرة المشتركة فى رأى المؤلف هو التأكيد على أن لبريطانيا وفرنسا وحدهما حق التدخل فى أمور مصر دون غيرهما ، أو بمعنى آخر القضـــاء على فكرة التدويل للمسألة المصرية وأما الهدف الثانى فى رأيه

فهو إرهاب مجلس شورى النواب حتى يتوخى هذا المجلس الحذر إزاء أية مشكلة تتعلق بالمصالح الإنجليزية الفرنسية ، وخاصة فيما يتعلق بالميزانية .

وقد أدت المفكرة المشتركة إلى حيث الوطنيين على التصدى للتدخل الأجنبي وعلى تحدى المراقبة الثنائية ، والإصرار على مناقشة الميزانية ، ووضع المصالح فى مكانها اللائق بها ولما كان شريف باشا يرى أن ذلك سيؤدى إلى أزمات شديدة آثر أن يستقيل على عادته .

تشكلت بعد ذلك وزارة محمود سامى البارودى التى كان فيها عرابى وزيراً للحربية ، وأخذت هذه الوزارة على عاتقها أن تخدم القضايا الوطنية ، فعملت على تقليص سلطات المراقبة الثنائية ، وعلى وجه الخصوص تلك السلطات التى استخدمتها المراقبة الثنائية دون وجه حق . وأخذت الوزارة تتخلص من الموظفين الأجانب . وبالتدريج بدأت تظهر تيارات وطنية قومية أقوى مما ألفناه فى الحركة الوطنية من قبل . فعرابى يدافع عن الفلاح لا دفاعه عن إنسان ضعيف وإنما عن صاحب حق سلبه منه الأثرياء ، ويغمز بنياته نحو التخلص من أسرة محمد على وإنشاء جمهورية مصرية خاصة عندما وقف توفيق ضد مجلس شورى النواب وكان توفيق يرى أنه انعقد انعقاداً غير قانونى .

فى هذه الظروف وقعت مؤامرة الشراكسة ضد أحمد عرابى ، وتردد أن الخديوى توفيق — الذى فقد ثقة الوطنيين تماماً — طلب من السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى أن يرسل قوات من قبله من نواحى طرابلس الغرب أو سورية لشد أزره ضد الحركة الوطنية وفى نفس الوقت كان « مالت » يحث جرانفيل على التدخل دفاعاً عن الخديوى وتحت دعوى تحرير مصر من « الطغيان العسكرى . وفعلا قام الأسطول الإنجليزى بمظاهرة بحرية بهدف إقامة الوزارة الوطنية .

والعجب أن أحمد عرابى فى هذه الأزمة الطاحنة كان مستعداً لأن يبارح البلاد وأن يبتعد عن الحكم والسياسة إذا كان هذا يؤدى إلى تهدئة الأمور ولكن انجلترا وفرنسا أسرعت إلى تقديم إنذار بإبعاد أحمد عرابى وزميليه على فهمى وعبد العال حلمى . فآثر عرابى أن يستقيل ولكن المسألة لم تكن مسألة أحمد عرابى بقدر ما هى مستقبل الأمة بأسرها حيث أن هذه الشواهد كلها تؤكد أن البلاد

أصبحت تحت رحمة الأجنبي فاضطر أحمد عرابى إلى العودة إلى الوزارة تحت الضغط الشعبي وتحت ضغط الحاميات المصرية .

فكان طبيعياً أن تستمر المؤامرات الانجليزية الفرنسية ضده ، ومما عقد الموقف أن السلطان عبد الحميد الثانى أرسل بعثة جديدة برئاسة درويش باشا إلى مصر لتأييد الخديوى وتصفية الموقف بما يتمشى مع مصالح السلطان . وكان درويش باشا خلال اتصالاته يقول إنه قد يتولى وزارة الحربية .

فى هذا الجو المشحون وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الاسكندرية وما تلاها من فوضى وتدخل انجليزى غادر بضرب الاسكندرية بمدافع الأسطول . والواقع أن جرانفيل استطاع أن يقنع الدول الكبرى الأخرى أنه لو حدث تدخل من جانب انجلترا فى مصر فإن هذا التدخل سيكون « ممثلا لإتحاد أوربا وسلطانها » وكان ذلك عندما دعت انجلترا الدول الكبرى للنظر فى تطورات المسألة المصرية . وهكذا كما يقول المؤلف :

« فانجلترا دعت الإتحاد الأوربى للمرة الثانية خلال نصف قرن لحسم المسألة المصرية . وفى المرة الأولى أمكن القضاء على امبراطورية محمد على . أما فى المرة الثانية فقد تحدت أوربا القومية المصرية وفى النهاية احتلت القوات الانجليزية مصر » .

وهكذا وقفت مصر تحت الاحتلال الانجليزى ، فى وقت كانت لا تزال فيه الدول الكبرى تعقد اجتماعاتها فيما عرف بمؤتمر الآستانة الذى وجد نفسه أمام الأمر الواقع .

فى خاتمة هذا العرض نثير مشكلة الطريقة التى كتب بها الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى هوامش كتابه ، وخاصة الطريقة التى كتب بها عنوان الوثائق الانجليزية والفرنسية فهوقدترجم F.O. = Foreign Office إلى ف .و ، وهناك عدد من المؤرخين يفضل أن يعرب المراجع الأوربية مكتفياً بالإشارة إليها بلغتها فى قائمة المراجع ، وإن كنت اعتقد أنها طريقة مجهدة للقارىء ، فإننا نعرض المسألة على القراء لينظروا فيها .